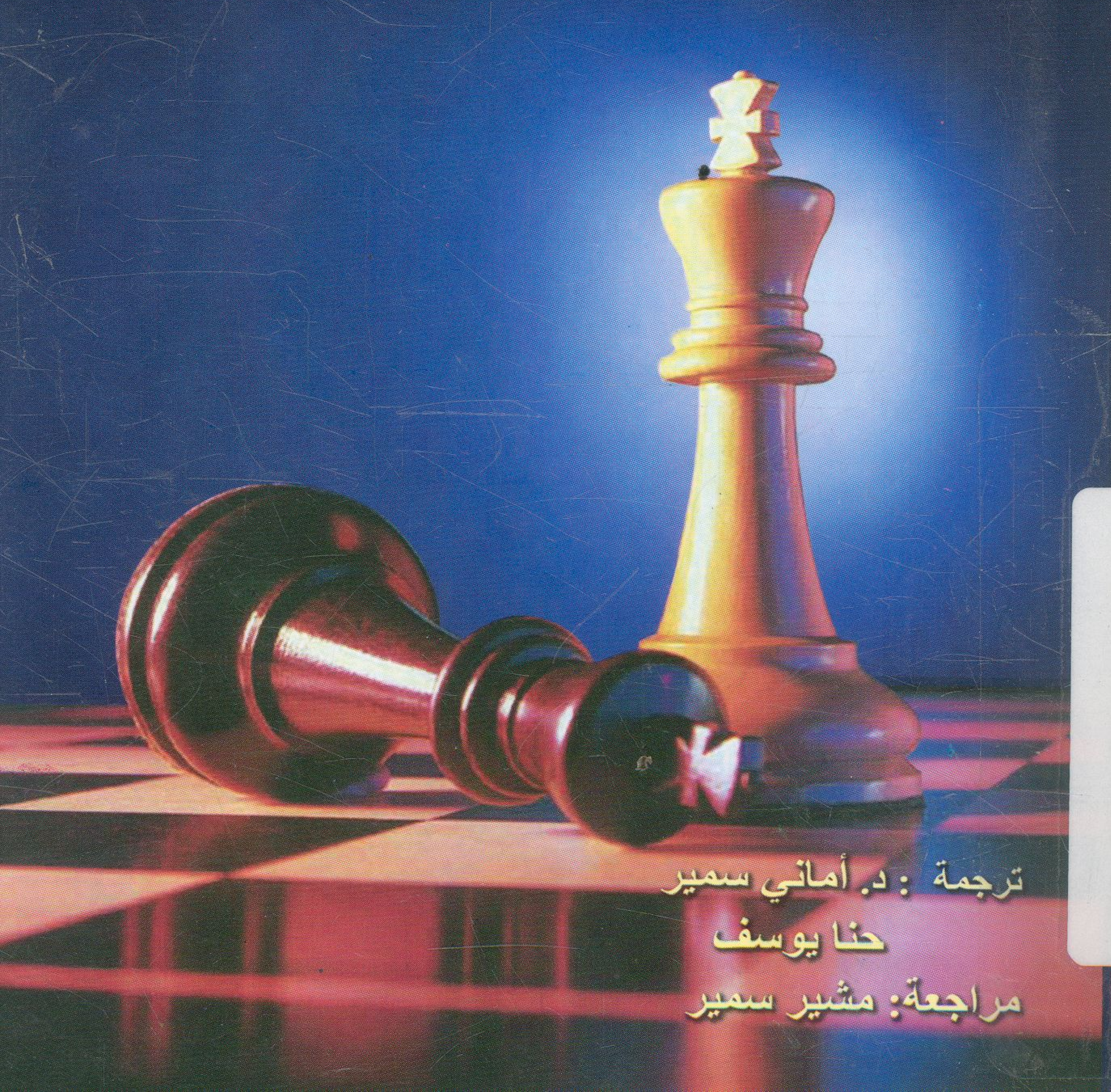
د. بول تورنييه

الأقوياء والضعفاء



ترجمة : د. أماني سمير
حنا يوسف
مراجعة: مشير سمير

إهـــــــداء ٢٠٠٩
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة


و
الضعفاء
الأقوياء

د. بول تورنييه



ترجمة : د. أماني سمير
حنا يوسف
مراجعة: مشير سمير

القاهرة - مصر
٢٠٠٩

مكتبة
دار الكلمة
LOGOS
نشر - توزيع

مكتبة دار الكلمة Logos
١٦ شارع محمود بسيوني - مَنْ ميدان الشهيد عبد المنعم رياض- الدور السابع- شقة ٢١- وسط البلد - القاهرة - مصر
☎ (+٢٠٢) ٢٥٧٩٨٤١٤
٠١٦١٣٧٣٢٩٨ __ ٠١٨٦٥٤٨٣٨٨
www.el-kalema.com
kids@el-kalema.com
الطبعة الأولى ٢٠٠٩
Originally published in English by S C M Press Ltd. U. S. A in 1963.
under the title:
The Strong and The Weak.
الطباعة والتنضيد: مطبعة الراعي الصالح
☎ ٠٢ ٢٤٩٩٨٣٣٥
الجمع: زهور برنابا
ترجمة: د. أماني سمير - حنا يوسف
مراجعة: مشير سمير
المراجعة اللغوية: خالد سمير
الإخراج الفني و تصميم الغلاف: چرمين شفيق
الإشراف الفني والإداري: محمد حسن غنيم
رقم الإيداع : ٢٠٠٩٤/ ٢٠٠٨
ISBN :977- 384 -158-8
تورنييه، بول.
الأقوياء والضعفاء/ بول تورنييه بالترجمة أماني سمير، حنا يوسف؛ مراجعة مشير سمير. - ط ١. - القاهرة: مكتبة دار الكلمة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩
٢٨٨ ص ب ٢٠سم
تدمك ٨ ١٥٨ ٣٨٤ ٩٧٧
١- التحليل النفسي
٢- علم النفس الشخصاني ١٥٠,١٩٥
أ- سمير، أماني (مترجم)
ب- يوسف، حنا (مترجم)
جـ - سمير، مشير (مراجع) د - العنوان

إلى زملائي وأصدقائي

الذين شاركوا أول أسبوع دراسي دولي في طب النفس في

Bossey Œcumenical Institute

في أغسطس ١٩٤٧ ،

وخصوصاً إلى من شاركوا معي مسئولية هذا ،

د . ثيو بوفيت ، ديدريك دوير ، فيليب كريسمان ،

الفونس ميدر ، هنري منسا ، وجان دي روغمون ،

اهدي هذا الكتاب.

إن كان جاري أقوى مني، فإني أخافه؛

وإن كان أضعف مني، فإني أحتقره؛

وإن كنا متعادلين، فإني ألجأ إلى الحيلة.

فما الدافع الذي يدفعني لطاعته،

وما السبب الذي يدفعني لمحبته؟

د. جان دي روغمون

المحتويات

القسم الأول: أن تكون إنساناً

القسم الثاني: ردود الفعل

القسم الثالث: علم النفس والإيمان

القسم الأول

أن تكون إنساناً

١

المظهر و الواقع

كنتُ قد دخلتُ لتوي أحد المطاعم كي أبدأ كتابة هذا الكتاب. وبينما كنتُ أخرّج من حافظة أوراقي خطة الكتاب التي رسمتها بعناية، إذ بمشهد بسيط يسترعى انتباهي - مشهد معتاد، لكنه ذو مغزى عميق جداً. زوجة صاحب المطعم تنحني للتحدث إلى ابنها الذي يبلغ من عمره حوالي سنتين أو ثلاث سنوات، وهو يضرب الأرض ويصرخ باكياً غاضباً. كانت عند قدميه على الأرض قصاصات ورقية ممزقة. وأمه تهزه وتكرر كثيراً: "ألن تجمع هذه القصاصات الورقية؟ ألن تجمع هذه القصاصات الورقية؟"

كان جميع الزبائن يراقبون المشهد في هدوء. ولا يبدو أن هناك من يتوقع أن يرى الطفل يتوقف عن البكاء وينحني خاضعاً لالتقاط القصاصات. وكذلك الأم بالطبع. فكلما تهزّه، كلما يبكي. فصارت متضايقة للغاية. ولولا المتفرجين، لصفعته على الأرجح.

وكان الأب يتحدث إلى بعض الزبائن على منضدة بالخارج. وبالتأكيد، لم يكن يفوته شيئاً مما كان يحدث بالداخل، لكنه يبدو مستغرقاً في الحديث الذي يشارك فيه.

وفي مواجهة الصراع الدائر على بُعد خطوات منه، يتبنى موقف الحياد، تماماً مثلما يتظاهر آباء كثيرون في مثل تلك الظروف؛ بقراءة الجريدة، أو النوم على الكرسي. فوجود الزبائن يسمح له بالتظاهر بعدم الانتباه وتجنب التدخل. هل كان من الممكن أنه لم يكن يمانع أن تعاني زوجته من إهانة بسيطة؟ أم كان يفترض أنه إن تدخل لما صار أنجح من زوجته؟! ومن ثم تمنى أن يعفي نفسه من هزيمة أمام الآخرين. مهما كان الأمر، يبدو أن هياج الأم قد تزايد بسبب هذا النوع من الانسحاب من جانب الأب، وتوّجه ضده بنفس مقدار هياجها تجاه الطفل.

الدموع سلاح الضعفاء. فبلا شك، كان الطفل قد لاحظ بالفعل أن أمه لا يمكنها السيطرة عليه بالقوة داخل المطعم كما في أي مكانٍ آخر؛ و لا يمكنها أن تواصل الصراع بأية طريقة إلى أن يستسلم هو. في الحقيقة، كلما يستمر الصراع، كلما يزداد ارتباك الأم. فمقاومة ابنها تهينها بصورة مضاعفة: في المقام الأول، إن لم يطعها يكون سبب هذا سوء تربيتها له. وعلى الجانب الآخر، رغم تفاوت قوتهما الشخصية، لا تنجح في فرض رأيها على ابنها، وهذا لأنها أضعف مما تودّ أن تبدو. وهذا الشعور بالارتباك يتسبب في تصاعد تضايقها من الطفل. لكننا دائماً ما نخجل من انهيار أعصابنا، وخصوصاً مع من يبدو بوضوح أضعف منا. ومن ثم، فإن هياج الأم يُصعِّد من ارتباكها؛ وهزيمتها ستكون الأكثر سخرية طالما استمر الصراع.

في الحقيقة، كان الخوف من هزيمة أخرى نكراء هو الذي أدى لفشل الأم.

ومن هنا، تلتقط الأم القصاصات الورقية بنفسها فجأةً، وتسحب ابنها إلى الخارج نحو البيت. الطفل ليس قوياً لدرجة المقاومة، لكنه من الواضح أنه المنتصر؛ لأن أمه هي التي التقطت القصاصات الورقية. وهكذا، سرعان ما يستعيد هدوئه بعدما كان قد انقطع بنوبة بكاء مفاجئة؛ فيمسك

يد أبيه التي يقدمها له دون أن يلتفت إليه، بينما تختفي أمه داخل المطبخ لتستأنف عملها.

هناك ملحوظة أخرى تثير سؤالاً مهماً: ربما يرى أحد رجال الأخلاق المثاليين أن الأم هي المنتصر الحقيقي، وذلك لأنها تغلبت على ضيقها وعنادها، وأنها تستحق الفضل لإنهاء صراع ميئوس منه بتضحيتها الشخصية. وربما يقول إن الانتصار الأخلاقي الحقيقي يكمن في ترَفع الأقوياء عن استخدام قوتهم، وفي تحلّيهم بالكرم الكافي لإتاحة الفرصة أمام الضعفاء. هذا صحيحٌ إلى حدٍ ما، وربما يكون الأمر هكذا مع مثل هذا الانعكاس المقبول بأن الأم تعزي نفسها في المطبخ. لكن هذه الرؤية لا تتوافق مع وقائع المشهد. فلا أحد من الشهود اعتبر ما فعلته الأم نوعاً من الكرم. فأن تترفع عن انتصار ما يمكن إحرازه بالتأكيد شيٌ، وأن تستسلم لأنك لستَ قوياً لدرجة الانتصار شيٌ مختلف تماماً. وبالتالي فنحن نميل جداً أن نستعرض لأنفسنا هزائمنا وكأنها انتصارات، والهرب وكأنه نوعٌ من الترّفع الانتصاري.

هناك اعتبارات أخرى قد تطلب فيها هذه الأم العزاء. مثال ذلك، يمكنها أن تقول لنفسها: "هذا الطفل عنيد بفظاعة؛ فأخلاقه سيئة كأبيه." ومثل هذا الفكر يجعل من الممكن بصورة مقبولة، بالنسبة للأم، أن تتجنب أن تسأل نفسها ما إن كانت الطاعة، التي تُطالب بها، عادلة أم لا، وبالأخص ما إذا كانت نبرة الصوت التي تُطالب بها مناسبة أم لا. بالطبع، كثيراً ما يحدث أن يقول الأب لطفله: "إن أخلاقك سيئة مثل أمك." وبعمل هذا ينتقم بصورة معينة من أجل أشكال الإهانة التي يكون قد تعرَّض لها من جانب زوجته في الماضي. أما بالنسبة للطفل، فإن الأب يُوّجه ضربة مزدوجة. ففي المقام الأول، يكتشف الطفل أن جداراً من الحقد والاتهام المتبادل يفصل بين أبيه وأمه. ثانياً، هناك فكرة منغرسة في ذهنه في نفس الوقت وهي: "أنا سيء الخُلق." ومثل هذا الفكر يمكنه بسهولة أن ينتج الشك في

النفس، وينذر بأن يجعل الطفل ضعيفاً، في صراعات الحياة الاجتماعية وفي تلك الصراعات التي لا بدّ أن يشنها ضد نفسه كي يسيطر على شخصيته.

ولذلك تغيرت خطة كتابي بشكلٍ ما. ولكن، ألا ينبض هذا المشهد البسيط بالحياة أكثر من كل ما كنت قد جهزته؟ فهو يثير نفس المشكلة التي أود أن أناقشها بطريقة تكون مُقدَّمة لنا باستمرار. وفي غضون بضع ثوانٍ، انكشفت شبكة مركبة من القوى المتصارعة. ورغم العائق الهائل لضعفه الجسدي في مواجهة قوة البلوغ، فإن الطفل ربح المعركة بفضل التضامن السري من الحاضرين، والتواطؤ الضمني من الأب. في أية لحظة، عندما يتقابل شخصان وجهاً لوجه، يحدث نوعٌ ما من توازن القوة. ونحن نعرف بالحدس أنه فيما ينتقل هذا التوازن من جانب إلى آخر، فسوف يحدد سلوكهما تجاه بعضهما البعض. وهذا لا ينطبق فقط على الصراعات الصريحة مثلما وصفت للتو، بل أيضاً على الصراعات المستترة الصامتة. علاوة على ذلك، ينطبق على التأثير المتبادل الذي يمارسه الزوج والزوجة. فتثار على الدوام مسألة من هو الطرف المسيطر.

وعليه، تكون المشكلة التي نحن بصددها أبعد بكثير من مجرد مشكلة عداء إرادتين متعارضتين. فكلمة "إرادة" توحي بسمات الشخصية الأكثر أو الأقل عنفاً. ولكن هناك أشخاصٍ، دون أن تبدو عليهم أبداً إلا الرقة، يسيطرون على كلّ من حولهم من خلال منطق حُججهم الذي لا يمكن دحضه، ومكانتهم الأخلاقية، أو جمالهم الآخاذ، أو سمعتهم النزيهة، أو تصرفاتهم الماهرة، أو حتى لأن لديهم ضعفاً وحساسية لا يجرؤ أحد أن يصيبها. غالباً ما تقول لي إحدى الزوجات: "كان يجب أن يكون زوجي محامياً؛ فهو دائماً صاحب الكلمة الأخيرة؛ وأنا أشعر بالعجز عن التعبير عن نفسي أمامه؛ فهو دائماً على حق." وغالباً ما يقول أحد الأزواج: "لقد يئستُ تماماً من تقديم النصيحة لزوجتي؛

فهي تطلب رأيي، لكنها لا تسمع أبداً إلى ردي. إنها ترى الأمور كما يحلو لها أن تراها، ولا شئ يجعلها تتخذ نظرة موضوعية." هناك آباء وأمهات يتوددون أمام طفلهم، وإن تفحص المرء الموقف بعناية، لأدرك أن الطفل لم ينتحل القوة لنفسه، بل أنه قد نُصِّبَ ملكاً رغماً عنه. فضعف الأبوين المحبين بصورة خاطئة هو الذي أضفى عليه قوته المطلقة. وإن صار عنيداً مستبداً، يكون اللوم واقعاً على أبويه أكثر مما يقع عليه هو. فشخصيته هي نتيجة - أكثر من أن تكون سبب - السيادة التي يمارسها.

هناك أيضاً نوعٌ معين من الأمهات اللواتي يربين أطفالهن بصورة حريصة للغاية دون أن يُقدمن لهن أمراً مطلقاً أو رفضاً قاطعاً، لدرجة أن يصير الطفل معتمداً عليها تماماً. فهو يظنها قديسة؛ فيتبنى ذوقها في كل شئ؛ ويختار الوظيفة أو الزوجة التي تريدها له أمه في أعماقها؛ كما يواجه الحياة دون دفاعات لأنه اعتمد تماماً على أمه التي تتخذ عنه كل قراراته. مثل هذه الأم سوف تُدهش تماماً إن أخضعت نفسها لفحصٍ ذاتي صارمٍ، عندما تكتشف أن مثل هذا الحرص الكامن لم يكن مُحايداً كما كانت تعتقد، وأنه فيما وراء رغبتها النبيلة لتربيته جيداً ووضعه على المسار الصحيح تكمن لذة لا شعورية في استمرار اعتماده عليها وأن تلعب في حياته دورَ العناية الإلهية التي يختص بها اللـه وحده.

في العلاقات الشخصية، يكون ما يؤرجح التوازن إلى هذا الجانب أو ذاك، هو مجموعة عوامل تبلغ من الكثرة والغموض ما يجعل من المستحيل أبداً تقييمها كلها. ففي الصراع البسيط الذي وصفته، حصَرْتُ نفسي في إطار ملاحظة العوامل الأكثر وضوحاً. لا شك أن عدداً كبيراً من العناصر الشعورية واللاشعورية قد دخلت إطار التوازن الذي أرسى انتصار الطفل. كما أن العمل المثابر للمحلل النفسي سوف يكشف المزيد من هذه العوامل - تلك العوامل المرتبطة بالعلاقات غير الشعورية بين الأب، والأم،

والطفل، و علاقات كل منهم مع العالم، الذي يمثله العملاء. ولم يكن هذا أكثر من مشهد من الفيلم المستمر لتطور تاريخي تزيد فيه كل حلقة أو تنقص من فرص انتصار كل ممثل في المستقبل.

نفس الأمر يحدث في العالم - في الأسرة، في مجلس الإدارة، في الورشة، في المدرسة، في لجنة المؤسسة الخيرية، أو بين الدول. فالمجتمع كله يُنظر إليه بصفته مُعرَّضاً لتفاعل قُوى متصارعة، أحياناً متوازية، وأحياناً تسود على بعضها البعض. ويكون الأمر بمثابة سلسلة لا نهائية من المعادلات، كل منها تُعبِّر عن العلاقات الداخلية بين عناصرها. وكلّ من هذه المعادلات يتركب من عدة شروط إيجابية وسلبية. ومن بين الشروط الإيجابية قد تظهر مكانة شخصية لامعة أو سيارة جديدة أنيقة (حتى ولو كانت بالتقسيط)، أو درجة جامعية أو سُمعة طيبة بالاستقامة - أو حتى سُمعة المرء بصفته تاجراً منعدم الضمير. ومن الجانب الأخر، كما شرح أدلر بوضوح[1] أنه من بين الشروط السلبية قد يظهر الثِقل الممتد لسرٍّ ما أو مرض واضح، أو فقر، أو جهل، أو شعور بالخري يحمله طفلٌ ما عن أب مستخف، أو تعطش مفرط للحنان، الذي يبقيه في إحدى حالات الاعتمادية. على العموم، نحن لا نتعامل مع صيغة رياضية جامدة، بل مع الحياة، مع حركات غامضة يكفي لأبسط ابتسامة ثقة، أو أبسط ابتسامة سخرية، أن تعدِّل مسارها. فحقيقة أن المرء ينتمي لهذا الحزب أو ذاك، أو هذه الكنيسة أو تلك، قد تكون علامة سيادة بالنسبة لشخص ما، أما بالنسبة لشخص آخر فقد يستحق الأمر مجرد الاحتقار.

ولكن لا شيء من هذا يُعتبر أمراً قاطعاً. فواحد يبدو أنه في مكانة الانتصار يسمح لنفسه دائماً بالخضوع للتأثير. وآخر لا يملك شيئاً من مقومات الانتصار، وربما لهذا

1 A. Adler, *The Neurotic Constitution*, translated by Bernard Glueck and J. E. Lind, Kegan Paul & Co., London, 1921.

الأساسي للشخص. وهذا يُفهم فقط باعتباره نمطاً آخر من ردّ الفعل. وهذا الصراع الأساسي هو صراع تتوجه فيه غريزتنا العدوانية ضدّ ضميرنا الأخلاقي، كما تتوجه حاجتنا للتعبير عن شخصيتنا ضد التأثير المُقيِّد، ليس فقط تأثير المجتمع أو إرادة الآخرين، بل أيضاً تأثير حُكمنا الشخصي على الخير والشر. وفي هذا الصراع الراسخ تكمن المأساة الإنسانية. وهذا هو سبب الضيق الداخلي الذي رأيناه كامناً في أصل ردود الفعل القوية والضعيفة.

من وجهة نظري، هذه هي الصلة بين مشكلة الإنسان الطبية والاجتماعية ومشكلته الأخلاقية والروحية. فالصراع الأساسي الذي وصفته للتو هو الحقيقة الإنسانية العظمى التي لا يمكن تجاهلها. هناك قوتان تتواجهان معاً داخل الإنسان: الحاجة للحياة كما لو كان بمفرده، وأن يزيح كل شئ في طريق نموه وطموحه في أن يسود على الآخرين ويجعلهم الأدوات الخاضعة لقوته أو يسحقهم إن قاوموا؛ وضمير أخلاقي، ليس بأقل قوة، يجازي كل فعل ظالم بندم رهيب، والحاجة لأن يحَب ويُحَب، والإحساس الحدسي بالترتيب الإلهي الذي يضع حدوداً متناغمة لمجال حياة كل شخص في الطبيعة والمجتمع. فإن كان كل البشر ضعفاء، وذلك لأنهم يشعرون جميعاً أن أنفسهم ممزقة بين القوتين، وعاجزة عن حلّ الصراع الداخلي الناتج.

يتعامل الغالبية إلى حدٍ ما عن طريق التوسط ـ مزيج من ردود الفعل القوية والضعيفة. فبطريقة تبادل الأدوار حسب الظروف، قد يُوَجهون هجوماً ضدَ البيت أو ينسحبون. كما يشقّون طريقهم للأمام بقدر ما تسمح به الاعتبارات الأخلاقية، والقانون، والرأي العام. كما يكون لديهم بعض طيبة القلب والهواجس الشعورية طالما لا تتداخل مع اهتماماتهم الجوهرية.

تميز ردود الفعل القوية والضعيفة التي درسناها وضعان متضادان: وضع إسكات الشخص لضميره ومشاعره كي

يشعر بحرية غريزة البقاء، ووضع حجب الغريزة والسماح لنفسه بأن يسحقه الآخرون. وحيث إن الوضعين متطرفين، فكلاهما مرضيين؛ وكلاهما يدمر انسجام الإنسان. فهما من ناحية يقودا إلى أمراض الضعفاء (السلّ أو العصاب مثلاً) ومن الناحية الأخرى إلى أمراض الأقوياء مثل تلك الأمراض العضوية الناتجة عن الندم التي سبق وذكرتها، أو إلى "الجنون الواضح" الموصوف في كتاب د. باروك[١٠]، حيث يستخدم هذا التعبير للإشارة إلى حالات نمطية من كبت الضمير الأخلاقي، والتي تحفزها قوة هائلة لا أخلاقية يمكن أن تقود إلى كارثة سياسية واجتماعية.

ولكن لا حلّ من الحلّين المتطرفينِ - سواء الحلّ القوي أو الضعيف - ولا التوّسط بينهما يُمكن الإنسان من الشفاء العميق الذي يحتاجه. فالتوّسط لن يأتي بالخلاص من الألم الغامض الذي يُسبّبه الصراع الدائر داخله. وحتى إن كان القانون والاعتبارات الأخلاقية لا تقدم الخلاص، فإن ضميره يتهمه بأخطاء سرية كثيرة؛ وحتى عندما كان يُظهَر الكرم بسبب الجُبن، فإنه يشعر بالقلق بمعرفة أنه قد تصرَّف نتيجة الضعف فقط.

لقد وصفتُ سابقاً في الابنة الكبرى اتجاه الضعف المتطرف. وبدلاً من أن يضع هذا الاتجاه نهاية للصراع الداخلي، فإنه يُثيره. فغريزة البقاء لا يمكن تدميرها؛ فالمرء يمكنه أن يحوّلها ضد نفسه، لكنها لن تُسكت أبداً. فهي تضطرم في داخلنا، حيث تشدد ضيقنا وتثير المزيد من ردود الفعل الضعيفة.

أما الاتجاه القوي المتطرف - وهو اتجاه الأخت الصغرى- فهو يُقوّي الفرد، لكنه أيضاً لا يعمل شيئاً ليحلّ صراعه الداخلي، حيث أن الضمير الأخلاقي لا يمكن القضاء عليه مثل غريزة البقاء. لا يمكننا إسكات ضميرنا أو مشاعرنا كُليةً، رغم إنه يمكننا كبتها. وعندئذ تصبح هي المصدر

١٠ مرجع سابق.

اللاشعوري لسلسلة من ردود الفعل القوية التي تهدف لإخفائها، لكنها تجعل عملية الكبت أسوأ.

وبالتالي، في كلٍ من الأقوياء والضعفاء، يبقى الصراع الداخلي غير محسوم. ودليل ذلك هو الحاجة - المعروفة للطرفين - لطمأنة أنفسهم بتبني معتقدات معينة والدفاع عنها. إن الضعفاء مسالمون، مثاليون، يوتوبيون؛ إذ يعتبرون ضعفهم فضيلة ويستنكرون بلا جدوى مظالم العالم دون التجرؤ على محاربتها. أما الأقوياء فيؤمنون بقوة الإرادة، بفكرة السوبرمان، بالحرب، وبالتقدم من خلال الصراع؛ إنهم ماديون وواقعيون. إن عقيدة العدوانية ليس لها أنصار أكثر تعصباً من مرضى الذهان السابقين الذين انتقلوا إلى الجانب القوي نتيجة إحدى دورات التحليل النفسي. وحماستهم تلك إنما تكشف عذاب ضميرهم الأخلاقي المكبوت. ولهذا من الصحيح أن كل البشر يشعرون بالحاجة لتبرير سلوكهم عن طريق المعتقدات التي يعترفون بها، ويحولون الآخرين إليها كي يقنعوا أنفسهم بقيمتها.

إنَّ الشفاء الداخلي الحقيقي ليس أن تُوجد في جانب ردّ الفعل القوي أو الضعيف، حيث يعتمد على حلٍ واقعي للصراع الأساسي. كما أنه لا يوجد على مستوى علم النفس، بل يوجد فقط في عالم الروح. لأن الله قد منحنا غرائزنا وضميرنا الأخلاقي أيضاً. لذا فإن كلاً منهما لا يمكن تدميره. فالله وحده يجعلها متناغمة عندما يطيعه الإنسان.

رغم إن الخلاص النفسي يشمل الانتقال من معسكر إلى معسكر آخر، إلا أن الخلاص الروحي يكمن في إعادة اكتشاف القصد الإلهي، الذي تعمل فيه غريزة البقاء والضمير الأخلاقي بصورة صحيحة في الإنسان كما صممها الله. لا شك أن القصد لا يُدرك أبداً بصورة كاملة في هذا العالم. لكنٍ الحالات المتلاحقة أظهرت أن طريق الصحة بالنسبة لكل من الفرد والمجتمع إنما يكمن في اختبار أصيل لنعمة الله. ومثل هذا الاختبار يُحرِّر الضعفاء من

متاعب ردود أفعالهم الضعيفة ويُحرِّر الأقوياء من الحلقة المفرغة[11] لردود أفعالهم القوية. كما يستردّ شجاعة الضعفاء ويكسر كبرياء الأقوياء. فيتصالح الضعيف مع الحياة، ومع نفسه، ومع حياته الجنسية، ومع غرائزه. كما يسمع القوي صوت ضميره، وينال قوّة جديدة مختلفة، القوة النابعة من تمييز الضعف الخفي الذي كان مستتراً تحت مظهر القوة. ويساعد الضعفاء على تمييز الجُبن الذي كانوا يظنونه كرماً، ويساعد الأقوياء على تمييز الظلم الذي كانوا يعتبرونه حقاً من حقوقهم.

لنلقَ نظرة أخرى على الأختين. فإن كانت قد سنحت لهما الفرصة لاختبار هذا اللقاء الحاسم مع يسوع المسيح، فسوف نرى الكبرى تصير صادقةً مع نفسها مرة أخرى، معترفةً بحقدها ضدّ أمها، ومسامحةً إياها. ومن ثم تتحرّر من ردود أفعالها الضعيفة دون الانتقال إلى النقيض المتطرف الذي تمثله ردود الفعل القوية للعدوانية. وسوف نرى الصغرى تطلب الغفران من الله ومن أمها - وهذا لن يكون ردّ فعل ضعيف بالمرة، بل بالعكس، فحيث تتحرَّر من الندم ستجد السلام الداخلي ومحبة أمها.

كلما يزداد اختبارهما لنعمة الله، رغم تكرار عودة ردود الفعل الطبيعية القديمة، فسوف نرى الأخت الكبرى تتصرّف بجرأة أكثر فأكثر، بينما تصير الصغرى أكثر رقة بالتدريج.

لا ينطبق هذا فقط على الحالات المتطرفة والصراعات الحادة كتلك التي استخدمتها كأمثلة توضيحية. ففي كل علاقة اجتماعية، في الواقع، تُثار مسألة أي جانب سيؤثر أكثر على الجانب الآخر. في كل علاقة اجتماعية هناك

---

١١ يردّ مصطلح الحلقة المفرغة *the vicious circle* بمعنى الموقف الذي تتسبب فيه مشكلة معينة في حدوث مشكلة أخرى تجعل المشكلة الأولى أسوأ، وهكذا يكون المرء وكأنه يدور بنفسه في دائرة - [المتُرجم].

مواجهة بين الإرادتين، وكلاً منهما تضع الحدود للأخرى. وهذا الأمر يحدث سواء اصطدما في صراع ما، أو سواء أن كلاً منهما، وهو واثق أنه على صواب، يسعى بوسائل أكثر احتراماً لأن يكسب الآخر لوجهة نظره. وبالتالي، في كل علاقة اجتماعية، تكون الاتجاهات الثلاثة كلها محتملة: ردّ الفعل الضعيف الذي يخضع بسلبية، مستنكراً كل محاولة للتأثير على الآخر؛ وردّ الفعل القوي الذي يحاول بالضغط، سواء الضغط العنيف أو الرقيق لشقّ طريقه؛ وثالثاً الطريقة التي يُوَجهها الله، عمل انسجام بين الإرادتين من خلال خضوعهما لإرادته الإلهية التي تُحدد حدودهما الصحيحة.

أعرف مثلاً زوجين مؤمنين، وهما يتمتعان بالذكاء، وممتلئين بالإرادة الصالحة والرغبة في فهم بعضهما البعض. لكنهما مختلفين جذرياً في الطباع. فالزوج له طبيعة سلبية تأملية؛ أما زوجته فقوية ونشيطة. وعليه، فإن التفاعل القوي والتراجيدي بين ردود أفعالهما الشخصية، القوية والضعيفة؛ قد سبَّب صعوبات كثيرة لحياتهما الزوجية. ورغم الصفات الرائعة التي يتحلى بها كلّ منهما، إلا أن هذا كان عائقاً في طريق الاتحاد الحقيقي. ومع ذلك، لم تحاول الزوجة أن تسيطر على زوجها، أو على الأقل لاشعورياً. لكنها أرادت أن تساعده؛ فقد حثّته ليكون أكثر إقداماً، وأن يكون منفتحاً، وأن يستفيد من نفسه أكثر. لكن النتيجة كانت العكس. فتحت هذا الضغط، رغم أنه كان ضغطاً رقيقاً، شعر الزوج بالدونية، وبأنها تسيء فهمه؛ فتقوقع أكثر حول نفسه، وبدا أنه مُستنزَف الطاقة. ومن الداخل، كان كلّ منهما يرجو أن يتغير الآخر.

واليوم تلقّيت منهما خطاباً يخبرانني فيه عن التغير الذي أحدثه فيهما اختبار نعمة الله في حياتهما. فقد أدركت الزوجة في صلواتها أن الله كان يطلب منها أن تستنكر الضغط الذي كانت تُخضع زوجها تحت وطأته "بروح تذمر، وشفقة على

النفس، وانتقام"، كما تذكر. أما بالنسبة للزوج، فقد رأى أنه لا بدّ أن يتوقف عن "نقل الأمور التي تضايقه إلى قلبه بمنتهى السرعة."

والآن تغيرت الأمور للأفضل. فقد حرَّر صوت الله الزوج من ردّ فعله الضعيف وحرَّر الزوجة من ردّ فعلها القوي، ومن ثم فقد دعمت ردود فعل كلّ منهما ردود فعل الآخر. لقد أنقذتهما قوة الصلاة من الميكانيزمية العمياء الجافة لردود أفعالهما الطبيعية، ورفعتهما إلى مستوى جديد من الاتحاد الحقيقي في التنوع المتناغم لطباعهما التكميلية. يضيفان بفرح: "لم تعد المسألة مسألة تغيير بعضنا البعض؛ بل تغيير أنفسنا بمعونة الله."

٢

المُنهزمون

ما قلناه حتى الآن يثير المسألة المرتبطة بالسبب وراء تنوع ردّ الفعل هذا في أشخاص متنوعين. فكيف يكون ردّ فعل البعض قوياً، وردّ فعل البعض ضعيفاً تجاه نفس العذاب الداخلي، وكيف يكون أن المجموعة الأولى تفخر بالصحة والقوة الوهمية، بينما يذهب أفراد المجموعة الأخرى إلى الطبيب منهزمين من الحياة؟.

منهزمون! كم مرّة سمعتُ تلك الكلمة التي يقولها من يأتون ليُخبروني بمعاناتهم! "لقد أتلفتُ حياتي. منذ عشر سنوات كان يمكنك أن تساعدني؛ أما الآن فقد فات الأوان." وفيما يكونون مسحوقين من جانب كل المحن التي كسرتهم، وتتابع الكوارث التي جلبتها عليهم الحياة، يشعرون أن هذه الأمور لا يمكن تجنبها إلى حدٍ ما، وأنهم يعيشون تحت لعنةٍ ما. ويكون كل ما يتوقعونه كوارث جديدة. فيفسدون كل ما يلمسونه، ويُسوِّدون حياة أحبائهم؛ فيلومون أنفسهم، وهذا ما يمنحهم ضميراً مُثقلاً يُصعِّد من ارتباك ردود أفعالهم. ويكونون "غير المرغوب فيهم" في الأسرة. يشعرون أن السعادة ليست من نصيبهم. وكل شئ ليس على ما يرام بالنسبة لهم: الجنس، والزواج، والعمل،

وجهودهم، وأحكامهم. كما تسحقهم الحياة، والمجتمع، والمال، والقيم الأخلاقية، والأسوأ من ذلك، يسحقهم نفس الأشخاص الذين يتمنون مساعدتهم ويحاولون وضعهم على المسار الصحيح، حيث يدعونهم أنانيين، متكبرين، مفرطي الحساسية، مرائين، أو فاسدين. كما يسحقهم عنصر النقد في كل هذا، وتسحقهم الشكلية الاجتماعية، والأخلاقية، والدينية. يصارعون ضدّها بطاقة اليأس، مندفعين ضدّ الحواجز فقط ليُصدموا بفشلٍ جديدٍ، وبالتالي يستقدمون لوماً جديداً على أنفسهم.

والمؤسف أكثر هو أنهم يُسحقون حتى عندما يسعى شخصٌ ما أن يساعدهم بعطف ومحبة. فالشفقة التي يدركونها في مثل ذلك الشخص تسبب لهم الإهانة. فهمّه إنما يجعلهم يشعرون بأن حالتهم الدنيئة أكثر حدّة. وقد لاحظتُ كيف أن ردود الفعل الضعيفة لمرضاي تصير أكثر وضوحاً وأكثر تعدداً بمجرد أن يبدأون يشعروا أن حالتهم قد فُهمت.

أتكلم إلى امرأة ظلّت تشعر دائماً أنها غير مرغوب فيها في أسرتها، وظلّت تشكّ في عاطفة أبويها، وتشعر بأنها أضعف من إخوتها وأخواتها. وفيما كانت تتنقل من ردّ فعلٍ ضعيف إلى آخر، سقطت أخيراً ضحية لعُصاب ذهني تملّكي. هناك عدم تناغم واضح بينها وبيني يسهُم في إحساسها بالهزيمة. ففي أعماقنا الداخلية، كلانا بائس كالآخر؛ إلاّ أنها لا يمكن أن تُصدِّق ذلك. فهي تعتبر أنها هي التي فشلت، وأن طبيبها هو الناجح. فهي المريضة، ومَنْ تحتاج المساعدة؛ وأنا الطبيب، مَنْ يمكنه تقديم المساعدة. يبدو لها تبادلنا لوجهات النظر يسير كله في اتجاه واحد، مع أنني تعلمت الكثير منه. أما بالنسبة لها فهذا يشبه أحد الدروس. فسُمعتي، ومعرفتي المهنية، وحتى إيماني يعوقها عن أن تشعر بأنها نظيرة لي، ولا يمكنها أن تؤمن أن الله يحبها مثلما يحبني - فهو يحبها أكثر لأن لديه عناية خاصة بالمرضى والمنبوذين. فبسبب

إحتياجي فقط يُنعم الله عليَّ، لكنها تظن أنني مُستحق لذلك، في حين أنها لا تجرؤ حتى على أن تصلي له. وبالتالي، فإن شعورها بالنقص، مقارنةً بي، ينتقل حتى إلى المجال الروحي، ويحرمها من الاختبار الديني الذي سيحررها منه. فتظن نفسها غير جديرة بأن تستقطع الكثير من وقت رجل مشغول، كما لو لم يكن عملي في الحياة هو هذا بالتحديد. فكلما أكرس لها المزيد من الوقت، كلما ازداد خوفها من أن تُخيّب ظني بعد أن أكون قد قدمت لها اهتماماً كبيراً، وكلما حفّزت هذه الإمكانية نقص ثقتها بنفسها. فتقول في ذات اللحظة التي تكون فيها بحاجة إلى أبلغ انتباه: "لماذا لا تنتبه لمرضاك الآخرين، أولئك الذين يمكنهم أن يقدموا لك رضىً أكثر مما أستطيعه أنا؟"

وعليه، فإن الضعفاء يمكن أن ينسحقوا من جراء النقد واللوم، وبالفهم والرقة، بينما يثبت الآخرون بصلابة أمام النقد وعند التعامل معهم بتحنن.

الضعفاء حساسين وعاطفيين؛ ولكن هل ميلهم للعاطفية هو سبب أم نتيجة إخفاقاتهم؟ على أي حال، فهم يتعرضون بالتتابع للشفقة واللوم. فهل مشكلتهم مشكلة أعصاب أم مشكلة شخصية؟ هذا السؤال لا طائل منه، فدائماً ما يُطرح ولا يُجاب أبداً، لأن هناك قدراً من الحق في كلٍ من شقيه. ولكي نبقى محايدين ومنفتحين لكل جوانب المشكلة، لندعو هذه المشكلة مشكلة حساسية عاطفية *affectivity*.

الحساسية العاطفية - الفرح والحزن، الحماس والإحباط، الثقة واليأس، الخيال والإعاقة الذهنية - هي قوة مرّكبة مرهفة قوية يسهل تسميتها عن تعريفها. وتبدو لي أنها قد مُنحت أصلاً للإنسان لصالحه؛ أي كدليل لتحقيق مصيره. فكل خطوة تجاه تلك الغاية إنما تستدعي رسمياً ملامحها الإيجابية؛ أما كل خطوة في الاتجاه المعاكس فتستدعي رسمياً ملامحها السلبية. ولهذا فإنها قدرة قوية، فهي في الواقع تحكم السلوك الإنساني بأسره.

عندما تتعرض هذه الحساسية العاطفية للاضطراب، فإنها لا تتيح إرشاداً أكيداً، فتسبب الخلل وردود الفعل المتناقضة. وحالما يبدأ الشخص العصبي المسار الصحيح، يكون تعرّضه لحصار القلق على أشدّه. فينقاد للتصرف - وغالباً ما يشعر بوخز الضمير نتيجة ذلك - بالطريقة التي تجلب على نفسه الأمراض التي يعاني منها. فيضلّ طريقه مثل رجل يسير في قاعة مليئة بالمرايا، فلا يمكنه أن يكتشف طريق الخروج، حيث ما يراه ليس سوى انعكاسات لانهائية لصورته. فيتصاعد رُعبه من اضطرابه. ويشعر بالعجز والهزيمة.

مرة أخرى نتساءل عن أصل هذا الاضطراب. فهل هؤلاء الأشخاص قد كانوا مُوَجهين للهزيمة حتى منذ المهد - كما يظنون بأنفسهم في الغالب - بسبب ميل فطري لردود الأفعال الضعيفة؟ أم أن اضطراب حساسيتهم العاطفية يرجع بالأحرى للظروف المعاكسة لحياتهم؟ أم أن كلا النوعين من العوامل - الفطري والعرَضي - قد تآمرا متحدين معاً بصورة جهنمية؟ أعتقد أن الاقتراح الأخير هو الحاصل فعلاً.

في بداية هذا القرن كان يُعتقد أن كل الاضطرابات العصبية ترجع لإصابات عضوية، أحياناً ما تكون قابلة للبحث العلمي، وأحياناً ما تكون غير قابلة. ومنذ ذلك الحين أظهرت المدرسة التحليلية الأهمية القصوى للعوامل النفسية العرَضية، والصدامات العاطفية التي يُعانى منها أثناء الطفولة، والعُقد والصراعات. ولا يمكنني هنا دراسة أصل ردود الفعل الضعيفة دون التعمق في ميكانيزمات الحساسية العاطفية التي كشفها لنا المحللون النفسيون. ولكن يبدو لي أيضاً أن ذلك المعسكر، فيما تحفزّ بالحماس الناتج عن اكتشافاتهم، قد فشل بدوره في توجيه انتباهه لأحد ملامح مشكلة الاضطرابات العصبية. فهناك أطفال كثيرون يعانون من انكشافات قاسية وسابقة لأوانها ذات

طبيعة جنسية، كما يتعرضون لإساءة الآباء الذين يشعرون بالغيرة من العاطفة التي يتلَقوها من أمهاتهم، ويُضطهدون من مدرسين ظالمين في المدرسة، وأسباب أخرى تدفعهم ليكونون عُصابيين. بينما على الجانب الآخر هناك كثيرون حقاً تحفزهم وتُقسيهم مثل تلك الاختبارات. وقصة الأختين التي ذكرتها مثال على ذلك.

دائماً ما نصادف مرضى بالعُصاب تكون حالتهم راجعة لإيحاءات ضارة تلَقوها أثناء الطفولة، لكن إخوتهم وأخواتهم لا يكونون عصابيين. ولكن على العكس، فقد كانت ردود أفعالهم قوية تجاه نفس الإيحاءات، كما يكونون قد طوروا شخصيات قوية معتمدة على نفسها. رأيتُ للتو فتاة يعتبر ماضيها تراجيدياً كماضي الأختين. فحيث وُلَدت قبل أن يتزوج أبواها، تمَّ إيداعها لرعاية غرباء أساءوا معاملتها. فاستردها أبواها فجأة عندما تزوجا. وقد كانا مجهولين تقريباً بالنسبة لها، فشعرت بالضياع معهما. وسرعان ما بدأ أبواها يتشاجران، ويخون أحدهما الآخر. فعاشت الطفلة بين مشاهد العنف، واُستُخدمت بمثابة كبش الفداء في تلك الشجارات الأسرية إلى أن تمَّ انفصال الأبوين. ثم عاشت مرة أخرى مع غرباء استغلوها. وأخيراً وجدت قدراً بسيطاً من الحب في أسرة جديدة، إلا أنه سرعان ما تمَ طلاق هذين الزوجين الذين قاما بتبنيها أيضاً! فتحوَّل النور الوحيد الذي كان قد بدأ يشرق في ظلمة حياتها إلى حريقٍ مدمر. ففي مرحلة المراهقة استردتها أمها، التي كانت تقيم آنذاك مع أحد العُشَّاق، والتي سرعان ما بدأت تضطهدها بدافع الغيرة، وذلك لأن العشيق كان يُظهَر لها المزيد جداً من العاطفة. أما أبوها فقد أدمن الشراب ولم يتمكن من مساعدتها.

والآن فإن هذه الفتاة - أبعد من أن تكون قد سحقتها كل مصائبها - فإنها قد تحفزت من خلالها. فقد كانت ردود أفعالها قوية. بينما كانت لا تزال في مقتبل العمر، أحرزت نجاحاً كبيراً: فقد أوجدت لنفسها وظيفة جيدة، وعندما كانت

في سن العشرين فقط، كانت تتدبر أمور معيشتها بنجاح؛ فهي تعرف كيف تدافع عن نفسها ضد الرجال الانتهازيين، ولديها خطط رائعة للمستقبل. والآن ترغب في السفر، وقد جاءت لتطلب مني المشورة.

إن المريض هو الذي يذهب إلى المحلل النفسي؛ وحالما يكتشف الطبيب صدمات عاطفية في طفولته، فإنه يرى فيها سبب عُصابه. بينما تُتاح له بدرجة أقل فرصة فحص النوعية الأخرى من الأشخاص الذين تعرّضوا أيضاً لمثل هذه الاختبارات دون أن يتعرضوا للمرض نتيجة ذلك.

وبالتالي، فإن الصدمات النفسية لمرحلة الطفولة، التي يرى فيها المحللون النفسيون سبب العُصاب، تكون لها أهمية حقيقية، ولكن ليست أهمية حاسمة. فهناك عامل آخر قد نصفه بأنه عامل المجال. وهذا المجال في الواقع هو تركيبة الشخص الجسمية والنفسية، ميله الفطري لردود الأفعال الضعيفة. وعليه، بعد فترة النظريات العضوانية للعُصاب، وبعد فترة نظريات التحليل النفسي، أعتقد أننا لا بدّ الآن أن نبحث عن تفسيرٍ مقنع قائم على أساس مفهوم جمسي/ نفسي. فالعُصابي لا يشعر أن الطبيب المادي يفهمه، حيث يفشل الطبيب في تمييز أهمية العوامل الأخلاقية في أصل حالته: صور المعاناة التي اجتازها، الإهانات التي احتملها، صور الاستبداد التي سحقته، الندم الذي استنزف طاقته، خيبات الأمل التي اختبرها. إنه لا يشعر أنه مفهوم بينما طبيبه - على الجانب الآخر - يفشل في تمييز الدور الذي يلعبه العامل الفطري. وذلك لأن المريض نفسه يشعر بالحدس أن ميلاً فطرياً معيناً في تكوينه الجسمي والنفسي قد قاده لعمل ردّ فعل مختلف عن الآخرين تجاه صدمات ومشكلات الحياة، وهذا ما أدى لهزيمته بينما الآخرين قد تشدّدوا.

ذات مرة عالجتُ أحد المكتئبين كان يعالجه عددٌ من المحللين النفسيين واحداً بعد الآخر. أخبرني عن الارتياح

الهائل الذي اختبره عندما شرح له آخر هؤلاء المحللين بصراحة أن المريض به ميل فطري طبيعي تجاه الاكتئاب لم يكن هو مسئولاً عنه، ولكن لا بدّ أن ينتبه إليه على الدوام في شجاعة.

وبالتالي، فإن الذين يُعرِّضهم طبعهم للهزيمة هم الذين يسمحون لأنفسهم بأن يُسحقوا. وهذه لم تعد مشكلة نفسية بصفة بحتة؛ فهي مشكلة طبية وجسمية نفسية - مشكلة الشخص نفسه. قدم د. وايدال ملاحظة مشابهة بخصوص العواطف الحساسة: "الحساسية مسألة إرادة."[1]

إمراة تشعر بأنها مُنهزمة من الحياة. يكشف لنا التحليل النفسي الدور الذي تلعبه أمها في ذلك، ذات الشخصية القوية البارزة التي سيطرت عليها، وأحبطت رغباتها ودعوتها. ونتيجة لذلك تشعر الابنة بالعجز تجاه أمها، وبأنها ممنوعة بسببها من الحياة بحرية. ولكن عندما تموت الأم لا تتصرف الابنة بحرية أكثر، بل تظل مسحوقة كما كانت. فهي تكشف عن تكوين مرضي. ورغم كل الجهود تفشل في تخسيس وزنها، وتحسين ضغط الدم، وحالة قلبها أو هضمها، فتستمر آلامها العُصابية.

فإن كان علينا لفهم العُصاب أن نراعي مع فرويد أهمية الأحداث في التطور النفسي/الجنسي للمريض، وأن نراعي مع أدلر تطور المريض النفسي/الاجتماعي، وأن نراعي مع يونج تطور المريض النفسي/الروحي، فلا يمكننا مثلهم أن نرى في مثل هذه الأحداث السبب الوحيد للمرض. فباقتباس معادلة من الرياضيين، سنقول إن الصدمات النفسية والعُقد المرضية تشكل عاملاً ضرورياً، لكنه ليس كافياً. فكي يظهر المرض لا بدّ أن يكون هناك بالإضافة إلى ذلك ميل معين لردود الأفعال الضعيفة يكون أساسه في الطبع النفسجسمي.

---

[1] أنظر Pierre Salet, *Les livres de Confucius*, Payot, Paris, 1923

ومن هنا يكون السؤال: ما هو الدور التبادلي الذي يلعبه العاملان المتشابكان؟ ما مدى تجنبهما وما مدى علاجهما؟ وأخيراً، ما طبيعة العامل الفطري؟

أعتقد أن السؤال الأخير نفس / جسمي، وبلا شك يعتمد على ما يُسَمى اليوم بالجينات: فمن الجانب البدني ضعف تكويني معين؛ ومن الجانب النفسي درجة عالية من الحساسية والميل للإثارة العاطفية. ليكن عامل المكان هذا هو مشهد الصدمات النفسية/الجنسية، أو النفسية/الاجتماعية، أو النفسية/ الروحية، وسوف تسبب ردود الفعل الضعيفة. فكلما كانت هذه الصدمات خطيرة وكثيرة، كلما كانت ردود الفعل مميزة. وبما أن هؤلاء الأشخاص أضعف بدنياً وأكثر حساسية نفسية من الآخرين، فسوف يستجيبون بصورة منتظمة بردود أفعال ضعيفة. كما أن ردود الفعل الضعيفة ستقوِّض بدورها قُوى مقاومتهم البدنية وتزيد من حساسيتهم، ومن ثمَّ تكون الحلقة المُفرغة التي وصفتها.

هذان الصنفان من الإشارة - الضعف البدني والحساسية النفسية- موجودان في كل العصابيين، وأيضاً في "أمراض الضعفاء"، الذين مبعث أعراضهم بدني أكثر مما هو غير ذلك، مثل السلّ. كما أن برهاناً آخر للدور الذي يلعبه الجسم هو حقيقة أن العصاب غالباً ما يكشف نفسه عقب الولادة، أو عملية، أو مرض معدي، أو فترة إفراط في العمل، أو أزمة نفسية كالبلوغ أو سن اليأس.

ويبقى السبب الأساسي لهذا الضعف البدني لغزاً. فلستُ أعتقد أن الطب الجسدي، ربما لأنه ظلّ تحليلياً ومادياً للغاية في رؤيته، قد منحنا حتى الآن مفتاح المشكلة. فقد نجح في قياس الأنيميا، وضغط الدم، وإفراز الهرمونات، لكنه لم يخترق سبب كل هذه الاضطرابات. ومع ذلك، فمن الممكن جداً أن يكون هناك سبب نفسجسمي واحد لكلٍ من الضعف الجسدي والحساسية النفسية.

وعليه، هناك على الأرجح مُعامل أساسي معين وفطري للضعف الجسدي والحساسية النفسية يجعل الشخص ميالاً لردود الأفعال الضعيفة، وبدوره يتفاقم أمره بسببها. فهذه الحلقة المفرغة التي يمكن أن نحاول كسرها بعلاجاتنا الجسمية والنفسية هي المعامل التكميلي الذي يمكننا أن نبطله. لكن الشخص يحتفظ بطبعه. فهذا لا بدّ أن يقبله بالفعل، ويأخذ في اعتباره في تنظيم حياته. لأنه إن تمردّ ضد طبيعته، إن أهانها بتعريض نفسه للجهود الجسمية المفرطة أو الأذى الحاد لمشاعره، فسوف يرى إعادة ظهور سلسلة ردود الفعل الضعيفة التي يبقى ميالاً لها. ولكن رغم أن أمثال هؤلاء لا يمكنهم تبديل طباعهم، فهذا ليس معناه أن الهزيمة هي قدرهم، كما يشعرون غالباً. فالحلقة المفرغة لردود الأفعال الضعيفة هي التي تقدم لهم ذلك الانطباع، وإن تعلموا كيف يكسروها، فسوف يصيروا متصالحين مع حساسيتهم.

وبالتالي، ما زال جوهر الضعف الجسدي يراوغنا. فمن الأصعب حتى أن نُقيّم معامل الحساسية. فعلى الأرجح، إنه يتباين من شخص لآخر أكثر مما نفترض. ولكن ليس هناك اختباراً يمكن قياسه به بصورة أكيدة. فكيف يمكنني أن أحدد ما إذا كانت الضوضاء التي أسمعها أنا يسمعها جاري بدرجة أعلى أو أقل، أو ما إذا كان يسمعها بنفس الدرجة، لكنه يشعر انها أعلى؟ مرةً أخرى، ما الاختلاف تحديداً بين سماع صوت أعلى والشعور بأنه أعلى؟ نفس الأمر مع الألم: فإن كان أحد المرضى، وهو اهتياجي من سكان الجنوب، قد غضب للغاية بسبب وخزة إبرتي تحت الجلد، بينما مريض آخر، وهو ألماني سويسري، قد بقى متجلداً، فهل يعود السبب إلى أن هذه الوخزة تؤلمه أكثر، أو لأن ردّ فعله يكون أكثر حدة لنفس الألم؟

كشف د. دوبوا من بيرن[2] الدور الذي يلعبه الإيحاء

---

2 Paul Dubois, *The Psychic Treatment of Nervous Disor-*

في تلك الحساسية. فهو يحكي بصورة ممتعة عن كيف أتى إلى عيادته أحد الذين يعانون من الأرق، حيث غرفة نومه الفارغة ذات النافذة الوحيدة تطل على مصنع مثير للضوضاء الذي يبدأ فيه العمل في ساعة مُبكرة من الصباح. فطمأن المريض للغاية أن المرء يسمع فقط الأصوات التي يسمعها، وأن المرء يسمع لأنه يخاف أن يُقاطع. فنام المريض - الذي كان من الطبيعي أن يستيقظ إثر أقل صوت- وسط الضجيج واستعاد ثقته في النوم.

في الواقع، مثل هذه القصة لا تحلّ مشكلة معامل الحساسية. قد يعترف المرء أن إيحاء د. دوبوا الإيجابي قد منع حساسية فطرية هائلة جداً، كما قد يعترف أيضاً أن حساسية المريض قد تفاقمت من جانب خوفه من الضوضاء والأرق. فما يؤكد وجود العامل الفطري ليس هو الحالة الأولى للحساسية ولا الحالة الناتجة لعدم الحساسية، بل بالأحرى التناقض المذهل بين الاثنين والقدرة على الانتقال من النقيض إلى النقيض. فالقابلية للإيحاء هي في الواقع إحدى علامات الميل نحو ردود الفعل الضعيفة، حيث أن هذه الأخيرة تكشف ميلاً للخضوع لسيادة الآخرين.

ما يدفعني لتمييز أهمية العامل التكويني الفطري في الحساسية هو تعدد أشكاله: فبصورة عامة، الذين يكونون حساسين لديهم مستوى أوفر من حدة الإدراك في الكثير من الاتجاهات. فهم حساسون للضوضاء، والبرد، والألم، والعطف، والجمال، والطبيعة، والأفراح كما الأحزان، والمشكلات الفكرية، وأيضاً المسائل الأخلاقية والروحية. والواقع أن الإيحاء والعُقد النفسية تلعب دوراً معتبراً، لكنها تكون اختيارية. فهي تصعيد للحساسية المرتبطة بإحساس أو بشعور معين، بينما المعامل الفطري للحساسية يمثل ميلاً عاماً. وحتى في الطفولة المبكرة، فإن أمثال هؤلاء

---

ders, translated and edited by S. E. Jelliffe and W. A. White, Funk and Wagnalls, New York and London, 1908

يعانون بإفراط عندما يرون أحد رفاقهم يُعاقب أو عندما يرون حيواناً يُعامل بقسوة. ونموذج ذلك الشابة التي كانت محبوبة أمها، والتي كانت تُعامل دائماً بصورة متساهلة. فهي تخبرني كيف قضت طفولتها في رعب مستمر من التوبيخات التي اعتادت أمها توجيهها لأخواتها. واليوم فإنها هي - وليست أخواتها - هي التي تعاني ثوارتها التي لم تكن مُوَجهة ضدها، والتي ربما لم تكن مفرطة. يبدو إذاً أن هؤلاء المرشحين للهزيمة قد مُنَحوا منذ المهد إفراطاً في الحساسية.

عندما يتم غزو تسلسل الحساسية الفطرية هذا من جانب العوامل العرضية للحساسية المفرطة، فسوف تسبب هذه العوامل العملية التي تؤدي إلى سحق الفرد والتي قد وصفتها.

من بين كل العوامل العرضية، فإن الأكثر أهمية في نظري هو النزاع بين الأب والأم. وليس هناك اختلافاً فيما إذا كان يُعبّر عنه في المشاهد اليومية والعنف، أو في حالات الصمت المتحجرة تلك وحالات السخرية المُرة التي تكشف عن اتجاه خفي من الصراع.

أمامي الآن ملاحظاتي على العشرات من أمثال هذه الحالات غير السعيدة، حياة أشخاص مُثقلة بالكوارث بعدما قضوا طفولة وسط جو من الصراع بين الأب والأم. ولا مفر من استنتاج أن هناك صلة عرضية. يقول لي مريض: "همّي الأول يعود للحظة التي أدركتُ فيها أن أبي وأمي لم يتوافقا معاً. كان الأمر مرعباً. فقد شعرتُ بالوحدة التامة وبالتمرد ضد الحياة."

إن الطفل يطلب بالفطرة اتحاد أبويه؛ ومن ثم يناضل بلا جدوى كي يوحدهما معاً. فيعاني بصورة مزدوجة، لأن الجُرح الذي يوجهه كلٌ من أبويه للآخر يقع عليه هو؛ فيُسحق بين المطرقة والسندان. تكتب بنت صغيرة يعلمها

أبواها دائماً عن الأخلاق: "من النادر جداً هنا أن يمر يومٌ كامل في سلام، دون نزاع. بالطبع يريد المرء أن يغير الأمور، ولكن كيف يمكنه أن يبدأ هذا؟"

إن ما يسحق هذه الطفلة هو الشعور بعجزها عن مُصالحة أبويها.

وطفل آخر يعيش في رعب بانتظار ثورة جديدة. فيراقب أبويه خلسة، ويقيس حالتهما المزاجية. يعرف الأكاذيب التي يقولها أحدهما للآخر، ويخاف لئلا يثير اكتشافها ثورة أخرى. كما أن خوفه من الاشتراك في هذه النتيجة بنفسه يجعله شريكاً في الأكاذيب، فيُصاب بالندم. لا يجرؤ أن يُصرِّح بالأمر لأبويه، ولا لإخوته وأخواته، ولا لأجداده خوفاً من أن يجعل الأمور أسوأ. يحفظ الأمر فقط في نفسه، متسائلاً في عذاب كيف سينتهي. فتراه يقضي ساعات طويلة في الليل يبكي سراً في وسادته.

وحيث فقد كلا الأبوين سيطرته على مشاعره بسبب حدّة صراعهما، يتهم كلٌّ منهما الآخر أمامه. وكلاهما يكشفان له أسرارهما الفاضحة ويحاولان أن يجعلاه يتشارك استياءهما، وأحياناً يوبخانه بمرارة لأنه لم يدعم موقفهما.

سوف يعاني هذا الطفل لبقية حياته من صراع ذهني بين الاتجاهين الممثلين بالترتيب من جانب أبويه. فالأول يرمز للتوافق، والتعقل، والفهم، والأخلاق، والاقتصاد؛ أما الآخر فيرمز للحياة، والحسّية، والنزوة، والحماس، والاندفاع. الأول يرمز للناموس، والآخر يرمز للنعمة. يعتني الطفل بكلا أبويه، ويكون الأمر هكذا كما لو كان صراعهما قد استمر فيه دون نقص، بين جانبي طبيعته المشتقين من هذين النوعين من الاتجاه. تكتب لي شابة: "كانت لي وجهة نظر أبي وردود أفعال أمي - ردود أفعال الاحتقار من جانب أمي لوجهة نظر أبي". شابٌ آخر لا يمكنه أن يقتنع بأن العقل والحب يمكن أن يتحدا في الزواج. أو يتمنى أن

يتزوج وهو يؤمن أنه عاجز عن الحب. أو ربما يندفع إلى حماقة علاقات غرامية مستحيلة. الإعاقة الداخلية التي تميز ردود الفعل الضعيفة هي التعبير عن هذا الحياد التبادلي بين القوتين المتصارعتين. يخبرني شاب: "طوال حياتي كنت أشعر بالتمزق بين حياة الريف التي يمثلها أبي وحياة المدينة التي تمثلها أمي. وحتى الآن لا يمكنني أن أختار بين المزرعة وبين دراساتي. فهناك غريزة حقيقية تجذبني نحو كل ما هو صحي في حياة الريف، لكني لا يمكن أن أبتعد عن الاحتقار الذي كانت تشعره أمي ضد جهل أبي، والذي نقلته ضدي أنا."

غالباً ما يكون أصل الصراع بين الأبوين هو شعور بالذنب من جانب كليهما لأن الطفل قد حُبِلَ به قبل الزواج. فكلٌ منهما يحمل الاستياء ضد الآخر، لكنهما أيضاً يحملان التذمر ضد الطفل، الذي يضطهدانه بصفته "الشاهد عن خطأ الماضي" (أليندي)[3].

يؤدي النزاع بين الأبوين إلى موقف أجده متكرراً في حكايات كثير جداً بين المسحوقين من تجربة حياتهم لدرجة أنني قد أصفه بأنه النمط الكلاسيكي وهو التنازل الأخلاقي من جانب الأب، والسيطرة العاطفية من جانب الأم. وبممارسة ذلك النمط تعاني الأم أكثر من زوجها بسبب الصراع. فليس أمامها العمل ولا المقهى كي تلجأ إليه؛ فتسعى لملء فراغها العاطفي عن طريق الحب الامتلاكي تجاه طفلها. فيبتعد الأب عن الطفل، ولا يعد يهتم به لأنه أصبح الملكية الخاصة للأم. ويتركه أعزل في مواجهة ما يتصاعد إلى حدّ الابتزاز العاطفي من جانب الأم، التي تسيطر على الطفل بمطالبها الجبرية ودموعها. وأحياناً يكون الأمر أمكر من هذا بكثير. كتب بنجامين كونستانت: "ما لا يقال ليس لذلك السبب أقل واقعية، فكل ما هناك أنه يُخمّن." دون أن تقول

3 Rene Allendy, L, *enfance meconnue*, Editions du Mont-Blanc, Geneva, 1946

الأم كلمة، عن طريق ما لا يمكن تقديره، فإنها تجعل الطفل يشعر أنه يجرحها عندما لا يتشارك كل مشاعرها؛ فتسئ استغلال عاطفته كي تتمتع بصلته بها، كبلسم لعدم سعادتها الزوجية. تخبره أنه حرّ لعمل ما يشاء بينما يدرك تماماً أن هذا غير حقيقي. فهذا استبداد متحرر. ذات مرة قدمت لي إحدى مريضاتي تقريراً مؤثراً عن كيف كانت أمها تستخدم سلاحاً مفرط القوة - سلاح حرمانها من قبلة تصبحين على خير. وكانت العاصفة تستمر إلى أن تنهض الطفلة التي لم تكن قد نامت، والمنهزمة في النهاية، وتتقدم إلى أمها وتقدم لها فعل التنازل للحصول على هذه القبلة.

الطفل الذي تتم رعايته رعاية مفرطة غالباً ما يشعر بأنه منفصل عن العاطفة الحقيقية لأن أمه لا تحبه لنفسه بل تحبه بأنانية، بسبب رضاها هي. وبالطبع، من الممكن أن يرى الطبيب أن الأم تعاني كطفلها. وهنا تكمن المأساة. فدرجات العاطفة التي تطالب بها لا يمكن أن ترضيها أبداً، حيث أن السبب الحقيقي للاضطراب هو صراعها الزوجي. وعند النظر إليها بموضوعية، فهي ليست "المسئولة" عن جعل طفلها يعاني أكثر مما يكون هو "مذنباً"، كما تدَعي، بأنه يجعلها تعاني بسبب ردود أفعاله تجاهها.

كلما يقلّ حديث الأم عن ضيقاتها الزوجية، كلما يتقدم بها الحال في الشكاوى بخصوص كل شئ آخر. فهي تتنهد إثر أقل مهمة. لقد رأيت الكثير من البنات الناضجات الموهوبات يضحين بفرصة عمل على أمل تسكين تلك التنهدات التي لا تنتهي بتخفيف ضغط عمل البيت من على كاهل الأم. ولكن لا جدوى من هذا، فسبب التنهيدات يكمن في مكان آخر. فالأم تحتاج أن تشكو، وتستمر في الشكوى كثيراً جداً مهما كان التزام الابنة.

ومع ذلك، في هذا النمط الكلاسيكي، لا يكون الأب أقل استحقاقاً للوم. فالطفل ضعيف. والله زوده بمن يحميه في شخص أبيه، أن يدافع عنه إلى أن يصير هو قوياً. فعندما

يترك الأب دوره كمصدر الحماية، يكون من المفهوم أن يتميز الطفل في الحياة بميل لردود الأفعال الضعيفة. ويمكن رؤية هذا دائماً في حالة الأطفال الذين ليس لديهم آباء، سواء كان الأب متوفياً، أو منفصلاً، أو قد تنازل أخلاقياً.

أما الأم، من الناحية الأخرى، فحيث تُحرم من دعم زوجها في تربية الأطفال، عادةً ما تصير خائفة للغاية بخصوص صحتهم الجسدية والأخلاقية. وبكونها مفرطة الحرص، فإنها تجعلهم ضعفاء. يمكنني أن أتذكر إنساناً مثل ذلك، في الثلاثين تقريباً من عمره، كان قد ارتعب عندما اقترحتُ عليه بأن يقوم برحلة دورية لمسافة مائة وعشرين ميلاً تقريباً كي يزور صديقه المفضل. والأم الجبانة دائماً ما تبعد طفلها عن المدرسة، وتكون النتيجة أن يتزايد شعوره بالنقص.

أما النمط الكلاسيكي فيقود الطفل الحساس إلى استقلال مفرط عن أبويه - عن الأب، من نوع الحنين الخالد لإحدى علامات العاطفة التي لا تأتي أبداً، وعن الأم التي شجعت ذلك بابتزازها العاطفي.

كانت إحدى الحالات المميزة هي حالة رجل كان يبدو كمن ربح حريته. فقد وجد لنفسه عملاً بعيداً عن أبويه، في مدينة مختلفة. ورغم أنه قد انهار في فوضى أخلاقية تامة عندما توفيا؛ إلا أن ذكريات طفولته كشفت كل تفاصيل هذا النمط الكلاسيكي.

غالباً ما يقابل المرء أيضاً الابتزاز العاطفي بين الزوج والزوجة أو بين المُحبين. فأحدهما يسيطر على الآخر بالتهديد المستمر "بالشجار" أو بالانسحاب عن حبه. ويكون ما يتمتع بهذه الطريقة ليس عاطفة الآخر، بل بالأحرى الاعتماد الذي يتم به استغلال الآخر. نوعٌ آخر من الابتزاز هو الحدّ المستمر من الآباء والأمهات بالتضحيات التي قاموا بها من أجل أطفالهم. ويستخدمون ذلك كوسيلة لإجبار الأطفال على غواية الخضوع، مستغلين شعورهم بالعرفان.

وقد ضبطتُ نفسي أفعل هذا شخصياً. ففي اليوم الذي عدتُ فيه مع ابني من إجازة، ارتكب بعض الهفوات. فسألته: "أهكذا تشكرني نظير المتعة التي وفرتها لك باصطحابك في إجازة؟" وبعد ذلك، خلال فترة هدوئي، أدركت أن الإجازة كانت لمتعتي أنا ولهدوئي أنا، وحيث شعرت بالقلق تجاه صحته اصطحبته معي، فذهبت إليه وطلبتُ منه أن يسامحني لأني شوهت الحقائق كي أضع عليه عبئاً.

هذه المطالبة بالعرفان قد تبقى غير صريحة. فقد يشعر بها المرء في حالة طفل تربيه أم أرملة أو مطلقة تخلّت من أجله عن فكرة الزواج مرة أخرى. فحتى إن كانت لا تدرك هذا، فإنها تتوقع منه التعويض عن تضحيتها الشخصية، وهذه المطالبة تكون ساحقة بالنسبة للطفل.

ذات مرة عالجتُ طالباً جاداً في دراسته ويقظ الضمير، فيما اقتربت فترة الامتحانات أظهر فجأة علامات الاكتئاب الراجع للرعب، الأمر الذي أعاقه تماماً في دراسته. فصُعقتُ ذات مرة من جانب شعوره الزائف بالذنب. فقد كان يصرّ بصورة متكررة على أنه بعد كل التضحيات التي قدمتها أسرته لتُمكّنه من الدراسة، كان هو بمثابة ابن غير مستحق بتهرّبه هذا. وقد استعاد السكون، والشجاعة، والثقة، والنجاح بمجرد أن فهم أن الحقيقة كانت مختلفة تماماً: فهو لم يكن يدين لأسرته بالتضحيات التي قدمتها له؛ بل بالأحرى، كانت الأسرة تشعر تجاهه بالامتنان نظير الفخر الذي كانت تبحث عنه بإرساله للجامعة، وهو فخر كان يُرجى من خلاله أن يزيح خزياً اجتماعياً طالما عانت منه الأسرة في الماضي. كم من الناس يسحقهم الشعور بأنهم الحصان الذي يكون كل شئ موضوعاً فوقه ولا بدّ عليه، رغم كل الظروف، أن يربح السباق.

ولدٌ آخر وجد واجباته المدرسية صعبة، فصار ينتابه هاجس هذه الحقيقة بالفعل. وقد رأيت أن الخوف إنما ينبع من أبيه الذي كان قد فشل شخصياً في الدراسة. فدفع

ابنه للدراسات الأكاديمية كي يدرك في نفسه طموحا كان قد أخفق بنفسه في تحقيقه، واعتاد على انتظار نتائج كل امتحان بقلق مُعدٍ وعصبية. أوضح أليندي[4] أن الأبوين كلما يكونا مطالبين بخصوص السلوك الأخلاقي لأطفالهما، كلما يكونا متوقعان - ولو بصورة لا شعورية - التعويض عن إخفاقاتهما الشخصية في الماضي.

وصلنا هنا إلى فكرة *noblesse oblige* التي تسحق حياة كثيرين. فهي التعبير الفائق عن الشكلية الاجتماعية، وتهتم "بما سيقوله الجيران". وهي منتشرة في الأوساط الأرستقراطية، ولا سيما بين العائلات التي انحدرت في العالم مادياً أو أخلاقياً، وحتى بصورة أكثر انتشاراً وسط الدوائر التي تعتبر نفسها بارزة دون أن تكون كذلك في الحقيقة. وهناك، يكون النظام الأخلاقي الوحيد - والزائف - هو نظام الحياة على مستوى تكوين اسم، أو سُمعة، يرمز إليها أحد الأسلاف المشهورين. يشعر الطفل أنه منعدم الحرية: فقد لا يتزوج ممن يرغب بها، ولا يعمل العمل الذي يحبه، ولا حتى يبتسم أو يبكي أحياناً. وحتى إن توافقَ بنجاح في كل هذه الأمور، فهو لا يشعر أنه يفعل ذلك نتيجة اقتناع شخصي، بل لأنه كان قد استسلم في ضعف. وإن أهان تقليد الأسرة، فلن ينجح أبداً في أن يكبت في قلبه الضَيق الذي يشعر به من جانب تربيته المبكرة. ولا شئ من أفعاله، سواء توافقَ معها أو لا، يبدو بالنسبة له فعلاً حراً، بل بالأحرى مفروضاً بالتنازل أو بالثورة.

شعورٌ مشابه بالواجب يقع على كاهل أطفال الرجال المحترمين المعتبرين على درجة عالية إما أخلاقياً أو اجتماعياً. فأمثال هؤلاء الأطفال لا يشعرون بأن سلوكهم محكوم بضميرهم هم، بل أن المبدأ الإرشادي لحياتهم هو اللوم المتكرر باستمرار بعدم تعريض سُمعة آبائهم للشبهات.

---

4 *L' enfance méconnue*

من الناحية الأخرى، فإن كل نقص أو موقف غير طبيعي يضع على كاهل الطفل الحساس أكثر بكثير مما يدركه الأبوان عموماً. فغالباً ما يكون الطفل لديه حدس مُرهف بعدم الارتياح الذي يكون مستتراً عنه: حقيقة أنه طفل غير شرعي مثلاً. لكنه قد يكون لديه إدراك قاطع بحالات غريبة أكثر وضوحاً - أن أبيه يقع تحت سيطرة أخت ثرية أو مسيطرة أو غيورة توّجه تعليم ابن أخيها وتقلل من مكانة الأبوين إلى مجرد دُمى، أو أن يكون أحد أصدقاء العائلة، الذي دائماً ما يُدعى لدخول البيت، قد توّلى بالفعل زمام السيطرة.

كل طفل يخجل من أبويه يُضبط في هموم ردود الفعل الضعيفة. فمن المعروف جيداً كيف يمكن أن يكون أطفال المدارس حادين وعديمي الرحمة في سخريتهم من أحد التلاميذ الأصدقاء والذي يكون أبواه فقيرين أو غريبي الأطوار. أتذكر امرأة كانت تعاني من الاكتئاب كانت قد استودعت وهي صغيرة جداً لرعاية أحد الأعمام وزوجته، الذين صارا مفتونين بها. وفي المدرسه كانت زميلاتها تحتقرن إياها بصفتها "الطفلة غير الشرعية!"

حتى إن لم تكن هناك مسألة إهانات من هذا النوع، فإن الميل تجاه ردود الفعل الضعيفة يكون ملحوظاً في حالة تربية كل الأطفال عملياً خارج بيتهم الطبيعي. لقد أكد المحللون على أهمية مشاعر الغيرة المكبوتة تجاه الإخوة والأخوات الذين لا يزالوا في البيت، أو تجاه الأطفال الآخرين الذين لا زالوا يعيشون مع آبائهم وأمهاتهم. لكني أعتقد أن ما يُثار هنا ظاهرة أكثر غموضاً ومهمة جداً- وهي ظاهرة إفقاد الهوية *depersonalization* أو الحط من كيان الشخص. فلدينا حافز غريزي كي نكون أنفسنا دائماً ما يُصاب إن تم استئصالنا. وهذا ينطبق على وجه الخصوص عندما يُفرض على الطفل أن يلعب دوراً غير دوره؛ عندما تُدعى العمة مثلاً "ماما". ربما تكون العمة قد فقدت طفلها وكانت قد أُستودعت ابن اخ كي يعزيها. ففي مثل هذه الحالة تحطّ من كيان ابن الأخ

بأن تطابقه مع طفلها الذي فقدته.

وبالتماثل، كان لديَّ مرضى كثيرين كانوا قد فقدوا أمهاتهم في سن مبكر، فتزوج آباؤهم مرةً أخرى، ومن ثم فُرِضَ عليهم أن ينادوا أمهاتهم البديلة بلفظ "ماما". وهذا يتم بالطبع بأفضل النوايا، لكنه يتعامل مع عنصر غريزي عميق في الطبيعة الإنسانية. فالطفل ليست لديه إلا "أماً" واحدة؛ فأن تفرض عليه أن ينادي بهذا الاسم على أم بديلة هو أن تحطّ من كيانه. كما أن الأبوين الحقيقيين للطفل يمكنهما أن يُفقدانه هويته بتشكيله في نمط أخ أو أخت كبرى متوفية، ويُفرض عليه اتباع أذواقها أو عملها. ومن الممكن أن يحدث إفقاد الهوية أيضاً عندما يطالب أرمل لا شعورياً زوجته الثانية أن تتقمص الزوجة الأولى. أتذكر أيضاً أختين توأم ميّزنا إلى حدٍ بعيد أنهما تشكلان شخصاً واحداً. فلأكثر من عشرين عاماً كانتا لا تزلان متماثلتين تماماً في الثياب، وتسريحة الشعر، والإيماءات. لكن إحداهما كانت "قوية"، وكانت قد نقلت شخصيتها للأخرى، أما الأخرى، ففيما كانت عاجزة عن أن تعيش حياتها توافقاً مع طبيعتها الحقيقية الخاصة، فقد سقطت ضحية للاكتئاب العصبي.

بعد زواجها بقليل، قالت امرأة شابة لزوجها: "لا بدّ ألا تطلب مني أن أحيك الملابس لأطفالنا. فأنا لا أعرف الحياكة، ولا يمكنني أن أفهم "التعليمات" المعقدة التي تحصل عليها في متاجر النسيج أو المجلات." فتحاور معها زوجها، فأخبرته كيف وهي طفلة عندما بدأت للمرة الأولى محاولة الحياكة كان ذلك وسط اجتماع سيدات مهيب تتنافسن فيما بينهن على تقديم النصائح الجيدة لها. وبدلاً من أن تلاحظن تسعة وتسعين غرزة معمولة بصورة رائعة من أول محاولة، أشرن للغرزة رقم مائة، التي كانت مرتخية جداً. وأضفن قائلات: "لن تتعلمي أن تحيكي جيداً إن واصلتَ العمل هكذا." فزرع هذا الإيماء السلبي بذرة نقص الثقة بالنفس في ذهن تلك البنت الصغيرة. والآن،

فيما أخبرت زوجها، فهمت السبب واستعادت ثقتها بنفسها. وسرعان ما صارت خبيرة ممتازة لدرجة أن صديقاتها كن يأتين لطلب نصيحتها وتوضيحاتها بخصوص "التعليمات" الغامضة في المطبوعات.

كقاعدة عامة، يصحح المدرس أحد التمارين، وبدلاً من تقييم صحته، وأصالته، ورؤيته، يحصر نفسه في إطار استنتاج الدرجات على الأخطاء توافقاً مع خطة التصحيح. قد يبدو هذا أقل جبرية من التقدير الحقيقي للعمل، لكنه يوحي للطفل بأن الشئ الأساسي في الحياة هو تجنب عمل الأخطاء. وهذا يقدم له المنظور الخطأ، وهذا عكس الإنجيل الذي يتحدث بالأحرى عن صنع الأثمار واستثمار مواهبنا. كم عدد الموظفين الذين يحبطون لأن أصحاب العمل لا تكون لديهم أبداً كلمة تقدير لنجاحهم في مهمة صعبة، بل يسرعون للإشارة إلى هفوة غير مقصودة في التهجئة.

حتى الهدايا يمكن أن تتلف بهذه السمة السلبية. فسعادة الطفل بالساعة الهدية تتدمر إن قيل له في نفس الوقت: "هذه الهدية كي تتعلم الانضباط في مواعيد الوجبات." يمكنك أن تتصور الموقف في حالة كالتي يتذكرها أليندي[5]، حيث عرض الأبوان على طفلهما عصا في صورة هدية كريسماس. دائماً ما يشكل اختيار الهدايا مشكلة مشوقة. وعليه، دائماً ما يقدم الزوج المفكر كتاباً لزوجته كهدية عيد ميلادها. فينسب إليها بذلك ذوقه الشخصي. وربما أيضاً يفكر في التمتع بقراءة الكتاب بنفسه! ذات يوم أحضر لها زجاجة عطور، وقد تحمّل عناء اختيارها بعناية بنفسه. فاندهشت زوجته - فكم تغير زوجها! والآن تيقنت من حبه.

لسوء الحظ، فإن التأثيرات المدمرة والدائمة للتعليم السلبي موجودة في الذين قام بتربيتهم أكثر الآباء فضيلة وتقوى ومساعدة، الواعين تماماً بمسئوليتهم، والمهتمين بعمق بمستقبل أطفالهم، في معظم العائلات المثقفة - ولا سيما

5 *L' enfance méconnue*

في حالة أطفال المعلمين.

إن أمثال هؤلاء الآباء يثقلون على أطفالهم بالنصائح، وخصوصاً بالموانع. فبوجهة نظرهم الناضجة يرون الشر بينما الطفل لا يرى شيئاً، ومن ثم غالباً ما يفشل الطفل في فهم لماذا ينسب الآباء والأمهات أهمية قصوى للفعل أو الإيماءة الطفولية. وخوفاً من الشر، يوحي الآباء الشر لطفلهم ويدفعاه تجاهه بأن يثيرا فيه - من خلال تلميحاتهما - عاطفة خاطئة. وبدلاً من أن يقدما له رؤية واضحة واقعية عن الشر وعن اليقظة الصحية تجاهه، يثيران قلقاً غامضاً مبهماً يستنزف مقاومته الأخلاقية.

بعد الصراعات بين الأب والأم، يكون هذا النوع السلبي من التعليم في نظري العامل الذي يثير بالأكثر فيه كانت ردود الفعل الضعيفة.

يحكي ليزلي ويزرد[6] عن محلل نفسي كان يقيم في بيت صديق كان عدد مرات الأوامر المُلقاة على الطفل كبيرةً جداً لدرجة أنه قرر أن يعدّها. ففي خلال مدة ساعتين تم إلقاء ١٢٠ أمر - ٤٦ أمر لأشياء لا بدّ أن يعلمها، و ٧٤ أمر لأشياء لا بدّ ألا يعملها. فمثل هذا الكمّ الهائل لا بدّ أن يوجه الطفل لحياة الهزيمة. وتسوء الأمور عندما يتم إلقاء كل هذه التحذيرات بنغمة عصبية تكشف الكبرياء المجروحة للأبوين. وتكون النتيجة أن يتزايد إحباط الطفل عند إخفاقه في الواجبات المدرسية، وفي مجال الفن وفي السلوك الاجتماعي إثر شعوره بأنه مصدر خزي لأبويه. وهكذا يثيران فيه نوعاً من الرعب يكون سبب مزيد من الإخفاقات. فهما يوحيان بالفشل الذي يخافان منه. كما يوحيان بالخوف من الفشل الذي سيصير لبقية حياة الطفل سبب سلسلة من الإخفاقات. فإن تعاون الطفل، وعمل مجهوداً جديداً، وحقق نجاحاً ما، فإن أبويه يثبطان عزيمته بنغمة "المهم

6 L. D. Weatherhead, *Psychology, Religion and Healing*, Hodder and Stoughton, London, 1951

يدوم هذا"، فيدرك الطفل شكهما كاملاً. فإن فشل، يقال له "لقد أخبرتك بهذا"، التي لا تزال أكثر سحقاً. ليت أولئك الآباء يقرأون كونفوشيوس عندما يمتدح فضيلة المثابرة: "ماذا يهم إن وصلت فقط بعد المحاولة المائة بينما يصل آخر على الفور؟ فسوف تصل حتماً إن لم تسمح لنفسك بأن تتعرض للإحباط[٧]."

أسمعك عزيزي القارىء تقول إن التعليم كان أصعب في الماضي؛ وإن الطفل كان يُمنع من عمل أشياء أكثر كالتكلم على مائدة الطعام مثلاً؛ وإن حياة البنت الصغيرة كانت مفيدة بتعلم دروس البيانو والتطريز في أوقات الظهيرة تحت عين الأم اليقظة، وإن أولاداً أكثر بكثير كانوا يُجبروا على الانخراط دون إرادتهم في أعمال آبائهم للحفاظ على تقليد الأسرة.

هذا حقيقي كله. لكن المشكلة أعمق من ذلك. فهي تبدو لي مرتبطة بالتراجع الروحي لزماننا. فقد كانت تربية الأطفال تتم بصورة أكثر صرامة، لكنهم كانوا يشعرون أن القسوة التي كانوا يُعاملون بها إنما كانت تنبع من قناعة واقعية في آبائهم، الذين كانوا فيما وراء مبادئهم الأخلاقية قادرين على رؤية الحماسة الروحية التي كانت تحفزهم. كان الآباء يفرضون على أنفسهم نفس صرامة الحياة، ونفس الانضباط، ونفس الاعتدال في التحرر وفي المسرات، وذلك لأن ديانتهم كانت تتطلب هذا. كما فرضوا هذا الاعتدال، لا لتعذيبهم، ولا نتيجة اهتمام بالتوافق الاجتماعي فحسب، بل لأنهم كانوا يؤمنون بأن هذه هي وصية الله، وطريقة تدريب الشخصية. وبفصل الأخلاقية عن مصادرها الروحية حوّلناها إلى روتين ممل. فعندما لا يعد الآباء يؤمنون بشيء، فلا بدّ أن تبدو كل أوامرهم ونواهيهم إلزامية تماماً.

يكتب د. جان دي روغمونت[٨] أن الأطفال كانوا يتعلمون

7 Pierre Salet, op, cit

8 Jean de Rougemont, *Vie du corps et vie de l'esprit,*

في الماضي "أخلاقية مُعاشة مكونة من تشجيعات أكثر منها موانع"، ويروي هذه الحكاية الطريفة:

يسأل طفل في الخامسة من عمره: "لماذا يجب ألا أفعل ذلك؟"

فتردّ عليه أمه: "لأنك لا بدّ ألا تعمله. فأنت لا تراني اعمله أبداً."

"ولكن من قال لكَ ألا تعمليه أبداً؟"

"أمي، عندما كنتُ في نفس سنك."

"أوه! وهل قالت لها أمها أيضاً ألا تعمله؟"

"أعتقد ذلك."

فيستنتج الطفل: "حسناً، إني أتساءل عمن يكون قد اخترع مثل هذه اللعبة السخيفة!"

يبدو إذاً أنه نتيجة علمنة العالم الحديث، فقد التعليم قيمة الواقعية، وما تبقّى هو مجرد تقليد لا معنى له، ضار أكثر منه فعّال.

بنفس الطريقة، عندما كان الأب في الماضي يتكلم إلى ابنه عن اتباع خُطاه في مهنته، كان يتكلم عن ذلك بقناعة وفخر، مُوَّصلاً إليه حماسة التزامه المهني. أما اليوم، فإن معظم الشبان لا يسمعون من أفواه آبائهم وكبار السن إلا السخرية المُرة بخصوص عملهم الذي ينظرون إليه كلعنة، كحياة عبودية يسرّهم أن يهربوا منها لولا الحاجة لكسب معيشتهم اليومية.

هناك سلبية ووهم معين عن الرجل الحديث يدفعه لسحق الارتفاع المفاجئ للفرح في حياة الطفل. ولكن، كما يقول د. روغمونت من جديد: فإن "الطفل على صواب، والبالغ على خطأ. فالطفل يؤمن بالحياة، أما البالغ فقد توقف عن الإيمان بها." إن حقيقة أن هناك في زماننا الكثير جداً من العصابيين، وأن الكثير جداً من المرضى هم سجناء ردود

Paul Derain, Lyons, 1945

أفعالهم الضعيفة غالباً ما يكون مشكوك فيها بسبب التأثير الساحر للكثير جداً من البالغين الذين يشعرون بمسرة غير صحية في أسلوبهم الساحق فيما يدّعون أن ذلك ينقذ أطفالهم من الأوهام الساذجة.

بالنسبة للبالغ، عندما يجعل الطفل يشعر بصغره فهذه طريقة بسيطة لجعل نفسه يشعر بكبره، فيفسح المجال للتجربة أكثر حيث يكون على دراية بنقائصه الشخصية. وغالباً ما تكون الغيرة في مجال العمل. فالأب يمنع ابنه عن العمل بالمهنة التي يرغبها لأنه يخاف لاشعورياً أن يسبقه في الوجاهة الاجتماعية أو يكون أسعد منه بينما كان الأب نفسه قد أعيق شخصياً من جانب أبيه. وغالباً ما يشجع الآباء أيضاً الغيرة بين أطفالهم كي يستمروا في السيطرة المشددة عليهم أو لإذلال أحدهم لأنه يتفوق عليهم في الذكاء.

غالباً ما يصادف المرء حالات أطفال حساسين، لامعين ذهنياً، يملكون الإمكانات لمستقبل مشرق، لكن آبائهم المقيدين ذهنياً بصورة أكبر لا يشعرون بوجودهم. غالباً ما لا يتوافق أمثال هؤلاء الأطفال في النمط المدرسي الصارم أو نمط تقاليد أسرتهم. وفيما يتعرضون لسوء الفهم، يصيروا ضحايا ثورات الغضب، والجروح، والندم، كما أن ردود أفعالهم تكون ردود أفعال التمرد أو اليأس، وهي ردود أفعال تُقابَل بالإشارات الضمنية التهديدية التي للإصلاحية أو لمستشفى الأمراض العصبية. ويكون مثل هذا الطفل عاجزاً عن الإيمان بعطف أبويه، وهذا الشعور بالهجر قد يضع فيه ميكانيزمات تعويضية خطرة. فالدافع للسرقة، على سبيل المثال، قد يكون له هذا الأصل. فحيث لا يُعطى له حقه، ينتزع ما ليس من حقه.

هذه السلسلة المرعبة للمسبب النتائج الناتجة عنه يمكنها بسهولة أن تسبب كارثة لحياة الطفل النفسية، الذي ربما أكثر من الآخرين، يبقى في حاجة للعطف والثقة. وعند تفاقم التهديدات المتكررة من وضع ردود أفعال الطفل، يصير

من الضروري وضعها في إطار الممارسة. فمدير مدرسة الأحداث[9]، أو الطبيب في المستشفى العقلي يجد نفسه أمام جدار من المقاومة، حيث تم تقديمه على الدوام لذهن الطفل بصفته أحد الوحوش.

يقول لي أحد مرضاي الذي يعاني من إثارة الأعصاب والهواجس: "طوال طفولتي اعتاد أبي على أن يكرر دائماً: "أنت أبله." وتقول فتاة: "اعتادت أمي على أن تخبرني أنني كنت غبية، وشريرة، وقبيحة." ويقول ثالث: "كان يقال لي دائماً إني عديم الفائدة." وكثيرون آخرون كان يُقال لكلٍ منهم: "أنت أخلاقك سيئة."

أن تشير لشخصٍ معين بإشارةٍ ما هو أن تجعله يتوافق مع تلك الإشارة بصورة لا يمكن تجنبها، وخصوصاً إن كان الشخص في سن الطفولة. أن تعامله ككاذب هو أن تجعله كاذباً، ونفس الأمر ينطبق على الأنانية أو الكبرياء. لستُ أؤمن بعد بأن هناك شخصيات رديئة - بل أؤمن بأن هناك الخطية، وهذا أمرٌ مختلف تماماً. فأول هذين المفهومين ينتمي لعالم الشكلية الاجتماعية، أما الثاني فينتمي لعالم الواقعية الأخلاقية. فكلنا خطاة - خطاة على نفس الدرجة: اللطفاء، والشرفاء، والمحترمون على نفس الدرجة مع من ينظرون إليهم باحتقار؛ والآباء القساة، والظالمون، والمتكبرون على نفس الدرجة مع الأطفال الذي يسحقوهم بكلامهم عن الأخلاق السيئة. في المنظور الحقيقي للخطية يجب أن يُكشف البالغون للطفل أن الضعفات التي يعاني منها شائعة بين كل الناس، حتى إن كانوا يخفونها تحت ردود الفعل القوية. فهذا سوف يساعده على التشجيع وإصلاح طرقه. وفي المقابل، إن عاملاه كمن لا فائدة منه، فإنهما يبثّان فيه شعوراً مرعباً بالوحدة الروحية، وبرداءته بينما يكون الباقون أخياراً. وفي هذه الوحدة المليئة بالشعور

---

[9] *the approved school* - مدرسة خاصة يُرسل إليها الشبان الذين يرتكبون الجرائم - [المُترجَم]

بالذنب تكون لديه ردود أفعال تجلب على نفسه توبيخات إذلالية أكثر فأكثر. هذه هي الظروف، والأحوال الجسمية، والسلسلة النفسية للسبب والنتيجة في حياة الشخص والتي تنتج عنها نفس الخطية الكونية وهي تأخذ هيئة الرضا الذاتي الأنيق في الواحد، وضعف الشخصية في الآخر. وبالنظر إلى ذلك في ضوء الإنجيل، يكون الأول أسوأ من الثاني!

هناك شئٌ ما أشبه بعقدة سندريللا. فالمرء يمكنه ألا تكون لديه فكرة عن المظالم التي يمكنها أن تقع الواحدة بعد الأخرى على رأس الطفل حالما يبدأ في أن يكون الشخص الذي يُوّجه له اللوم في كل عاصفة أسرية، وكبش الفداء الذي يحتمل كل شئ. فإن انكسرت لعبة، وإن تحطم زجاجٍ، وإن تشاجر إخوته وأخواته، يكون الخطأ هو خطأه دائماً.

عندما كانت إحدى مريضاتي طفلة، اعتادت على الخروج للعب مع ابنة عمها. وكان يُقال لهنّ بالعودة في وقت محدد. وعندما كان هذا الميعاد يقترب، كانت تحاول إقناع ابنة عمها بوجوب العودة إلى البيت متحفزةً بحقيقة أنها كانت تتعرض للتوبيخ المتكرر. لكن ابنة عمها - التي لم تكن تتعرض قط للتوبيخ - اعتادت على عدم الاهتمام. فثار صراعٌ رهيب في ذهنها: هل تعود إلى البيت وحدها؟ لم تجرؤ على عمل ذلك خوفاً من احتمال تعرض رفيقتها للتوبيخ. فأمتعَ قلقها المتزايد ابنه عمها ودفعها لإطالة التأخير. وعندما عادت البنتان أخيراً، فإن مريضتي اتهمتها أمها بمسئوليتها عن التأخير وبتأثيرها الردئ على ابنة عمها.

مريضة أخرى من مريضاتي كانت مهمومة جداً بخصوص مساعدة أبويها، وكانت تكافح دون ارتياح بينما تورط أبواها في إسرافات حمقاء واستغلا إخوتها الذين سخروا منها.

فتاة صغيرة ذكية يعيقها البؤس بخصوص مقالة باللغة الفرنسية. أعرف أن المعلم دائماً ما يجعل ممارسة القراءة

في الفصل بصوتٍ عال، مقدما أسماء الأطفال أصحاب المقالات، وأفضل وأسوأ المقالات حسب رأيه بالطبع. وبإمكان المرء أن يتصور الصدمة النفسية التي تعرضت لها فتاتنا عندما قُرئت مقالتها في الفصل بصوتٍ عال أمام زميلاتها بصفتها أسوأ مقالة. أخبرني أحد مرضاي كان قد تحسن للغاية فيما بعد في عمله، رغم أن هذا كان بعد اضطرابات نفسية هائلة متصاعدة، عن مدى تأثير أن يرى في شهادته المدرسية هذه الملحوظة: "تلميذ ردئ؛ لست أدري عما سيكون قادراً على عمله عندما يترك المدرسة." لقد اخترقت هذه الملحوظة ذهنه، وكان بإمكان المرء أن يلاحظ أنها كانت لا تزال تجرحه عندما يكررها. يقتبس أليندي[10] أيضاً حالة طفل قال له معلمه: "سوف تكون عضواً في عصابة." ويشير عن صواب إلى أن تأثير الإيحاءات السلبية من مثل هذا النوع هو الأكثر ضرراً - في نظر الطفل - من الشخص الذي يقوم بها. ليس دائماً ما يكون هذا الشخص هو الأب أو المعلم؛ بل قد يكون الأخ الأكبر الذي تعجب به أخت أصغر إعجاباً شديداً لدرجة أنها تجعله نموذجاً مثاليا في كل شئ. فإن كانت سمينة، بينما أخوها يحب البنات الرشيقات ودائماً ما يُقارنها بهن، فإنها تنمو حتى سن البلوغ بشكوك حول شكلها، وتشعر بأن أحداً لا يمكنه أن يحب بنتاً بدينة مثلها. إنها ترى نفسها أسمن مما هي حقاً، كما أن جهودها لإخفاء ذلك تُفسد الوضع الطبيعي الذي يكون ضرورياً جداً إن كانت المرأة تريد أن تكون جذابة. فترتدي ملابسها بصورة رديئة، ولا تكون لديها فكرة عن كيفية تحقيق أقصى استفادة من جمالها. وهذا الأمر يمكنه أن يتعمق جداً؛ حيث تبدأ البنت في الخوف من عدم زواجها أبداً. وتصير المسألة بالتالي مرتبطة جداً بالعاطفة لدرجة أنها تضع فيها شعوراً بالنقص العام يجعل وجودها يُشعر به في كل مجال من مجالات حياتها، بما فيه حتى حياتها الدينية.

---

10 *L" enfance méconnue*

كانت هذه حالة امرأة جاءتني بمحنة فقدها للإيمان. بالطبع، كانت تكمن فيما وراء أزمتها الدينية أسباب أخرى لا يمكنني تحليلها هنا. فاهتمامي هنا هو توضيح التأثير المقنع الضار للإيحاء السلبي الذي يتم تلقيه في الطفولة. فقد جعل هذه المرأة الشابة حساسة لكل دافع آخر للشك. إن الحب والدين هما المجالين الأكثر ارتباطاً مع العاطفة بدرجة هائلة. ولهذا فإن الكثير جداً من الناس يربطون بينهما ذهنياً. فإن كانوا خائفين من فقد الحب، يكونون خائفين من فقد الإيمان؛ وإن كانوا يؤمنون بالحب، فإنهم يؤمنون بالإيمان.

لسوء الحظ، هناك عددٌ لا يُحصى من النساء يكون لديهن شك منذ الطفولة بخصوص حلاوة شكلهن. وهذه الفكرة تشوه حياتهن بأكملها، لأن الجمال أحد أثمن عطايا الله للنساء، وهي عطية لا يمكن للمرأة أن تتجاهلها. فإن لم يمنعها هذا الشك من الزواج، فسوف يستمر في الزواج، وسوف يجعل من الصعب بالنسبة لها أن تؤمن بحب زوجها وأن تكرس نفسها لهذا الحب من كل قلبها. علاوة على ذلك، يمكن أن تكون له مضاعفات جسيمة، بسبب التوافقات النفسجسمية التي وجودها مميز الآن بصورة عامة. غالباً ما نجد في أمثال هؤلاء النساء عدم كفاية مرتبطة بالمبيض، وعسر الطمث، والشعر الكثيف، إلخ. فحالة الشك عملت كفرامل على عمل الغدد الصماء التي تسيطر على أنوثة المرأة وجمالها.

قد تكون هناك فتاة يكون لديها مثل هذا الإعجاب بجمال أمها لدرجة أنها تحتقر أن تُجاريها أبداً، ونقص الثقة هذا يمكنه أن يمنع نموها أيضاً. بصورة مشابهة. قابلتُ رجلاً، رغم مهنته الرائعة، كان لا يزال يحتفظ بهذا الشعور بالهزيمة، التي كنا ندرس ميكانيزماتها التي كانت من قبل متنوعة ومتشابهة للغاية. وقد شعرت أن هذا الشعور قد نبع من إعجابه المفرط بأبيه. فقد كان أبيه في الواقع رجلاً بارزاً جديراً بأعظم تقدير لصفاته المتنوعة والمتكاملة. ولكن كما

أن البنت التي ذكرتها كانت ترى أمها كإلهة حقيقية، هكذا كان هذا المريض لا يزال يعتبر أبيه إلهاً. فقد كان دائماً ما يقارن نفسه ذهنيا بنموذجه غير الحقيقي، ولم يملك إلا أن يكون أدنى من مستواه في كل نقطة. ما أريد توضيحه هنا هو أن هذه التشويهات للحق، التي يسهم فيها الآباء أحياناً بإخفاء صعوباتهم وضعفاتهم الخاصة عن أطفالهم، بدلاً من تحفيرهم، إنما تعيقهم في نموهم الجسمي، والفكري، والنفسي. قالت لي بعض الشابات: "لا يمكنني أن أعمل شيئاً؛ فأمي تعمل كل شئ بمستوى الكمال، ولا أجرؤ أبداً على لمس إناء أو مكنسة في وجودها." وشابة أخرى تقارن نفسها بأمها في مِجال مختلف تماماً: فأمها لم تُعبِّر قط عن حبها لها عن طريق الملاطفة، بل بمجرد الالتزام المادي. أما طبيعة الابنة فهي مختلفة تماماً. الحب لا يقودها إلى النشاط المتواصل، بل إلى الرقة السلبية والحسية. ومن ثم تقول لي: "دائماً ما أتساءل ما إذا كنتُ قادرة حقاً على الحب."

في الغالب ما يقوم الأباء بعمل مقارنات ضارة بصورة منتظمة بين أحد الأطفال بأخ أو بأخت. ويكون طبع الطفل الآخر مختلفا تماماً - مذعناً وخاضعاً، وناجحاً في المدرسة بسبب غياب رغبات أو موانع محددة أو أي حماس متجاوز قد يشتت عن العمل. ربما لا يكون لديه المزيد ليقدمه في الحياة، لكنه يكون في تلك اللحظة فخراً عظيماً لأبويه. فالتقدير الذي يعتبرانه به يشجعه بنشاط في إذعانه. أما الطفل الأصغر، وهو صاحب أسلوب تفكير نشط حقيقي، فيرى نفسه على الدوام في مقارنة مع أخيه أو أخته الأكبر، فيحتفظ بخصوصهما بشعور خطير بالنقص يمنعه في كل علاقاته الاجتماعية.

حالة أخرى هي حالة رجل غالباً ما يمثل تماماً الجندب في الأسطورة الشائعة، بينما يمثل إخوته النملة. ومثل النملة، يقدم له الآخرون النصائح الحكيمة التي - رغم أنها تُقدَّم بعاطفة جياشة - إلا أنها تأتي من أعلى نجاحهم الاجتماعي

ومن فوق التماثيل التي نصبها لهم آباؤهم. ومع ذلك، فإن أخيهم يشعر بأن في قلبه كنزاً لا يعرفون عنه شيئاً، لكن قوة الإيحاء القديم تكون هائلة جداً لدرجة أنه يكون خجولاً منه بدلاً من أن يكون فخوراً به.

ثم هناك فتاة تكون فنانة ومتأملة، بينما أختها امرأة واقعية. ورغم أنها تنتقد هذه الأخت، فإنها تعجب بها، ودائماً ما تقيس نفسها بها بدلاً من أن تطور مواهبها الشخصية.

بعض الآباء، الذين لا يكلمون أطفالهم إلا عن نقائصهم، دون كلمة تشجيع واحدة عن صفاتهم الجيدة أو لشكرهم من أجل أعمال مشاعرهم البسيطة، يتباهون للغاية بالافتخار بهم - أثناء غيابهم - أمام الأصدقاء والمعارف. وفي نفس الوقت يتصور الأطفاء أنهم يمثلون خيبة أمل تامة بالنسبة لأبويهم. إن سوء الفهم هذا غير ضروري وتراجيدي. وذلك لأن الآباء يظنون أنهم يعملون من أجل مصلحتهم. وهم يتبنون هذا الاتجاه عمداً. فهم يخافون من أن يجعلوا أطفالهم مغرورين إن سمحوا لهم برؤية أنهم يميزون ويقدرون صفاتهم الجيدة. وبالطبع لا ينجحون في النهاية في حفظهم من الكبرياء، وذلك لأن كل إنسان هو متكبر في النهاية. لكن مشاعر النقص التي يزرعوها بالتالي فيهم هي الصورة الأكثر تدميراً من صور الكبرياء. فمن الأسهل بمراحل أن تبدو متواضعاً في النجاح عنه في الفشل. وغالباً ما يُدرك هذا برؤية الأرواح الفقيرة المليئة بمشاعر النقص، منهزمين من إخفاقاتهم، ومع ذلك ما زالت هناك تأنيبات فوق كاهلهم تتهمهم بفراغهم وكبريائهم لأنهم يحاولون - بصورة غير ملائمة بما يكفي - أن يجدوا تعويضاً ما بعمل أي عرض بسيط يمكنهم عمله بالمواهب القليلة التي يملكوها. أما على الجانب الآخر، فإن إخوتهم وأخواتهم - الذين يتم تملقهم بالمداهنة والنجاح باستمرار - يمكنهم بسهولة أن يخفوا الرضا السري الذي يحصلون عليه، ويبدون متواضعين. ومع ذلك، فإن الإنجيل يعلمنا أن نكون صادقين وأمناء؛ وأن

نرى أطفالنا كما هم، بسماتهم الجيدة والرديئة، وأن نتكلم إليهم بصراحة عن كليهما، وأيضاً عن سماتنا نحن الجيدة والرديئة التي يمكن أن يلاحظوها أيضاً؛ وأن نعترف لهم بأننا جميعاً مملوئين كبرياء لا يمكن لأي منا أن يتخلص منها بجهوده الذاتية، أو بالتظاهر بعدم وجودها؛ وأن نعتمد على غفران الله لها ونعمته لحمايتنا منها.

مؤخراً أكدت إحدى الأمهات أنه من الخطير أن تؤله الأطفال بنفس قدر أن تشوه سمعتهم. فلا شئ يضاهي الحق.

لا شئ يماثل أن تكون صادقاً مع نفسك. فقد رأيتُ كثيرين يتبنون اتجاهاً سلبياً نحو أنفسهم. في أذهانهم دائماً ما يدعون أنفسهم حمقى؛ يخزون ويحتقرون أنفسهم. وبينما يعترضون ضد الميل المنتشر للحكم على الآخرين، فلن يغفروا لأنفسهم نقائصهم الشخصية. ولا يعاملون أنفسهم بالحب.

إنَّ الإنجيل لا يدين محبة النفس؛ بل يطالبنا فحسب بأن نحب الآخرين كأنفسنا؛ إنه يؤكد على قيمة الفرد الإنساني بصفته خليقة الله. فأن تُقدِّر نفسك هكذا، بينما تميز في نفس الوقت خطيتك بصراحة، هو الشرط المسبق الأساسي لاختبار نعمة الله.

"*Maxima debetur puero reverentia*". أي أنه كي يكون التعليم مثمراً، لا بدّ من تنشيطه باحترام الطفل. فلا بدّ أن يفتح عينيه بالفعل على الجانب الأسوأ من طبيعته، لكنه يجب أن يتم تشجيعه أيضاً بمساعدته على تمييز مواهبه. لا بدّ أن يسعى لفهمه بدلاً من انتقاده. وفيما وراء ما تم استنكاره بصفته عناداً، يجب أن يُرى كـ "تفجُّر لصراع حيوي" (ماريا مونتيسوري). لا بدّ أن يحاول أن يسمح له باكتشاف حقيقة نفسه بدلاً من فرضها عليه بصورة جازمة. لا بدّ أن يُشجّع في محاولاته الأولى بدلاً من أن يسحق بأن يُكشف له بأنه بعد ممارسة طالت ثلاثين عاماً يعرف المرء كيفية

عمل الأشياء أفضل مما يعملها هو. لا بدَ أن يُحترم كيان الطفل نفسه. و هذا ما يقوله بستالوتزي: "اجعل الطفل يطلب ما يكون قادراً على اكتشافه بجهوده الشخصية." وأخيراً، لا بدَ أن يُحترم اتزانه الشخصي. فكم عدد الآباء والمعلمين الذين يتذكرون أنه حسب مقياس "الوقت النفسي"، فإن الساعة التي يقضيها الطفل في التركيز تتناسب مع ثلاث أو أربع ساعات بالنسبة للبالغ؟ ولذلك رأيت كثيرين منسحقين ومنهزمين فقط لأنهم يتعرضون للإجبار. ففيما يوهب أحدهم طبع هادي ولكن يربيه أبوان حريصان ونشيطان وسط إخوة وأخوات على نفس الدرجة من النشاط، إلا أنه دائماً ما يكون متأخراً، ودائماً ما ينهار، وإن كان يمكنني التعبير عن هذا من خلال شخص آخر، فإنه كان يقال عنه إنه عاجز عن عمل أي شئ.

من المثير أن تكتشف كم ندرة أولئك الآباء الذين يهتمون حقاً بفهم طفل مختلف عنهم. فكلما يُظهِر الطفل أي إبداع يُستنكر على الفور بصفته منحرفاً. يودّ الآباء أن يرون أنفسهم في أطفالهم، ويسرعون للتضحية بطفلٍ لا يشبههم. وغالباً ما يحدث أيضاً أن الأبوين المتنازعين يضحي كل منهما بطفلهما الذي يشبه الآخر[11]. وغالباً ما يحدث حتى أن الطفل يُضحّى به من جانب الأبوين - من جانب أمه لأنه يشبه أبيه جسمياً، ومن جانب أبيه لأن شخصيته تشبه شخصية أمه.

كثيرٌ من الآباء والأمهات الأذكياء والمفيدين لديهم شعورٌ غامض بأن هناك عوامل نفسية تمنع التعبير عن عاطفتهم تجاه أطفالهم أو تجاه أحد أطفالهم. فهم لا ينجحون أبداً في تمييز الميكانيزم اللاشعوري العامل هنا. وحتى حيثما يدركونه، لا ينجحون في تحرير أنفسهم منه. ربما يكون حافز انتقام لنقص العاطفة في طفولتهم هم. فيناضلون بجدية

[11] أي أن الأب يضحي بالطفل الذي يشبه أمه، والأم تضحي بالطفل الذي يشبه أبيه - [المُترجم].

لقهر تلك العقبة، لكن حقيقة أن عليهم القيام بمجهود تشوه نجاحهم. فحدس الطفل يكون سريعاً بصورة لا تصدق في الشعور بالحواجز الغامضة التي تفصله عن أبويه.

رأيتُ كثيرين صاروا متبلورين في اتجاه طفولي للحياة من خلال نقص الحب الأمومي. فهم يطيلون فترة طفولتهم بصورة غير محددة، لأنهم لم يتلقوا فيها ما كانت غرائزهم تطالب به. أخبرتني واحدة من هؤلاء أيضاً أنها لم تتلّق هدية واحدة في طفولتها قط. باستثناء مرة واحدة، عندما أعطيت قطعة من الشيكولاتة، ومع ذلك انتزعت منها على الفور كي تُعطى لطفلٍ آخر. وقِيل لها إنها ستأخذ قطعة أخرى بديلة، لكنها لم تأخذها قط.

العوامل اللاشعورية يمكنها أن تكون أيضاً في فاعلة في الآباء والأمهات الذين يقلقون كثيراً جداً بخصوص طفلهم. فإن تأخر عن العودة للبيت في المساء، فمن الممكن أن يتخذ انزعاجهم درجات غريبة. هذا القلق غير منطقي بالمرة وخارج سيطرة الإرادة تماماً. فعبثاً تخبر الأم نفسها مراراً بوجود أسباب مقبولة جداً لتأخر الطفل، وتوبخ نفسها لنقص ثقتها في كونها قلقة جداً، مخبرةً نفسها بأن جو الترَقب هذا قد يكون ضاراً بالنسبة للطفل. فيبدو فقط أن توبيخاتها لنفسها تصعيد من خوفها. علاوة على ذلك، فإن زوجها لا يمكنه أن يطمئنها بصورة إيجابية بعدم وقوع حادث ما. وعليه لا يمكنهما أن يجدا السلام إلا في الصلاة. ومن خلال الصلاة أيضاً ستكون الأم قادرة على فهم السبب الحقيقي لقلقها. فربما يكون الأمر أنها وهي طفلة كانت تعاني شخصياً لأن أمها كانت تقلق بشأنها قليلاً جداً. فيكون ضيقها الحالي هو إسقاط رغبتها الشخصية التي لم يتم إشباعها. وهذا الاكتشاف سوف يساعدها على استعادة سكونها.

وأخيراً، لا بدّ أن أوجه بعض الاهتمام للمشكلة المهمة الخاصة بالطفل الوحيد. فحقيقة أن الأبوين يكون لديهما طفل وحيد غالباً جداً ما تعود إلى جُبن زائف من جانبهما- خوف

من الحمل، من الولادة، من العبء المادي بالنسبة لأسرة كبيرة. عادةً ما يكون هذا عصياناً فعلياً لإرادة الله، والأبوان والطفل يدفعان ثمناً باهظاً جرّاء ذلك. فالأبوان يضعان كل آمالهما في الطفل؛ يريدانه أن يكون كاملاً، يغرقانه بالنصائح- النصائح الممتازة بالطبع. ويحلمان بوظيفة مميزة له؛ ويوحيان - ربما عن خطأ - بأن أمامه دعوة للكنيسة، أو يجعلانه يتبع طريقاً دراسياً لا يكون متناسباً معه. لا يسمحان له بأيّة مبادرة خوفاً من ان يرتكب خطأً ما، ولا يسمحان له بالاستقلال خوفاً من أن "يحدث له شئ ما."

كانت شابة عاجزة عن قراءة لائحة مواعيد القطارات، وذلك لأن أبيها - خوفاً من أن ترتكب خطأً ما - كان يرسم مسار حتى أقصر رحلاتها. مريضٌ آخر من مرضاي ربته عمته. وعندما وصل سن البلوغ، وكانت عمته في سن الثمانين، لا تزال ترافقه في كل رحلاته خوفاً من وقوعه في معاشرات رديئة. والأخطر من هذا هو حالة الطفل غير الشرعي الذي تربيه أم تراقب تعليمه بتوجس وخوف مفرطين لرغبتها تعويضه عن الخطأ الذي ارتكبته في حقه. وحتى إن جعلت من الطفل طفلاً أعجوبة- كما يحدث غالباً- فإن اتجاهه نحو الحياة يبقى خجولاً ومرتبكاً.

فوق ذلك؛ دائماً ما يميل الآباء والأمهات إلى تدليل الطفل الوحيد. والنتيجة هي أنهما يجعلانه خائفاً من الحياة، خائفاً من الفشل، وخائفاً من أن يكون وحيداً؛ ولن يخلص نفسه من هذه المخاوف ما لم يختبر القوة المحررة لنعمة الله.

غالباً أيضاً ما يدلل الزوج زوجته ويُضعف ثقتها بنفسها بأن يعمل لها كل شئ يمكنها هي أن تعمله بنفسها. فإن مات يتركها تواجه الحياة دون مقاومة.



الخوف

من الواضح أنه سواء انتاب الطفل الرعب بسبب مشاجرات أبويه، سواء كان أبواه أو معلميه قد أساءوا فهمه أو اضطهدوه، سواء كانت تنقصه الثقة بالنفس نتيجة تربية صارمة أو نتيجة الخوف الذي يبثّه الأبوان دائمي القلق، فإننا نجد أن السبب الأساسي لردود فعله الضعيفة دائماً ما يكون هو الخوف.

إن البالغين ليسوا على دراية بمدى ما يمثله حجمهم من رعب بالنسبة للطفل. ولفهم هذا، عليك أن تجعلهم يتصورون ماذا ستكون ردود فعلهم إن عاشوا وسط عمالقة أطول من ١٢ قدم، وتبدو قوتهم أعظم من قوة هرقل، وذكاؤهم أحدّ من ذكاء مينيرفا[١]، وصوتهم أقوى من صوت جوبيتر[٢]؛ أشخاص تبدو أفعالهم مُقاربة للمعجزات، ومواجهاتهم المتبادلة مصادمات قاسية، ويحتفظون بأسرارٍ لا حصر لها، مجيبين عن أسئلتهم بصورة مقتضبة: "هذا ليس من شأنك"، "كان يجب أن تخجل من أن تسأل هذا السؤال"، "أنت أصغر جداً عن فهم هذا."

نجد هذه الحالة خصوصاً مع الأب، وأنا أعرف كثيرين

---

١ *Minerva* - إلهة الحكمة والفنون عند الرومان - [المُترجم]

٢ *Jupiter* - الإله الرئيسي لروما القديمة - [المُترجم]

تنبع عدم قدرتهم على مواجهة حياتهم أساساً من هذا الخوف الذي لا يُمحى من آبائهم، وهو رعب يمتد إلى الخوف من كل الناس، وخصوصاً من كل الذين يشغلون مراكز القوة والسلطة.

يصف د. أليندي[3] الآباء والمعلمين الذين يستخدمون هذا الخوف كسلاحٍ بتّار يسيطرون به علي الطفل بأنهم مجرمون، إذ يخنقوُن شخصيته ويحصلون على خضوعه لمطالبهم الظالمة.

يكتب ليزلي ويزرد: 'الطرق الخادعة التي تميل للتخويف هي ضارة ومكروهة تحديداً: "إن فعلت ذلك فسوف يأكلك الغول." "إن عملت هذا فسوف تموت." "إن كنتَ شقياً فلن يحبك الله."'

اعتادت شابة أن تقتبس، وهي ترتعش، عبارة أمها المتكررة دائماً: "ستقع عليكَ اللعنة." واعتادت أخرى أن تقول لي غالباً: "أشعر وكأن ليس لي الحق في الحياة." وأخيراً أخبرتني أنها عندما كانت طفلة سمعت أبيها يقول عنها: "تلك ما كان ينبغي أن تولد." ورجل ذهب إلى طبيب دجال قال له لإخفاء فشله في علاجه: "لم أقدر على علاجك لأنك لا بدّ أن يكون بك روح شرير."

الخوف هو العامل المحفز للإيحاء، والإيحاء يرسخ كل أنواع المخاوف العنيدة والسخيفة حتى في قلوب أكثر البشر ذكاءً وشجاعة. فالخوف يجعلهم يهرعون وراء العرافين؛ فيزودهم العرافون بملحوظة حمقاء تزيف كل ردود فعلهم: "ستكون نهايتك تراجيدية مرعبة." أحياناً ما يتم توجيه مثل هذه الإيحاءات بأفضل النوايا. فلكي يُطمئن الطبيب مريضة تكون "خائفة من خوفها من الانتحار"، قد يخبرها أن لديها "طبعاً" يجعلها تميل لفكرة الانتحار. وبدلاً من أن تهدئها هذه الملحوظة، فلن تكون المريضة قادرة على التخلص منها.

3 *L" enfance méconnue*

تكمن المأساة في أن أولئك الأطفال الحساسين، سريعي التأثر، الهيابون هم فقط الذين يميل المرء لتخويفهم. فرفاقهم يقصّون عليهم قصصاً مرعبة لأنها مسلية، كما يشعرون بالتفوق لرؤية كم يكون من السهل ترويعهم. ولكن حتى البالغون، والممرضات، والأبوان من المعروف عنهم أنهم أحياناً ما يظهرون فجأة في غرفة الأطفال في هيئة أشباح!

كما أن هناك أمهات كي يُحكمن قبضتهن على الطفل يتحدثن عن الندم في المستقبل فيقلن: "سوف ترى، عندما أموت لن تغفر لنفسك أبداً ما سببته لي من متاعب." وأمهات أخريات لا يعرفن كيف يتحكمن في أنفسهن أمام أطفالهن. أعرف شابة ما زالت ترتعد عندما تتذكر الرعب الفظيع الذي اجتازته في إحدى الليالي عندما قالت لها أمها إنها ستلقي بنفسها في النهر. فركضت الطفلة وراءها في الظلام وهي تصرخ في يأس. فتعثرت في حفرة، وفيما كانت تندب حالها، مرّ بها عابر سبيل ظنّ أنها طفلة عاصية في نوبة غضب، فأمطرها بالإهانات.

أضف إلى هذا المخاوف العرّضية كالحرائق، والانفجارات، والبرق؛ أو العقاب من الحبس في البدروم أو في غرفة مظلمة؛ أو لقاء شخص مجنون، أو رؤية زميل بالفصل يعاني من نوبة صرع. مثل هذه الاختبارات تلعب دوراً هائلاً في حالات مرضانا، لأنها تجد تربة خصبة في قلب كل إنسان، حيث لا شئ ينمو أسرع من الخوف.

لا يمكنني بالطبع أن أحصي كل المخاوف التي تحاصر الرجال والنساء وتسيطر عليهم لدرجة أنهم يخافون الاعتراف بها. وهي تتراوح ما بين القلق الغامض الذي يتصاعد على الدوام لأنه لا يكون له غاية مُحددة، ويتضمن صراعاً بائساً ضد عدو غير منظور، وبين تلك المخاوف الأكثر تحديداً التي تُشتق من ارتباط الأفكار التي قد تكون شعورية أو غير شعورية: الخوف، ليس فقط من المرض

عموماً، بل من أمراض معينة تحدث في الوقت الحالي وتكون موضع الرأي العام مثل: السل، والمرض العقلي، السرطان؛ أو الخوف من الموت في نفس السن أو بنفس المرض الذي مات به الأب؛ الخوف من سن اليأس؛ الخوف من الميكروبات؛ الخوف من الذهاب للطبيب خوفاً من أن يؤكد على التشخيص الذي يخشاه الشخص بينما قد يكون معناه في الواقع التحرر من الخوف الذي لا مبرر له؛ الخوف من إنجاب طفل غير طبيعي الذي يجعل سيدات كثيرات يتجنبن الأمومة؛ الخوف من الموت أثناء النوم؛ أو الدفن حياً أثناء غيبوبة، الأمر الذي يُسبّب الأرق؛ الخوف من الكوابيس، وهو سبب آخر للقلق؛ الخوف من عملية جراحية، وهو الخوف من كشف أحد الأسرار تحت تأثير التخدير؛ الخوف من الموت، الأمر الذي يمتد إلى من هم حول المريض ويمنعهم عن مساعدته على مواجهة الموت؛ الخوف من فقدان أب، أو زوج، أو طفل، الأمر الذي يسبب شعوراً كاذباً بالاعتمادية بخصوصه؛ الخوف من الوحدة؛ الخوف من عدم وجود مأوى، أو مغادرة المرء لبلاده؛ الخوف من المسئولية، ومن المجهول؛ الخوف من عدم امتلاك المال؛ الخوف من جرح أحد الأشخاص، الذي يؤثر ضد الأمانة، أو الخوف من إساءة الفهم الذي يمنع الزوج والزوجة عن المصارحة معاً ويحفر فجوة من عدم التفاهم بينهما؛ الخوف من أن يُترك المرء وحيداً مما يمنع فسخ خطوبة تخلو من الحب الحقيقي؛ الخوف من خيبة الأمل في الصداقة مما يقتل الصداقة من خلال القيود التي يفرضها؛ الخوف من النهاية الحتمية للمتعة مما يمنع الاستمتاع بتلك المتعة؛ الخوف من خيبة الأمل مع الواقع مما يجعلنا نلوذ بالوهم؛ الخوف من قبول النصيحة، الخوف من التأثر، الخوف من عدم الاستفادة من منافع الأخذ بالنصيحة، ولا التحرر من الضرر الذي سيلحق من عدم الأخذ بالنصيحة؛ الخوف من تخييب ظن الآخرين أو التعرّض لتأنيبهم.

كل خوف يغذي المخاوف الأخرى وصولاً إلى "الخوف من الخوف" الذي تحدث عنه القديس فرانسيس دي سال Francis de Sales[4]. وهذه المخاوف تنمو بسرعة إلى أن يُصاب الذهن بالدوار، فاقداً كل مقاومته للخوف وكل قدرته على التعقل. نحن نتعذب بمخاوف حصرية بصورة متبادلة- الخوف من النجاح في نفس وقت الخوف من الفشل. اعتادت إحدى مريضاتي أن تقول لي: "أنا خائفة من الموت وخائفة من الحياة." آخرون يخافون من المرض المستمر، لكنهم يكونون خائفين أيضاً من التحسن والاضطرار لمواجهة الحياة من جديد.

الخوف يوّلد الأمر الذي يخاف منه المرء. وقد أشرتُ لذلك مسبقاً فيما يتعلق بالحرب. كما أنه يتأكد ليَّ يومياً فيما ألاحظ سلوك الأفراد: الرعب من خشبة المسرح تمنع الكلام؛ خوف المرء من أن يصير مثل أبيه أو أمه يقوده للتشابه المتزايد معهما، ويلعب دوراً بنفس أهمية الوراثة على الأقل؛ خوف المرء من حفظ قراراته يمنعها عن أن تكون صادرة من أعماق القلب، ومن ثم يكون الفشل أمراً حتمياً؛ الخوف من الاستسلام للعادة الشبابية يجعل الاستسلام لها أمراً مؤكداً؛ الخوف من الجنون يجعلنا عصبيين جداً لدرجة أن من حولنا يؤكدون لنا أننا على حافة الجنون؛ الخوف من "الانكسار"، وعدم وجود القوة الكافية لأداء المهام إنما يستنزف قوتنا لدرجة أننا "ننكسر" بالفعل؛ خوف الفتاة من تخييب ظن خطيبها يمنعها عن التصرف بشكل طبيعي حتى أنها تخيب ظنه بالفعل؛ خوف المرأة من أن تكون غير محبوبة يشوه رؤيتها لدرجة أن زوجها يسأمها ويصير غريباً عنها؛ كما أن خوفها من أن تكون غير جميلة بدرجة كافية يجعلها تفقد ملامحها الجميلة ويدفعها لتشويه منظرها بماكياج سخيف؛ كما أن خوفها من أن تزداد نحافة

4 See V. Raymond, *The Spiritual Treatment of Sufferers from Nerves and Scruples*, translated by Dom Aloysius Smith, R.&T. Washbourne, London, 1914, p.26

يمنعها عن الاحتفاظ بوزنها؛ وخوف الرجل من أن يفقد ثقة زوجته يجعله مرائياً لدرجة أنه يثير شكوكها؛ الخوف من الشيخوخة يجعلنا نشيخ قبل الأوان؛ الخوف من المعاناة يقودنا إلي آلاف الأخطاء التي تسبب معاناة لا نهاية لها؛ الخوف من الحاجة يقودنا إلى مضاربات نفقد فيها القليل الذي لدينا؛ الخوف من البطالة يجعل الشاب يغير وظيفته لدرجة أنه ينتهي به الحال وهو عاطل؛ أو خوفه من عدم القدرة على الزواج - لأنه ليست لديه وظيفة جيدة بقدرٍ كافٍ- يحرمه من الطاقة التي يحتاجها للنجاح في عمله. ذات مرة قالت لي امرأة: "لقد توصلتُ لإدراك أن خوفي من الموت إنما كان في الواقع خوفاً من الاحتضار قبل أن أكون قد عملتُ ما كنتُ أريد أن أعمله بالأكثر." وقد كان هذا الخوف هو الذي كان يمنعها بالضبط عن عمل ذلك.

***

في عالم الجنس نجد المخاوف الطفولية الأكثر ضرراً. فكلٌ من الصرخة المدوية التي تصاعدت عندما أوضح المحللون النفسيون تكرار الصدمات الجنسية في مرحلة الطفولة، والاتهام الموّجه ضدهم إزاء تحويل وقاحتهم إلى نظريات ليس لها مبرر ما هو إلا رياء. فالحقيقة هي أن الفحص الموضوعي لمجتمعنا يؤكد على ملاحظاتهم. فلأن المجتمع يفضل الجهل بكل الحقائق، والتعتيم عليها تحت ستار الصمت إزاء الانحلال الجنسي الواسع الانتشار اليوم، فإن أولئك الذين سقطوا ضحايا له يظنون أنفسهم حالات استثنائية. وبصعوبة بالغة يمكنهم أن يجبروا أنفسهم على التحدث عن ذلك، كما لو كان خزياً لا يمكن التعبير عنه. وأحياناً ما يستغرق الأمر شهوراً من المقابلات حتى يظهر للنور الاختبار الذي ظلّ يضلل حياة المرء بأكملها. لديَّ هنا أربع وعشرون حالة من الصدمات الجنسية الخطيرة، مثل التحرش بفتاة من جانب أبيها أو أخيها، أو المبادرة

الجنسية لولد من جانب أخته. بوسع المرء أن يتخيل إذا كمّ تكرار مثل تلك الصدمات عندما يضع المرء في اعتباره كل الصدمات التي ترجع إلى أحد صور المواجهة مع الانحراف الجنسي، والعُرّي، والتقلبات، إلخ. وتكون الصدمة النفسية حادة خصوصاً عندما يكون من يقوم بها مُحاطاً بهالة من الاحترام حتى تلك اللحظة، لأنه غالباً ما يكون أصحاب أفضل سُمعة هم الذين يتورطون في أحطّ الاعتداءات الجنسية على الصغار. وكثيراً جداً، عندما نتكلم عن الخطية وقوتها، فإننا نُتهمّ بالمبالغة التشاؤمية. فإن كانت الكنيسة تريد أن تستعيد تأثيرها، فلا بدّ أن تكون واقعية مرة أخرى. فجو الغموض والخزي الذي يساعد على تغطية مشكلة الجنس بأكملها هو في نفس ضرر المزحات البذيئة من العابثين، وعبارات الساخرين، أو نصائح علماء النفس الذين يدافعون عن الاستسلام بلا قيود لدوافع الغريزة.

ولهذا نجد أن ماضي العديد من مرضانا يتضمّن صدمات نفسية تعود إلى اختبارٍ ما متعلق بالجنس، وإنما تبدو من الظاهر أقل خطورة من تلك الاختبارات التي ذكرتها للتو، مع إنها تكون مشحونة بالانفعالات. وقد كانت تلك حالة رجل كان قلقه غير القابل للتعريف يعود إلى صباح يوم أحد، عندما خمن إلى حدٍ ما معنى الأصوات التي استطاع أن يسمعها من غرفة النوم المجاورة. يندهش المرء من كمّ الآباء والأمهات الذين يسمحون للطفل أن ينام في نفس الغرفة معهم، إلى أن يكبر، متصورين بسذاجة أنه لا يلاحظ شيئاً، حتى إن لم يُصعّدوا من حدة الأمور بتوبيخه بشدة إن فتح عينيه. حالة أخرى لأم لم تتوافق قط مع الجنس، وبطريقة سلبية للغاية شاركت ابنتها قبل الأوان أموراً شخصية مرتبطة بصور معاناة امرأة تطاردها شهوانية زوجها.

هكذا يكون الجو العام من الخزي الذي يحيط بالموضوع كله لدرجة أنني أتلقى بخصوصه رسائل لا حصر لها

من مجهولين يعانون بشدة ويحكون اختبارات وذكريات لم يجرؤوا قط على البوح بها لأحدٍ من قبل، وقد كانت تُسمّم حياتهم. ولكن مجرد أن تقصّ هذه الأمور على أحد الأشخاص لا يجلب الارتياح دائماً. أتذكر الآن رجلاً قام بزيارتي شخصياً بعد أن أرسل خطابه، ففي حياة الشركة الروحية فقط استطاع أن يضع مشكلته عند قدمي الله، ويستعيد اتجاها حراً وإيجابياً تجاه الحياة والجنس. أحياناً ما يكون المطلوب هو تأكيد الغفران، حيث أن كثيرين لا يعانون بالدرجة الأولى من الصدمة النفسية ذاتها بقدر معاناتهم من الضيق الذي تكون قد أثارته فيهم تجاه الشخص المسئول عن إيذائهم بهذه الطريقة.

كل هذه الصعوبات تثير ارتباطاً ذهنياً عميقاً بين الجنس والخوف لدرجة أنهما يتحدان لسحق الروح. كما أن أطفالاً كثيرين يعانون من عذابٍ خفي لأنهم يخافون من طرح أسئلة معينة؛ وقد يُصعِّد هذا من العُقد الجنسية العنيدة. كتبتْ لي إحدى معلمات المرحلة الإبتدائية الواعيات كي تخبرني عن النتائج المروّعة لتحرّيها الدقيق لصور انشغال من قامت بدراستهم، الأولاد والبنات.

يلعب الخوف دوراً حاسماً في جميع الإضطرابات النفسية-الجنسية. فهو يحفز ميكانيزم الإيحاء الذاتي الذي بدوره يُوّلد الخوف: الخوف من عدم التمتع بالحياة الجنسية (وغالباً ما يكون هذا هو السبب الوحيد البسيط، بغضّ النظر عن الاضطرابات الجسمية الحادة، وراء اضطرابات العنّة والبرود الجنسي)؛ الخوف من الإجهاد الجسدي في الجنس، بينما عندما يكون حسب مشيئة الله يكون بمثابة عامل مُنشِّط؛ الخوف من الزواج أو عدم القدرة على الاحتفاظ بالعفّة خارج إطار الزواج؛ الخوف من الخيانة التي تستنزف مقاومة التجربة؛ الخوف من عدم القدرة علي الحب الحقيقي مما يدفع الناس للتورط في علاقات "تجريبية" في التصنع الذي لا يمكن أن يزهر منه الحب الحقيقي؛ الخوف من

إعطاء الفرصة لتجربة النجاسة، وهو خوف يؤدي لبذل مجهودات مفرطة في الرياضة أو العمل، حتى أنه في بعض الحالات يدفع الشخص للعمل الكنسي الذي لا يكون مدعواً له على أمل طرد مخاوفه؛ الخوف من التعافي الذي غالباً ما يقابله المرء مع بعض المرضى الذين يخافون العودة للحياة والصحة الطبيعية مما يعني أيضاً إعادة يقظة الرغبة القوية للحواس؛ وأخيراً، المخاوف الخيالية التي تثيرها أفكار ومفاهيم لا أساس لها من الصحة كالخوف من المرض، من البرود الجنسي، من العقم كعقاب للعادة الشبابية.

هذه الأشياء مشحونة جداً بالانفعالات لدرجة أن أكثر ملحوظة عادية وحتى التفسيرات المقبولة تماماً يمكنها أن تسبب كمًّا لا يُحصى من علامات سوء الفهم. فتاة تخاف أن تصبح حامل نتيجة رقصها مع شاب، وذلك لأن معلمتها المتدينة حذرتها من خزي الحمل قبل الزواج. إن القوة الإيحائية لهذه الفكرة كفيلة بأن تُسبِّب فيها علامات الحمل القليلة التي تعرفها - انقطاع الطمث والقئ - ولهذا تشعر أن أسوأ مخاوفها قد تأكدت.

من المناسب أن نؤكد على الجانب المهم الذي يلعبه الإيحاء الذاتي في تكوين كل أنواع الاضطرابات الجنسية، والعادة الشبابية، والعجز الجنسي، والانحرافات. فالإيحاء الذاتي يجد في الخوف تربة خصبة لنموه، كما يزدهر في العزلة الأخلاقية التي تحدث نتيجة الخوف من التكلم عن هذه الأمور. لقد رأيت رجالاً ونساءً انتابهم فجأة الخوف من أن يكونون شاذين جنسياً دون أي سببٍ موضوعي. وهذا كافٍ لتحويل أفكارهم تجاه الصور الذهنية المتعلقة بذلك، أو إثارة عدم ارتياح - في وجود صديق أو صديقة- يعتبرونه تأكيداً لخوفهم.

جاءني أكثر من مرة أحد الأشخاص معلناً أنه كان شاذاً جنسياً منذ ولادته، وقد اكتشفنا بالتعمق الهادئ في ذكريات

طفولته أنه سبق وتحرش بفتاة صغيرة، لكنها صفعته على وجهه. ومنذ تلك اللحظة انقلب مسار خياله تجاه نفس جنسه، في محاولة لاشعورية لإخفاء الجُرح الذي أصاب صورته عن نفسه. هذه حالة إنكار الرغبة في شيءٍ ما بعد اكتشاف الشخص استحالة الوصول إليه.

رجلٌ آخر ثارت ضده فتاة كانت مستفزة للغاية - وهذه حالة أخرى لصورة النفس المجروحة، لأن الرجل يتمنى أن تكون له المبادرة في الحب. بنفس الكيفية، تقريباً، أصادف حالة عجز جنسي في أحد الأزواج تكون زوجته ذات شهية جنسية عالية؛ فكلما تطالب بالإشباع الجنسي كلما يُصاب الزوج بالعجز. فهو يشعر بالعجز من جانب شعوره بالذنب بخصوص زوجته وإحساسه الشخصي بالمهانة. وربما يرتكب الزنا لمحاولة طمأنة نفسه. ويكون المطلوب في مثل هذه الحالات استرخاءً حقيقياً من التوتر، وذلك لكسر الحلقة المفرغة، وللعودة فيما يبدو إلى تلك المرحلة في تطور حبهما عندما كانا يتبادلان قبلات الحب الأولى.

رجلٌ آخر كان خائفاً من أن يكون شاذاً جنسياً منذ اللحظة التي وقع فيها كضحية سلبية لاعتداءٍ جنسي. وآخرون يعانون من نفس الخوف لأنهم أخوف من أن يقتربوا لإمرأة. في حالة فتاة صغيرة، كانت مخاوفها هي نتيجة الإيحاء الذاتي الذي سببَّته الشكوك التي لا أساس لها من الصحة من جانب معلمة في إحدى المدارس التي توفر الطعام والمأوى بسبب تعلّق الفتاة بأحد الزملاء.

عندما يرى المرء كل هذا، فسوف يدرك كيف يكون المجتمع ظالماً عندما يسحق هذه النفوس المعذبة باتهامه الاحتقاري لهم "بالانحراف"، وهو مصطلح مشحون تماماً بأفكار الخزي والطعن، بينما هؤلاء الأشخاص ليسوا أكثر شهوانية من أي شخصٍ آخر محترم.

وجّه لي بعض الإنجيليين بعض التوبيخ لأني صرُحت ضد الحكم الصادر في اسم التوافق الاجتماعي في هذا

الخصوص، مشيراً إلى قصة أونان في سفر التكوين°.
لستُ أنكر بالطبع أن إتاحة المجال لكل حافز غير مقدس هو خطية: لكل حافز - انتبه - سواء كان طبيعياً أو منحرفاً. فالخطية أمرٌ مشترك لكل البشر، طبيعيين كانوا أو منحرفين. وبالتالي، فإن كل الناس قد يختبرون من خلال نفس الضمير والتوبة الحقيقية القوة التحريرية الأصلية لنعمة الله. أما الشعور الزائف بالذنب الذي لا ينبع من عدم نقاوة المريض، بل من انحرافه، الذي لا يكون مسئولاً عنه، فليس إلا مصدر اليأس، والخوف، والانحطاط الأخلاقي. وحتى أن تقول لرجلٍ يعاني من أحد أشكال الانحراف بأن مشكلته أندر مما يظن، هو ارتياح هائل بالنسبة له.

المنحرفون معتادون على محاولة تبرير أنفسهم بالرجوع لنظريات موضوعة بخصوص شرعية الجنس غير السوي. ليس من الصعب ملاحظة أنه رغم كل مجادلاتهم، إلا أنهم ما زالوا ممتلئين عن آخرهم بالعار الزائف النابع من التقاليد.

فها هنا إنسان تتملكه فكرة الانتحار في لحظةٍ موافقة - لحظة انتصار - لأنه يخاف أن يصل السماء وهو في حالة الخطية! مثل هذه الحالة تبين الرعب الذي يمكن أن يُصعِّده هذا الشعور الزائف والشكلي بالذنب. فالعاطفة الصحية التي يُثيرها الاقتناع الأصلي بالخطية أمرٌ صحي. أما تلك العاطفة التي يوحي بها المجتمع، والتي لا تتعلق بالخطية بل بالانحراف، فهي مدمرة. فالأولى تؤدي للحرية من الخوف من الناس؛ أما الثانية فتسبب سلسلة من المخاوف في تيارها. في مجال الضمير الأخلاقي، يكتشف الشخص الذي يعاني من الجنس غير السوي أن ما هو خاطئ هو هذا الخوف، الأمر البعيد تماماً عن تعليم الإنجيل، ومما سيقوله الآخرون، وسوف يكتشف أن التحرر منه سيحقق له الانتصارات. وهكذا يبقى الاعتراف - للأسوياء ولغير

° تك ٣٨: ٤- ٩

الأسوياء - هو الطريق الوحيد للخلاص؛ لكن الاعتراف يعتبر أكثر صعوبة بالنسبة لغير الأسوياء من جانب هذا الخزي الاجتماعي الزائف الذي يقيم حواجز من الرقابة النفسية.

تُتّهم الكنيسة بترويج الخوف من الجنس. ولا بدّ أن نعترف بصحة هذا الاتهام. امرأةٌ تقية بادرها للحياة الجنسية شخصٌ سوقي كانت تحتقره في أعماقها بصفته أدنى منها "في الرؤية الروحية" تعرّضت للمهانة حين أدركت مقدار القبضة التي كان يسيطر بها عليها من خلال الحواس. وقد كان شعورها بالمهانة يتحول إلى هاجسٍ تمّ فيه بذل مجهود هائل للحفاظ على الصورة الزائفة السماوية التي كانت تُكوّنها من قبل عن نفسها. إن مثل هذه الحالات - المتكررة جداً بيننا - تتصاعد من عادة اعتبار الخطية الجنسية مختلفة عن كل أنواع الخطايا الأخرى، وهذه العادة منتشرة بين الكثيرين. فهناك آباء وأمهات كثيرون يقومون بضجة مفرطة عند قيام طفلهم بالعادة الشبابية بدلاً من معالجة الأمر كعلامة طبيعية جداً عن الجنس الطفولي - وهو نوع من استكشاف طبيعة لم تتطور بعد بصورة كاملة. إن الخزي المفرط الذي نحيطٍ به العادة الشبابية هو وحده الذي يعطل النمو الجنسي ويُخلّد هذه العلامة الطفولية. خذ حالة أم تدفع ابنتها أمامي كما لو كنتُ قاضياً قائلةً لها في حضوري: "سوف يقول لك الطبيب إنك ستموتين إن واصلتَ هذا." وأخرى تأتي بدموع لتحكي لي عن "الضربة القاضية" التي تلقّتها عندما اعترف ابنها بممارسة العادة الشبابية. فهي تؤمن أن "خلاصه" مكوَّن بصورة لا يمكن استعادتها، وتضيف أنها لم تتمكن من الصلاة منذ ذلك الحين. في مجالاتٍ أخرى يعترف الناس طوعاً بمشاعرهم دون أن يشعروا بالخزي الرهيب منها؛ لكنهم يشعرون في قرارة أنفسهم أن قوة الشهوة الجسدية تجرحهم بخزي خاص تماماً يرتبط بالضمير الأخلاقي الحقيقي أقل بكثير مما يرتبط بالعُرف الاجتماعي. فليست

الخطية هي ما يخزون منها، بل امتلاك الغريزة الجنسية هو ما يشعرهم بالخزي. وفي هذا الاتجاه السلبي، الذي يخترقه هكذا الخوف والكبرياء، فإن التجارب تصير أسوأ حالاً. لا بدّ أن يستنكر المسيحيون كل الشكليات ويتعلموا من جديد أن يفهموا المعنى السماوي للجنس. من حسن الحظ أن هناك الآن بعض الكُتّاب الرائعين يُوَجهون انتباهم لهذه المهمة، مُوَجهين أنفسهم للطبقات المتعلمة كالقس ليزلي ويزرد[٦]، وللطبقات الأكثر شعبية مثل د. جوفينرو[٧]. تمثل تلك الكتابات تعارضاً مقبولاً مع تقليدٍ كامل من الأدب المتزمت الذي كان مسئولاً عن كمٍّ لا يُحصى من المآسي النفسية لأنه يُنمّي بشدة الخوف من الجنس.

أن تزرع الخوف من شئ سماوي هذا يعني أنك بالخوف تبعد الناس عن الله. ولهذا فإن الكثير جداً من شبابنا، حتى عندما يُصلّون من أجل ذلك، يتصارعون ضد التجربة الجنسية في جوٍ من الخوف بدلاً من جو الإيمان.

تأتيني امرأة تربّت في جوٍ من الكبت بخصوص الجنس. وقد كانت قد كبتت غريزتها الجنسية بنجاح ساحق لدرجة أنها صارت تظن أنها مُستثناة منها. كان يغازلها كثيرون، لكن مبادراتهم المباشرة جداً تركتها باردة تماماً. بدأتْ في عملٍ اجتماعي شهير، لكنها كانت تختبر من وقتٍ إلى آخر ضيقاً غريباً عندما كانت تجد نفسها محاصرة في صراعاتٍ تبقى دون تفسير، حيث كانت مرتبطة بكبتها. ولكن فجأة، وبصورة مرعبة، ينقلب كل شئ رأساً على عقب بالنسبة لها عندما تشعر خلال صداقة متحفظة بالحوافز الأولى لغريزةٍ معينة لا تعرف عنها شيئاً. في اتجاهها المتصنع السابق، كانت دائماً ما تنتقد - أو حتى تحتقر - النساء اللائي كُنَّ يخاطرن بمهنهن مقابل علاقة غرامية، واللائي كُنَّ يسمحن

6 L. D. Weatherhead, *The Mystery of Sex*, Student Christian Movement Press, London, 1945

7 Dr Jouvenroux, *A la decouverte de l"amour*, Editions Ouvrieres, Geneva, 1943

لأنفسهن بأن تدمرهن مشاعرهن، واللائي كنَّ "يفقدن عقولهن." فحتى ذلك الحين كانت تعتبر أن العقل أقوى من القلب. وقد كان هذا أحد العوامل في نجاح مهنتها، رغم أنه قد سبَّب أيضاً الصعوبات، فقد تمَّ على حساب عميانها عن نفسها. أما الآن فهي مقهورة تماماً لأنها اكتشفت أنها نفسها تملك قلباً كان يمكنه أن يكون أقوى من عقلها. كما تدرك أنها- كالأخريات اللائي تعودت على احتقارهن - مُعرَّضةً أيضاً تماماً لأن تفقد عقلها. إنها خائفة؛ خائفة من نفسها؛ وخائفة من هذه الدوافع التي اكتشفتها داخل نفسها.

لكن حوارنا معاً يتقدم. فهي تجد شجاعة جديدة، شجاعة أن تنظر إلى نفسها كما هي حقاً، أن تواجه مخاوفها وجهاً لوجه. تعود ذكريات الماضي. فترى الآن أن تلك الدوافع قد كانت دائماً بداخلها، وأنها كانت تخفيها عن نفسها. كما تدرك أن تلك الدوافع كانت هي السبب اللاشعوري للصراعات التي لا يمكن تفسيرها التي مرّت بها. وبالتالي، فإن الصورة التي ابتكرتها عن نفسها - صورة الإنسانة المستثناة من الغريزة ومن خطر السماح لها - إنما كانت وهماً. وبدلاً من أن تكون تلك الصورة علامة قوة، كانت علامة ضعف، وذلك لأنها كانت نوعاً من الهروب. فالشجاعة الحقيقية تشمل قبول أنفسنا كما نحن، بما فيها تلك المخاطر المستمرة التي تكون فينا والتي يمكنها تماماً بكل سهولة أن تخدع أياً منا لخيانة مثالياتنا؛ فهي تتضمن قبول الصراع الدائم ضد تلك المخاطر- قبوله بصورة شعورية بدلاً من تجنبه بكبت غرائزنا. لقد وجدت تلك المرأة السلام من جديد؛ وهي تجد نفسها أقوى من قبل، وذلك لأنها تقبل الآن الواقع والصراع.

الموقف المسيحي بسيط وواضح بهذا الخصوص. فبالنسبة للمسيحي، الموقف ليس مسألة احتراس ضد انفجارات غريزة ما يحتقرها، مُضللاً نفسه ببراعة بأنه في مأمن من مخاطرها - وليس عليه أن يسمح لها خارج الحدود

التي وضعها الله له في إطار الزواج. فالمسيحي يُقدِّر جدا الغريزة التي زرعها فيه الله لدرجة أنه يحرص على عدم إفسادها بإساءة استخدامها. ولأن لدينا موقفاً إيجابياً تجاه الجنس، فإننا ننظر إليه بصفته أحد روائع الله، حتى أننا نرغب أن نُخضَعه له.

ذات مرة سألني طالب فرنسي: "هل يمكن أن أبقى طاهراً حتى الزواج؟" ثم أضاف: "إني أؤكِد بين أصدقائي على إمكانية ذلك، لكني بيني وبين نفسي أشكّ في ذلك." الطهارة ممكنة طبعاً. وتأثيرها مُقوّي بلا حدود للصحة الجسمية والأخلاقية. لكن العالم يظن العكس كي يبرر سلوكه. أما الطهارة فتكون ضارة فقط حين يدفعها الخوف والخزي الزائف من الجنس، وفي مثل هذه الحالة تصير أقل زلة عُرضة لليأس المطلق. قال القديس يوحنا ذهبي الفم: "مكمن الخطر ليس أننا نسقط أثناء الجهاد، بل أننا عندما نسقط نبقى منطرحين على الأرض." حين يكون مصدر الطهارة هو الإيمان، فإنها تصير أقوى فأقوى، وبدورها تُحصِّن الذهن. وبالتالي يمكن أن يشكر الإنسان الله من أجل القوة التي منحها له، ويعتمد على نعمة الله لتحميه من إساءة استخدام القوة، وكلما سقط يقوم.

لا بدّ أن نحرِّر الناس إذاً من الخوف الزائف من الجنس. ورغم أني أعترف بأن الكنيسة غالباً ما تكون مسئولة عن هذه المخاوف الزائفة، يجب أن أضيف أننا غالباً ما نجد هذه المخاوف أيضاً في المرضى الذين تربّوا خارج إطار التأثير الكنسي. فهذه المخاوف التي لا أساس لها تمنع مزج الحب الرومانسي والحب الجسدي الذي يكون بحسب مشيئة الله.

ولكن في المقابل، كي نُحرِّر الإنسان من خوف زائف من الجنس، **فلا بدّ أن نساعده على قبول الخوف الحقيقي- الخوف من إتاحة الفرصة لسوء استخدام الجنس.** هذه النقطة في منتهى الأهمية لدرجة أني ألتمس الانتباه التام

من القارئ. فهنا مثلاً مريضة تخبرني أنها حسبما يمكنها أن تتذكر، حتى وهي في سن الثانية أو الثالثة، كانت تنزعج من جانب عاطفة غامضة مكونة من حب الاستطلاع، والرغبة، والخوف فيما يتعلق بحقيقة الجنس. وقد كانت تعتقد أنها تشعر لوحدها بهذه المحنة، التي احتفظت بسرّها حتى الآن. وأنت تدرك أنها لم تكن وحدها، وأن كل طفل في العالم يعرف نفس الخوف. فما جعلها مريضة ليس هو الخوف، بل سريته - خوفها من الخوف، الذي منعها من الاعتراف به.

توافقاً مع كل علماء النفس هؤلاء الذين جذبوا الانتباه إلى ذلك في منتصف القرن السابق، أشرتُ إلى أن التقليد الاجتماعي يُصعِّد هذا الخوف. ولكن لا يمكن أن أتفق على أنه السبب الوحيد. فلست أؤمن أن أي طفل، حتى الطفل الذي يترّبى في ظروفٍ مثالية، يمكنه الاقتراب من الوعي بالجنس دون اختبار هذا الخوف. فسوف يعرفه حتى لو كان في جزيرة منعزلة.

إن حدس الطفل الحاد يخبره أن هناك قوةً هائلة تثور في داخله تكون قادرة على السيطرة عليه وقهره. كما يوحي له بخوفٍ حتمي وكوني. يقول الاتجاه التقليدي للطفل بمجرد أن يعترف أو يبين علامات هذه الدوافع: "ألستَ خجولاً من نفسك؟" وهذا يجعل الخوف أسوأ حالاً لأنه يُغلّفه بالسرية ويثير خوفاً إضافياً - الخوف من خوفه؛ وأيضاً لأنه أكذوبة. الحق أن الشخص الذي يقول له: "ألستَ خجولاً من نفسك؟" يكون قد عرف بنفسه وما زال يختبر نفس الدوافع ونفس الخوف.

إن التقليدية تجعل الأمور أسوأ؛ فهي تضيف خوفاً آخر؛ لكن هذا ليس تفسيراً كاملاً. فهناك جوهر أساسي وأصلي للخوف لا يرتبط بالتقليدية، وذلك لأنه جزء من طبيعتنا. فعلماء النفس - مثل فرويد - الذين يظنون أن الخوف من الجنس ينبع فقط من القيد الاجتماعي الذي يعيشون في

الخيال.

لا نوجد حياة بلا رغبة؛ ولا رغبة بلا خوف؛ فالمرء لا يمكنه أن يرغب شيئاً دون أن يكون خائفاً من عدم الحصول عليه.

لا يمكننا أن ننال في هذا العالم كل ما نرغبه. ومن ثم، لا يمكننا أن نعيش بلا خوف؛ بلا خوف من أن نُعاق من الخارج أو من الداخل في تحقيق رغباتنا - من الخارج بقوى الطبيعة وإرادة الآخرين، ومن الداخل بضميرنا الأخلاقي.

عرَّف فرويد الأحلام بصفتها تحقيق رغبات مكبوتة. وأعتقد أن المرء يمكنه أن يُعرِّف الخوف بالمثل؛ ستار رغبة مكبوتة. تأمل إحدى مريضاتي، عندما كانت صغيرة جداً كان يغلبها شعورٌ بالقلق حين كانت تخرج من البيت. والحقيقة أنها كانت تحمل مشاعر حقد معينة ضد أمها، وكانت تكبتها. فأرادت أن ترحل، أن تغادر البيت، لكن ضميرها أدان هذه الرغبة. وهكذا، حتى عندما كان رحيلها أمراً مشروعاً، إلاّ أنه أثار فيها رغبة الشعور بالذنب، ومعها أيضاً الخوف.

لا يمكننا أن نرغب شيئاً دون أن نخاف لئلا تؤدي رغبة إلى أخرى إلى أن نتخطى الحدود المسموح بها. يرتبط الجوهر الأصلي للخوف الذي يكون حاضراً في كلٍ منا مع ضميرنا الأخلاقي - وهذا المفهوم يتجاهله أتباع فرويد. إنه الخوف من ارتكاب الخطية، الخوف من أن تحملنا قوة غرائزنا ونرتكب أفعالاً يدينها ضميرنا الأخلاقي.

لكي يُحرِّر أتباع فرويد مرضاهم من الخوف، يحاولون أن يقنعوهم أنه ناتج القيد الاجتماعي، وأن الشعور بالذنب بأكمله هو نتيجة الإيحاء. فإن كان شخصٌ ما يعاني من الندم لأنه أتاح الفرص للعادة الشبابية، يخبروه أن يهجر هذه الشكوك الزائفة لأنها مجرد نتاج التحيز الاجتماعي. في

دراسة رائعة عن الشعور بالذنب المرتبط بالعادة الشبابية، شرح د. مايدر بوضوح عدم جدوى مثل تلك النظريات[8]. فلا أحد يمكنه أن يهرب من الصوت الداخلي الذي يتهمه باختراق نظام الطبيعة باستخدامه لغريزته على خلاف غرضها - المتعة المنفردة بدلاً من المتعة المتشاركة التي تخلق مجتمعاً. قد يُحفِّز شخصٌ ما لكبت صوت ضميره، لكنه لا يمكنه أن يتحرر منه.

علاوة على ذلك، فإن هذا لا ينطبق فقط على الجنس. فقد اتخذتُ من الجنس مثالاً لي لأنه المثال الأكثر نمطية. فالقوة الداخلية التي توحي بالخوف فينا هي الحياة نفسها. وليست الرغبة الجنسية وحدها، بل الرغبة في أن نحيا، ونملك، وننتشر. فمن منا لا يرغب - منذ فترة طفولتنا - أن يكون هو الأقوى، والأغني، والأكبر؟ ومنذ الطفولة نشعر أيضاً استحالة ذلك دون عدم اعتبار مشاعر الآخرين، ودون اختراق نظام الطبيعة، ودون التعدي ضد ذلك الإحساس بالنظام الذي هو ضميرنا الأخلاقي. وبالتالي نكون خائفين من رغبتنا، وخائفين من إتاحة الفرصة لها، وخائفين من أنفسنا.

هذا خوف لن تحررنا منه أيَّة نظرية في العالم. فهو طبيعي، وكوني، وصحي، كما سنرى فيما بعد. إنه جزء من طبيعتنا الإنسانية.

***

ذات يوم استقبلتُ صديقاً إنجليزياً، وهو رجل إنجليزي هادئ متزن، يمثل صنف الرجال الذين يبدو أنهم لا يخافون شيئاً. علاوة على ذلك، كان يتمتع في الدوائر الفكرية والسياسية لبلدته بالشهرة التي قد تُضفي عليه كل مشاعر الثقة بنفسه. قبل أن أتفوه بكلمة، جلس وقال لي

---

8 Alphonse Maeder, *Ways to Psychic Health*, Hodder and Stoughton, London, 1954

بمرح: "قضيتُ لتوي أسبوعاً رائعاً في بلدكم. وكي أعرف نفسي أكثر، حاولت عمل قائمة بكل الأشخاص، والأشياء، والأفكار التي تجعلني خائفاً. هذا تدريب ذهني مثمر. فقد ملأت كراسات كثيرة؛ لكن أسبوعاً واحداً ليس كافياً لعمل قائمة كاملة."

لن أنسى تلك الزيارة أبداً. فأنا أتذكرها كلما يأتمنني أحد هؤلاء المساكين المنهزمين في الحياة - كما لو على سرٍ خطير - بأنه خائف من هذا أو ذاك. أدرك أن معاناته تعود في أغلبها إلى سوء فهم رهيب. فهو يظن أن "الأقوياء" ليسوا خائفين. كما أنه يشعر بالخزى من خوفه، كما لو كان ضعفاً استثنائياً، بينما صديقي الإنجليزي تكلم عنه بمنتهى السهولة.

لا تتصور أن المخاوف التي أحصيتها للتو تهاجم فقط قلوب الضعفاء، أو المنهزمين، أو العصابيين. فأصحاب النجاحات الاجتماعية: الرجال الذين نرتعش أمامهم جميعاً، الرجال أصحاب أعلى المراكز السياسية، أو الاقتصادية، أو العسكرية، الرجال الذين في ظروف معينة أثبتوا شجاعتهم البطولية هم رغم ذلك فريسة مخاوف سخيفة يكونون عاجزين عن طردها. فكم منهم خائفين من زوجاتهم - أو من أنفسهم!

الحق هو أنه من الأسهل أن يخفي المرء خوفه - عن الآخرين كما عن نفسه - عندما يبدو قوياً. فكي يميز المرء خوفه، يكون بحاجة - مثل صديقي الإنجليزي - للانسحاب من العالم وتقدير نفسه. عندما يكون المرء صاحب نجاح اجتماعي، يمكنه أن يحفظ ماء وجهه ويضع ستاراً من الشجاعة على الأشياء. إن الخوف الذي يشعر به الضعفاء في وجود الأقوياء إنما يمنعهم عن رؤية الأقوياء كما هم حقاً، كما يمنعهم أن يميزوا فيهم الخوف الذي يخفونه.

التلميذ قد يخاف المعلم، لكن المعلم أيضاً يخاف التلميذ. ولا معلم يخالفني في ذلك الرأي. ولكن كلما تعاظم خوف المعلم،

كلما صار قاسياً بل وحتى ظالماً، وكلما لجأ للتهديد لإخفاء خوفه. المريض قد يخاف الطبيب، الذي ربما يكون على وشك أن يكشف عن مرض خطير أو يطرح سؤالاً محيراً، لكن الطبيب أيضاً يخاف المريض، يخاف من تخييب ظنه، من ارتكاب خطأ، بعجزه عن علاجه؛ وكلما صار خائفاً، كلما صار أكثر عجزاً. العامل قد يخاف صاحب العمل الذي قد يحرمه في أية لحظة من مصدر معيشته، لكن صاحب العمل يخاف العامل أيضاً. وكلما خاف منه كلما صار بسلوكه سيادياً ومتكبراً. المنافس يخاف المنافس. وعندما تسوء الأمور ويكون المرء خائفاً من الفشل، يكون المرء أكثر حرصاً على إظهار الثقة الهادئة - "حتى لا يبدو كذا وكذا..."، كما عبَّر أحد الصحفيين بصورة رائعة[9]. فالمرء يحاول أن يُروِّع الآخرين لأنه يكون هو نفسه مُرَّوعاً. إنما ردود الفعل القوية التي كنا ندرسها هنا هي ستار نخفي ورائه مخاوفنا. فالخوف هو سببها مثلما هو سبب ردود الفعل الضعيفة.

كل الناس خائفين، وكلهم يشتاقون للاطمئنان. فالشهادات الجامعية التي يحصلون عليها، والنجاحات الذين يحرزونها، والتقدير الذي يبحثون عنه وينمونه عن طريق السلوك الكريم، والشجاعة التي يظهرونها، والحماسة التي يدافعون بها عن آرائهم، وتصميمهم في توضيح أنهم دائماً على حق، والاحترام الذي يطالبونه ممن هم أضعف منهم، والطرائف التي يطلعون بها - كل هذه هي الترسانة التي تستر ضعفهم. ولكن رغم أنها تؤيد سُمعتنا وتساعد على منحنا قدراً من الطمأنينة، إلا أننا نعرف جيداً أن الموت سينزعها عنا. وهذا أحد أسباب الخوف الكوني من الموت، فالخوف من الموت يغذي بدوره كل مخاوفنا الأخرى.

أضف إلى هذا الخوف الذي يتشاركه البشر مع كل

---

9 Samuel Chevallier, "*Mauvais signes*", in La Suisse, Geneva, 24 Oct. 1947

الكائنات الحية الأخرى - الخوف من الكوارث الطبيعية، ومن الأقوى منا، الذين يمكنهم أن يُسبّبوا لنا الأذى ويسحقوننا. يخبرنا زاكرمان الذي درس الحياة الاجتماعية للقرود أنه في إطار الجماعة يبدو أن كل حيوان يعيش تحت تهديدٍ مستمر بالخوف[10].

لكن هذا ليس كل شئ. فهناك الخوف النابع من الداخل، الخوف من النفس، الخوف من القُوى التي نشعر بها حقاً في أنفسنا والتي يمكن أن تنفجر في أية لحظة.

تصل إحدى المريضات أخيراً إلى النقطة القصوى من سلسلة طويلة من مظاهر الخوف: "أنا خائفة من نفسي - أنا خائفة مما أكتشفه داخل نفسي - أنا خائفة من دوافعي، خائفة من أن أنطلق وأرتكب فعل انتقام، كراهية، غيرة - أنا خائفة من أن تثيرني غرائزي الحيوانية وأتورط رغماً عني في مغامرة مبتذلة - أنا خائفة من مشاعري، طباعي، ومن أن أكون شهوانية جداً - أنا خائفة من نوال قسط من الراحة لأني خائفة من أحلامي - كانت لي دعوة أن أصير راهبة لكني رفضت لأني كنت أحب القس - أنا خائفة من "التحول": أنا خائفة من أن أحمل حباً خاطئاً تجاهك أنت."

هذا كله معناه شئ واحد: أنا خائفة من ارتكاب الخطية. والخوف ينتج ما يُخيف. فما نحاربه هو ما نشعر أنه يسيطر علينا. وكل هؤلاء الناس الذين يكبتون مشاعرهم خوفاً من أن تقهرهم الخطية، إنما يجدون أنفسهم ضائعين في صحراءٍ جرداء حيث يحاصرهم ذاك التعطش للحب لدرجة أن أكثر شعور برئ يتميز بمثل تلك العاطفة الجياشة حتى يكون الباب مفتوحاً على مصراعيه للخطية.

لا تتصور أن هذه المخاوف مقصورة على المرضى الذين يأتون لاستشارتنا. فهي تحوم حول من يبدو أنهم الأكثر ثقة بأنفسهم. كلنا نعرف أن لدينا إخفاقات معينة لم ننتصر

10 S. Zucherman, *The Social Life of Monkeys and Apes*, Kegan Paul, London, 1932

عليها قط، رغم كل جهودنا وقراراتنا، أو أن انتصاراتنا عليها قد كانت عابرة و غير مكتملة. وكلما حاولنا إخفائها، كلما استنزفتْ ثقتنا بأنفسنا، وكلما تعددت ردود أفعالنا الضعيفة التصميمية لإخفائها، وهذه بدورها تضعف مقاومتنا الأخلاقية. ولهذا فإن الاعتراف هو المطلب الضروري للتحرر. فهناك رجال بارزون يعانون بشدة بسبب إخفاقات سرية معينة، وكلما كانت هذه الإخفاقات عادية، كلما بدت أكثر إذلالاً: شرود الذهن، الكسل، الشهوة الجسدية، الإهمال، العصبية، العادة الشبابية، الميل، أو عادة معينة راسخة. كلما ارتفعت منزلة هؤلاء الأشخاص وكلما كانوا أكثر قوة، أو أكثر شهرة، أو أكثر احتراماً، كلما تصاعدت حدة خزيهم وامتناعهم عن الاعتراف بالإخفاق. هذه هي مأساة حياة الكثير من المعلمين، ورجال الصناعة، والقضاة، والأطباء، ورجال الكنيسة؛ وأحياناً ما يشعرون شعوراً مروعاً بالرياء فيما يواصلون ممارسة اعترافهم المبجل كما لو كانوا ممثلين في مسرحية. إن أبرز الناس تكون لديهم أفكارٌ مبتذلة يعجزون عن الاعتراف بها دون صراعٍ حاد للتغلب على مقاومة صورتهم عن أنفسهم. كما أن الأكثر شجاعة تنتابهم ذكريات الجُبن المريع؛ والأكثر دقة تحمرّ وجوههم عندما تُذكر بعض أعمالهم وأفكارهم.

سوف نفهم هذا بصورة أفضل إن تحولنا من العدّ المجرد إلى التفصيل الملموس. فالرجل النشط والمشغول جداً يعرف أنه في لحظات معينة يضيع وقته كالأطفال ويكون عاجزاً عن إيقاف نفسه عن عمل هذا، رغم المهانة التي يتعرض لها من جرّاء ذلك. امرأةٌ معينة عانت من اندفاع أمها تندفع هي لاكتشاف نفس الإخفاق في نفسها، وتشعر بالعجز عن السيطرة على موجات العصبية التي تغمرها فجأة - لدرجة أنها تجعلها تضرب طفلها. فتاةٌ اعتادت على السرقة ترتعب من كونها قد صارت ماهرة في سرقتها بصورة تلقائية، كما لو كانت السرقة لعبة لا يمكن مقاومتها، كما ترتعب

من كيف أن أفضل صديقاتها تُتحينَ لها فرصة عمل ذلك بسذاجة ودون شك فيها. رجلٌ ما يكون أميناً في العمل لدرجة الوسواس لا يمكنه أن يقاوم ارتكاب تلاعبات معينة في عائد ضريبة دخله، أو اختلاس جمارك مبالغ صغيرة، التي لن يشعر بخسارتها أبداً. رجلٌ آخر - دائماً ما يبدو أن لديه سيطرة كاملة على النفس - يكون على دراية بأنه عاجز تماماً عن مقاومة إغراء سيجارة، أو فطيرة، أو مجلة إباحية. وآخر يواجه صعوبات مالية رهيبة ودائماً ما يحثّ زوجته على التوفير، ومع ذلك فإنه لا يجرؤ على أن يعترف لها بأنه ينفق مصروفات معينة يعرف أنها حمقاء تماماً. وهو يتجنب حتى تدوين وحساب ذلك كي يخفيه عن نفسه. أو يقرض عن ضعف مبلغاً كبيراً لصديق لأنه يخاف أن يحكي له عن ظروفه المتعثرة، رغم أنه يعرف أن هذا القرض تصرف أحمق. إن عدم الانضباط في الإنفاق مصدر مستمر لمشاعر الضعف، كما أنه أحد الأعراض المستمرة بنفس المقدار. غالباً ما يجد المرء أن الاهتمام المفرط بالديون المتفاقمة يرتبط مع الحافز السخيف نحو الإسراف كتعويضٍ ناشئ عن الغرور.

وما يهين ويعذب الكثيرين أيضاً هو اكتشاف عدم استقرار مشاعرهم. فكلٌ منهم يقول: "إني أحسدك على إيمانك المؤكد الثابت؛ فأنا دائماً ما أتأرجح بين المرتفعات والمنخفضات!" في الحقيقة، نحن أيضاً كذلك، لأن إشارات الذهن والقلب هي في الواقع حركات. فإن لم تكن هناك حركة ما، فلن نلاحظ شيئاً. الإيمان نفسه عودة خالدة ومصيرية نحو الله، الذي نحيد عنه باستمرار. فالأمر ليس بمثابة تيار مباشر ليس له جهدٍ ساري؛ بل يشبه تياراً متردداً له مراحل متتالية من السالب والموجب. والتردد المشابه يجعل الاهتزاز ملائماً للحساسية العاطفية. فالاقتناع الحقيقي بالخطية مثلاً يكون نادراً وعابراً بصورة مطلقة. فهو يُختبر لثوانٍ معدودة؛ وأطول من ذلك أمر لا يمكن احتماله. وبعد ذلك لسنوات،

لبقية حياة المرء، فإن ذكرى ذلك سوف تمنح حياةً جديدة للحياة الروحية من وقتٍ إلى آخر. فهناك فرص كثيرة نميز فيها خطيتنا، بصورة فكرية أعلى أو أدنى؛ لكن مثل تلك الاستنارات لن تكون إلا كاريكاتيراً شاحباً للوميض الساطع للغاية للاستنارة حين نكون قد أدركنا فجأة تفاهتنا أمام جلال وقداسة الله.

وكما أن هناك بعض ساعات الحائط تكون بحاجة لملئها مرة في الأسبوع، بينما ساعات أخرى لا بدّ من ملئها يومياً، هكذا تكون أذهان وقلوب البشر مُعرَّضة لإيقاعات مختلفة، وهذا يمكنه أن يقود الشخص الأقل استقراراً إلى نقصٍ محبط في الثقة بنفسه.

ارتباطاً مع هذا الارتفاع المتغير، هناك قانونٌ نفسي دائماً ما يكون مصدراً للقلق بالنسبة للعصبيين. وأشير بذلك إلى تأثير الكبت الرجعي. فهم يعانون من همٍّ حاد - صراع، تهديد بالفشل مثلاً، أو خيانة زوجية. وبينما لا يزالون في مرحلة المفاجأة فإنهم يتماسكون. ولكن فيما بعد، حين يشعرون بالضياع والمهانة، فإنهم يأتون لاستشارتنا: "لا أفهم ذلك- فالآن فقط، حين يتضح كل شئ أستسلمُ تحت الضغط." إليك ما يحدث: طالما كان الصراع دائراً، مهما كان مؤلماً، فقد استدعى فيهم قوة غريزية للمقاومة، التي تفشل بمجرد أن يزول هدفها، وتتركهم محبطين.

في كل هذه المشكلات الأخلاقية، فإن أكثر ما يستنزف قوة المرء هو إدراكه بعدم صدقه مع نفسه. وهذا يكمن في أصل أخطر ردود الفعل الضعيفة. مثال ذلك، فنان موهوب يتوقف عن عمله الفني لأنه يخاف احتمال عدم قدرته على كسب معاشه، فيصير موظفاً بأحد البنوك أو بأحد المؤسسات العامة. هناك شعورٌ لا يمكن التعبير عنه بأنه قد خدع نفسه يظلّ ينتابه لبقية حياته، والنتيجة هي أن ردود أفعاله في كل الظروف تكون ضعيفة. نفس الحال ينطبق على حالة التلميذ اللامع الذي يترك دراسته في لحظة يأس، أو حالة العاشق

الذي لا يجرؤ على التصريح بحبه خوفاً من تعرّضه لخيبة الأمل، أو حالة المرأة التي تقدم نفسها لخطيبها قبل الزواج خوفاً من أن تفقد حبه.

وبالتالي نرى أنه من وجهة النظر الروحية أن الخوف الذي يكون بشرياً، تحديداً، دائماً ما يكون مرتبطاً بالشعور بالذنب. وقد تم التعبير عن هذا بصورة جيدة في الكتاب المقدس عندما يكشف لنا آدم وحواء حين يهربان من الله ويختبئان على الفور بعد عصيانهما[١١]. إن شعورنا الأساسي بالذنب، اللاشعوري وغير الدقيق، حتى عندما يتم كبته جزئياً، هو الذي يوقظ في قلوبنا خوفاً مجهولاً من الحيوانات، والذي ننقله للعناصر الخارجية. وبالتالي نُرعب أنفسنا بخيالاتٍ نكون قد صنعناها بأنفسنا - إلى حدٍ ما - كي نُشخِّص ونُمركِّز خوفاً لا يمكن تحديده ولا يمكن احتماله. وهو ينبع من قلوبنا، وهذا ما يجعله متشبثاً جداً- فإن فقدَ أحد الخيالات قدرته على ترويعنا، فإنه يُستبدل على الفور بخيالٍ آخر.

تظهر هذه الحقيقة بوضوح في علاج بعض حالات الخجل المُفرط. فمن الحقيقي أن الخجل يمكن أن تغلبه التدريبات المنهجية، كما هو مؤيد في العديد من الكتب ومعاهد علم النفس العملي. وليس المفروض التقليل من شأن هذه الدراسة. ولكن أحياناً ما يكون علينا أن نشهد- في حالات الخجل هذه - على خلاص مختلف تماماً: فهو خلاص مفاجئ - سريع، متعادل - ويحدث عندما يُقدِّم المريض اعترافاً كاملاً ملموساً بخطاياه. هذه الحالات نادرة في الواقع، وذلك لأن الاعتراف من هذا النوع نادر أيضاً. فلا أحد يملك شجاعة عمل ذلك ما لم ينقاد إليه من قِبل الله نفسه. لكن هذه الحالات مثيرة.

إحدى هذه الحالات هي حالة طفلة موهوبة متفردة تعطلت حياتها بسبب الخجل المطلق. أما الآن فقد اختبرت التجديد

١١ تكوين ٣: ٨

ووجدت الإيمان. لكن إيمانها ما زال غير مؤكد، وحياتها تمتاز بنوبات الحماس وفترات اليأس القانط. إنها تدرك بوضوح أن إيمانها حسِّيا بصورة أساسية، ولا يساعدها على التغلب على خجلها. يشجعها معلمها: "أنت تتمتعين بالإمكانات، فاملكي شجاعة الانطلاق. لا تكوني خجولة جداً."

بعد عدة لقاءات تأتيني يوماً ما لتراني وهي في حالة من التشويش. وفجأة، ذات مساء، فكرت في أشياء محددة في حياتها لم تتكلم عنها لأي إنسان، وكانت تشعر بالخجل الرهيب منها؛ وقد قررت أن تأتي وتخبرني عنها. خلال الأيام القليلة التالية أتلقى سلسلة خطابات منها. أولاً، هناك التعبير عن الفرح الغامر الذي ملأها عقب لقائنا الأخير، عندما أخبرتني حكايتها، وصلينا معاً، واستطعتُ أن أقدم لها ضمان أمانة الله على محو خطايا كل من يعترف بها له. ثم خطاب درامي آخر. عندما انطلقنا على طريق الاعتراف الحقيقي، كان الأمر وكأن سيلاً محتجزاً قد ثار فجأة، مُسبِّباً فيضاناً من الذكريات. هذا الخطاب يخبرني بأشياءٍ أخرى كانت قد تذكرتها - أشياء تشعر تجاهها حتى بخجلٍ أكبر. صراع رهيب يدور في أعماقها. وهذه المرة تشعر أنها متأكدة من أنها ستفقد احترامي، ومع ذلك لا يمكنها الانتظار للزيارة التالية حتى تخبرني عنها كلها.

في النهاية توّقف إيمانها عن أن يكون حسِّيا. فهو الآن مؤسس على اختبار لا يمكن أن يُمحى بسبب نعمة الله. فهو يخترق كيانها بأكمله، فيذوب خجلها.

بينما يمكننا دائماً أن نتأمل الإنسان من وجهة النظر الروحية، يمكننا أيضاً أن ننظر إليه من وجهة النظر التقنية والنفسية. لا تعارض في هذا؛ بل في الواقع ذلك يساعدنا على تجنب إصدار أحكام خاطئة والتوّصل لاستنتاجات ساذجة. من وجهة النظر الثانية تُشتق كل أنواع السلوك الغريبة التي تحدثتُ عنها من الصراعات الداخلية - كما أوضح

المحللون النفسيون. فعندما تتصادم قوتان متعارضتان في أعماقنا نشعر بالتقييد ونسقط في ردود أفعال ضعيفة. سوف أقدم هنا أمثلة قليلة لشرح هذا الملمح الهائل والمهم لموضوعنا.

يتلّقى الطفل مبادئه الأخلاقية من أبويه ومعلميه. فهو لا يملك خبرة كافية لتشكيل أحكامه الخاصة. كما أن البالغين حوله - الذين ينظر إليهم باعتبارهم كاملين، والذين يتظاهرون بذلك - يفرضون عليه قواعد كثيرة جداً حتى يقبل حتماً المبادئ كلها. والآن، فإن البند الأول من المبادئ قد يكون مشروعاً: "من الخطا أن تكذب." أما البند الثاني فقد يكون غير ملائم بالمرة: "من الخطأ أن يختلف رأيك عن رأي أبيك." أما البند الثالث فقد يكون أصلياً: "احفظ قلبك طاهراً." بينما البند الرابع زائفاً: "الغريزة الجنسية شريرة ومخزية." وبالتالي يتبنى الطفل مجموعة مركبة من القواعد، بعضها يتوافق مع الأخلاقية الواضحة بينما الأخرى تكون مجرد تعبير عن المشكلات الشخصية لمن يقوم بتربيته. وفيما بعد سيكون عليه أن يصنف كل هذه القواعد، لكن القواعد الخاطئة والصائبة ستكون قد صارت متشابكة معاً في ذهنه لدرجة أن عملية التصنيف ستكون صعبة. فحتى إن رفض بكل أمانة قاعدة خاطئة، فسوف يشعر ببعض وخزات الضمير، وينتابه شعورٌ زائف بالذنب، يبدو وكأنه شعوراً حقيقياً بصورة غريبة. ومن تلك اللحظة سوف يتمزق بين الاقتناع الذي اكتسبه لما هو صواب والمقاومة الخاطئة التي انغرست في ذهنه من جانب تربيته. يطلق المحللون النفسيون على هذه المبادئ الأخلاقية الخاطئة اسم "الأنا الأعلى *super ego*"، كما أن د. أوديبه[12] يستنكر حقيقة أن أهميتها ما زالت مُعرَّضة للتقليل من شأنها اليوم.

---

12 Charles Odier, *Les deux sources, consciente et inconsciente, de la vie morale*, La Baconniere, Neuchatel, 1943

إحدى مريضاتي دائما ما تكدس فوق نفسها تأنيبات وهي لا تُصدِّق في قلبها أنها تأنيبات منصفة. فتكرر انتقادات اعتادت أمها أن تُوَّجهها إليها، بينما هي تعرف أنها انتقادات ظالمة. وتكون النتيجة هي الصدَ الذي يتركها عاجزة. فإن كانت تعتقد أن هذه الانتقادات عادلة، لكانت قد خضعت لها؛ وإن رفضتها، فلن تعملها فيما بعد. مريضة أخرى من مريضاتي تقول لي: "مشكلتي هي أنني قابلة للإيحاء لكني لستُ قابلة للتأثير." لقد عبَّرت عن هذا بصورة غريبة، لكنها تعبِّر جيداً عن هذا الشعور بالانفصال الداخلي: حيث تشعر بقوة الإيحاء عليها، ومع ذلك لا يمكنها الخضوع له دون أن تؤذي شعورها الغريزي بأن لديها حق تقرير مصيرها. ولهذا السبب يُنظر إلى القابلية للإيحاء بصورة عامة كعلامة ضعف. فهي علامة وسبب، وهذا يرجع للصراع الداخلي الذي تثيره.

امرأة أخرى حققت نجاحاً كرئيسة لمشروع صناعي. تنتقد التحيز الاجتماعي الذي يظن أن هذا المنصب ليس هو المكان الملائم لامرأة. فتؤكد لي برضا على المتعة التي تشعر بها في تدبير بيتها، كما لو كانت قد وجدت أنه من الضروري تبرير نفسها في وجه انتقادات الرأي العام. لكنها سرعان ما تدرك أن كلاً من انتقاداتها وتأكيداتها هي دفاع ضد صوتٍ ما في قلبها يردد صدى التحيز الاجتماعي وانتقادات جيرانها.

امرأة أخرى كان قد ربّاها أبٌ متسلط في بيئة نظامية أرستقراطية. لم تذهب قط إلى المدرسة، ولم تتح لها أيَّة فرصة للاختلاط بأطفال القرية. وحتى الألعاب التي كانت تلعبها كانت تنظمها مربيتها. عندما كانت طفلة كان كل شئ على ما يرام: فلم يحدث لها قط أن تكون الأمور مختلفة؛ حيث لم يكن هناك صراعٌ داخلي. أما الآن فإن عصبيتها المتطرفة إنما تكشف الصراع الدائر بين الإذعان الذي زرعته فيها هذه التربية وبين الحاجة للاستقلال الأخلاقي

الذي تشعر به، ولكن دون أن تجرؤ على طاعته. فإن كانت- مثل أختها - قادرة على الخضوع بلا تحفظ للتوافق مع نمط الأسرة، لما صارت مريضة. لكن طبيعتها مستقلة للغاية بالنسبة لها لدرجة أنها تعترض داخلياً على المظالم رغم أنها كانت عاجزة عن الدفاع عن نفسها ضدها.

وهكذا يلوم الضعفاء أنفسهم لأنهم ليسوا أنفسهم، ولأنهم يستسلمون للأقوياء حتى عندما يكونون في الجانب الصحيح، ولأنهم يخبئون بخجل سماتهم ومواهبهم الجيدة وينكرونها حتى عندما يشير إليها الآخرون، ولأنهم يبدون منهزمين وعديمي الفائدة عندما يعرفون دائماً أنهم يملكون إمكانات كامنة. من المدهش دائماً اكتشاف كم يمكن أن يُظهَر أمثال هؤلاء شجاعتهم وقت الطوارئ. فهم بأنفسهم على دراية بهذه القوة الكامنة ويؤنبون أنفسهم لإخفائها في الحياة الطبيعية. هناك صراعٌ داخلي بين ردود أفعالهم الضعيفة والقوة التي يخفونها، وهذا الصراع يُصعِّد من ميلهم لردود الأفعال الضعيفة. إليك امرأة أخرى تُظهَر نفسها قوية في علاقاتها العملية، لكنها تُظهَر نفسها ضعيفة في مجال الحب. ففي صراع كسب المعيشة أثبتت طاقة هائلة، ومع ذلك فإنها عاجزة عن قطع علاقة غرامية لا تُسبِّب لها أي سعادة وسوف تمنعها على الأرجح من العثور على السعادة أبداً.

رجل يقدم للعالم صورة "الولد الطيب الصغير". أكتشف أنه يتمتع بروح المغامر، التي لم تجرؤ قط على تأكيد نفسها، وأنه يتمتع باشتياقات هائلة لتحدي التقاليد الاجتماعية. رجلٌ آخر يبدو متردداً، هادئاً، وخاضعاً بصورة متطرفة. ولكنه في الواقع مناضلاً. فبداخله يُجري حُججاً عاصفة مع كل من يدوسون عليه، ولكنه يبقى صامتاً خوفاً من أن يبدو عنيفاً جداً إنْ كشف عن مشاعره. امرأة تبدو خجولة، لكنها في الواقع تسيطر على الطموحات الجريئة التي كانت مكبوتة في طفولتها. ومن هنا يلاحظ المرء نوعاً من

انقلاب الشخصية يُذكرنا بظواهر بيولوجية أخرى كثيرة تردّ على قانون إما الكل أو لا شئ. فالطفل العنيد يبدو غير قادر ببساطة على تلطيف جراءته بقدرٍ من الفطنة. ولكن، حيث يتأثر بقيود تربيته، ينتقل فجأةً للجانب الآخر من الجُبن. لكن كلا الميلين - الميل الطبيعي المكبوت والميل المُتصنَّعْ- يبقيان في صراع.

هذه هي طبيعتنا البشرية، مركبة وقابلة للكسر بصورة لا نهائية، ومُعرَّضة لكل أنواع الإيحاءات الخاطئة، ومُحاصرة بمخاوف لا حصر لها، وممزقة بصراعاتٍ داخلية لا تتوقف. بالطبع هناك نفوس ساذجة ليست على دراية بكل ما يدور في أنفسهم، وهناك آخرون أكثر تمييزاً ويكونون قادرين على التأمل إلى حدٍ ما في العواصف الثائرة في أعماقهم. لكن لاشعور الفئة الأولى يكون له مظهر أحد أنواع الدفاع الغريزي ضد الخوف. وبالتالي، ليس هناك - كما هو معتقد عموماً - نوعان من البشر: من لديهم صراعات داخلية ومن ليست لديهم. فإن كان لا بدّ من عمل مقارنة بين البشر، تكون هكذا: البعض يُخفون مخاوفهم، والبعض يعترفون بها. ومع ذلك، أن نميز مخاوفنا ونواجهها عياناً أمرٌ مرعبٌ؛ لكنه الطريق الوحيد للتماسك ضدها. يذكر ماسون-أورسل: "بعض الناس لا يخافون شيئاً ويستسلمون لكل شئ. وبعض الناس يخافون كل شئ ولا يستسلمون لشئ." كما أن مقولة كونديه العظيمة معروفة على نطاقٍ واسع: "لا بدّ أن تخاف العدو من بُعد لئلا تخافه وهو أمامك."

إن ردود الفعل القوية - بعنفها وكبريائها - تؤدي بالتأكيد إلى الهزيمة أكثر مما يؤدي تمييز المرء لضعفه. ومثل هذا التمييز هو العنصر الجوهري لإخلاص المرء تجاه نفسه، وللنمو الروحي، ولكل عمل خلاّق.

اذكر أمسية قضيتها مع بعض الأصدقاء كان بينهم اثنان من القُسُس. فاعترف أحدهما - وقد كان أكثر شعبية وطلباً كواعظ - أنه كان يعاني من خوفٍ رهيب من الوعظ.

وأخبرنا عن كيف كان يقضي ساعة بعد ساعة من القلق خلال الأسبوع وهو يُحضّر العظة ثم يغير خطته تماماً يوم السبت. كان يصعد إلى المنبر وهو يرتعش، وكلما كان ينتهي كان دائماً ما يشعر كما لو كان قد خان دعوته. فتدّخل رفيقه قائلاً بأن الوعظ لم يكن يُقلقه قط. قال: "في أمسيةِ يوم السبت، يأتي النص الذي سألقيه بصورة طبيعية تماماً إلى ذهني، وأذهب إلى الفراش بلا قلق. وعندما أعتلي المنبر يبدو أن الكلمات تأتي من تلقاء نفسها." ثم أضاف: "لا، الشئ المُحبط حقاً هو أن تضطر للوعظ أمام مقاعد خالية. فالشعب يعمل واجبه. على الكنيسة أن تتخذ موقفاً قوياً وتصرّ على حضور العبادة العامة."

لا عمل يكون مثمراً بدون الخوف. ولا ممثل جيد لا يتصارع مع رهبة خشبة المسرح. ولا محاضر جدير بالاستماع إليه لا يرتعش. لستُ خجولاً من الاعتراف بالخوف الذي أكتب به هذا الكتاب، والذي أعرف أنه خوفٌ حتمي. فالرغبة، والخوف، والحزن - كما أشار القديس أغسطينوس قد ينبعا من حب الخير وعمل الخير؛ فهما ليسا رذائل في حدّ ذاتها. كتب دوبوا: "الخوف في حدود معينة عاطفة مفيدة بصورة واضحة."[١٣]

أن نرفض الفكرة المثالية لحياة بلا خوف، وأن نقبل حالتنا البشرية، المثقلة بالخوف، هذا ليس معناه الاستسلام. بل أن نقبل الخوف كبركة من الله تلعب دوراً في قصده من أجل البشرية.

الخوف شائع على نطاقٍ كوني لأنه غريزة، فهو أداة غريزة البقاء. وله أهمية مصيرية. فهو مصدر كل تقدم. كما أنه القوة المُحرّكة لكل الحضارات؛ والقوة المُحرّكة للعلم، الذي يسعى لاختراق أسرار الطبيعة المذهلة؛ والقوة المُحرّكة للفلسفة والدين، اللذين مسعاهما هو الحق؛ والقوة المُحرّكة للعمل - عمل الزراعة وعمل الصناعة - الذي

13 Op. cit, p. 149

يجاهد به البشر ضد عدم الشعور بالأمان المادي؛ والقوة المُحرّكة للمجتمع - التعاون الاجتماعي الذي به يوحدون قوتهم وينسون ما يفصل بينهم. ويظهر هذا بوضوح عندما تدرك دولة مُهدَّدة بالخطر من الخارج قيمة الوحدة والسلام الاجتماعي الذي كانت دائماً ما تتهرّب منه أثناء فترات السلم. إن الخوف من كل ما هو جديد هو الذي يمنح الحياة الشخصية والحياة الاجتماعية استقرارها والإطار العام للعادات الذي بدونه لا تبقى إلا الفوضى. كما أن الخوف- لحسن الحظ! - هو الذي يمنع البشر من الإنسياق الأعمى لرغباتهم، حيث يكونون قد تعلموا عواقبها المدمرة بالاختبار.

قلتُ للتوّ بأن لا أحد يمكنه أن يحب دون اختبار الخوف الغامض الذي يثيره الحب. يخبرني مريض عن أحد أحلامه: كان في قارب، ولكن كلما كان يقترب من الشاطئ كان يمنعه وحش بري يتهدده عن الرسوّ. وفي المحاولة الثالثة يقفز على الشاطئ، يتصارع مع الوحش ويطرحه أرضاً. فيدرك فجأة أن ما يحتضنه امرأة بارعة الجمال. هذه هي الخبرة المرموز إليها في كل تلك الأساطير، حيث القصر الخيالي تحرسه التنانين[14]. الحب لن يُعد حباً أبداً إن لم يشمل الخوف والانتصار على ذلك الخوف. كما أن كل العاطفة الشعرية مشتقة من صدى هذه المخاوف التي هي ثمن الحب والجمال.

ولكن لدينا ما هو أكثر. فالخوف أيضاً هو الباب الضيق الذي يتحدث عنه المسيح، والذي لا يمكننا أن نجد الله بعيداً عنه. فالنعمة موعودة لمن يميز ضعفه، وليس لمن يفتخر بقوته. كما أن الكتاب المقدس - بمعرفته الواقعية للقلب البشري - يكرر كلمات "لا تخف" ٣٦٥ مرة. فهو يتحدث عن "مخافة الله" بصفتها بداءة الحكمة. كما أن المسيح -

14 Leia, *Le symbolisme des contes de fées*, Editions du Mont Blanc, Geneva, 1943

بدرايته النفسية - يعرف أنه لا حياة بلا خوف. فلم يكن هو نفسه معفياً منه، وهذا ما يشير إليه ويزرد[15]: "صار عرقه كقطرات دم." إنه يحثنا على طرد المخاوف الضارة في سبيل خوف أكثر إثماراً: "لاَ تَخَافُوا مِنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ الْجَسَدَ وَلكِنَّ النَّفْسَ لاَ يَقْدِرُونَ أَنْ يَقْتُلُوهَا بَلْ خَافُوا بِالْحَرِيِّ مِنَ الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يُهْلِكَ النَّفْسَ وَالْجَسَدَ كِلَيْهِمَا فِي جَهَنَّمَ."[16]

وبالتالي، فإن الخوف إما أن يكون مفيداً أو ضاراً، على حسب ما إذا كان يلعب في حياتنا الدور المعين له في قصد الله أم لا. المنظور الكتابي لا يوحي أبداً بأننا يجب أن ننتقل من معسكر الضعفاء إلى معسكر الأقوياء، بل أنه يجب أن نميز ضعفنا. فإن وجدنا أنه من الصعوبة أن نعترف بمخاوفنا، فهذا يعود إلى أننا نريد دائماً أن نبدو أقوياء.

نحن نخجل من خوفنا، وهذا الخجل يدعم الخوف ويجعله ضاراً. تكتب لي إحدى مريضاتي - وهي تعاني من ورم بالثدي - عن خوفها من السرطان: "المسيحي الحقيقي لا بدّ ألا يخاف أبداً." لا، يا سيدتي، فالمسيحي ليس مُستثنى من الخوف، لكنه يقدم مخاوفه إلى الله. الإيمان لا يكبت الخوف؛ لكنه يسمح للمرء بأن يتقدم رغماً عنه. عندما عمل صديقي الإنجليزي قائمة بمخاوفه، كان هذا كي يواجهها - بنعمة الله. ففي حضور الله نهجر اليوتوبيا المثالية التي تتصور حياة بلا خوف، وهي مصدر الكثير جداً من صور الكبت والكثير جداً من الأكاذيب. فمع الله يمكننا أن نواجه الخوف عياناً ونعترف به له، حتى يمكنه أن يُثمر ما هو إلهي فيه.

لكن هذا الطريق نفسه يحرسه تنين الخوف. فكل الناس يخافون الله. إفتح الكتاب المقدس وسترى أن الخوف هو ردّ فعلهم الأول عندما يناديهم الله. إنهم خائفون من الله لأنهم يشعرون بالذنب ولأنهم يخافون التضحيات التي قد يطلبها منهم.

---

15 Op. cit

١٦ متى ١٠: ٢٨

غالباً ما أعتقد أن دعوتي - في مجال علم النفس مثلما في عالم الروح - ما هي إلا إقصاء للخوف. فالأقوياء والضعفاء- كل منهم حسب دوره - يأتون ويعترفون لي بالمخاوف التي تعترض طريقهم وتزيف ردود أفعالهم. على المستوى البشري، ليست لديَّ إجابة. فالخوف ليس خاضعاً للإرادة. يمكننا أن نكبته، وليس أن نتخلص منه. يمكننا التفاوض معه، مقيدين حياتنا لئلا نُعرِّض أنفسنا للخوف. لكن هذا ليس انتصاراً. ولا بدّ أن أكون أميناً: فكل هذه المخاوف تحاصرني أنا أيضاً.

ومع ذلك، إن تمكنتُ من تقديم أية مساعدة للآخرين، فهذا يحدث عندما لا أعد أبدو بالنسبة لهم وكأني من طراز السوبرمان الذي لا يمكن الوصول إليه والذي لا يتشارك صراعاتهم، وحينها يشعرون بقربي إليهم. وهذا لأني تعلمت شخصياً تمييز مخاوفي ولم أعد أخدع نفسي بوهم إمكانية الهرب منها. على العكس، فإن اختباري هو أنه إن واجهنا مخاوفنا علناً، وإن قدمناها لله بالإيمان، يمكننا أن نغلبها. وهذا ليس أمراً سهلاً. فهنا كالمعركة، فليس الأقوى هو من يظن نفسه قوياً ويستهين بقوة العدو.

أتذكر إحدى مريضاتي أخبرتني في لقاءاتنا المبكرة أنها كانت على دراية بالدور المسيطر الذي كان يلعبه الخوف في حياتها وفي مرضها. فصلّينا معاً، وشعرتُ بالارتياح. وفي تفاؤل، آمنت أن المشكلة قد تمّ حلها. وبعد سنوات، بعدما فشلت كل جهودنا العلاجية، صرّحت أنها شعرت حينها أنني كنتُ راضياً بسهولة كبيرة. فقد وجدت نفسها وحيدة مع مخاوفها، التي لم تعد تجرؤ على الاعتراف بها لأني كنت أظن أنه تم التغلب عليها. وبالتالي، فإن ما لا بدّ أن نعمله هو أن نقبل بصورة واقعية الموقف الذي سُرَّ الله أن يضعنا فيه كبشر، وذلك حتى نلجأ إليه. ويوماً فيوم لا بدّ أن نتخلص مما هو خاطئ في خوفنا، ولكن أن نحفظ حافزه طالما أن الله نفسه قد وضعه في قلوبنا كي يجعلنا على دراية بضآلتنا.

القسم الثاني

ردود الفعل

٤

ردود الفعل الضعيفة

يمكننا أن ندرس الآن بالتفصيل ردود الفعل بنوعيها - الضعيفة والقوية - التي يُظهَرها الناس من خلالها شعورهم العام بالقلق.

ردود الفعل الضعيفة هي ردود أفعال التثبيط؛ أما ردود الفعل القوية فهي ردود أفعال الإثارة.

من بين ردود الفعل الضعيفة الاكتئاب، واليأس، والحزن، ورثاء الذات، وتبكيت الذات، والسأم من الحياة، والنقد المفرط للذات، والفزع، والهروب، والانسحاب والتقوقع داخل الذات، والصمت، والتبلد.

ومن بين ردود الفعل القوية الانتشاء، والنشاط، والمرح، والتنازل، والرضى بالذات، والتفاؤل، والنقد المفرط للآخرين، والاندفاع، والعدوانية، والابتهاج، وعفوية اللسان، والقابلية للإثارة.

يمكنني أن أستعرض بالتفصيل هاتين القائمتين؛ لكن ردود الفعل الضعيفة جميعها ترتبط بالهروب والجمود.

لقد تحدثت عن الصور العديدة للهروب في كتابي *Médecine de la personne*، لذلك سأقتصر هنا على ذكر

الصور المتعددة للهروب التى تتمثل في تصرفاتنا اليومية البسيطة التي تُعبّر عن الجُبن: تغيير موضوع الحديث بمهارة عندما يهددنا الكلام بالارتباك أو بإثارة جدل كريه؛ اكتشاف أن هناك شيئاً عاجلاً نحتاج أن نعمله للهروب من مهمة أقل إلحاحاً لكنها غير مستحبة؛ التحجج بعدم قدرتنا أو جهلنا عندما يكون علينا أن نصرح برأينا؛ اللجوء للصمت الماكر، في اتضاع، أو وضع نظريات، أو الدخول في حشو كلام بلا نهاية؛ استدعاء وجهة نظر شخص تدعم سلطته موقفنا. إن سبب ضحالة الكثير من الحوارات هو أن المتحدثين يهربون جميعاً من بعضهم البعض. فهم يخبئون نفوسهم الضعيفة وراء ستار من التعليقات المعتادة، أو المجاملات المهذبة، أو الطرائف، أو المبالغات المصطنعة.

إن الحوار الأمين والصريح تماماً - الخالي من الحيلة، والدهاء، والمراوغة، والاحتيال أمرٌ يصعب الحفاظ عليه. فبمجرد أن يصير خطيراً نلِف أنفسنا كالسفن الحربية بستار من الدخان. وبقدر قليل من الخبرة، يمكننا أن نلمح كل هذه العلامات الدقيقة لهذه الحركات الدائمة للهروب، حتى مع من يأتون إلينا لجلسات المشورة بالنية الخالصة لكشف أنفسهم لنا بصفاتهم الحقيقية. ولكن من الأقيم لنا أن نرى هذه الحركات تعمل في أنفسنا. غالباً ما يسألني زملائي: "كيف تتدبر التحدث بمثل هذه الحميمية مع كل شخص؟" أعتقد أن الإجابة هي ألا نسمح لأنفسنا أبداً بالتورط في أي من هذه المحاولات للمراوغة، وألا ننحرف عن المسارً عندما يُظهِر الحديث علامات خيبة الأمل، وأن نكون على استعداد في كل الأوقات لمواجهة أية مشكلة، أي سؤال، مهما كان غير لبق.

من أعظم فضائل تخصيص "وقت هادئ" للصلاة هو أنه يساعدنا على التغلب على هذه الصعوبات. فعندما أضع نفسي أمام الله مع زوجتي أو مع صديق، وأدوِّن كل أفكاري في صمت، أجدني مدفوعاً غالباً لكتابة الأشياء التي لا أحب

التحدث عنها. ولهذا السبب يخاف كثيرون من التعبير عن صلواتهم بصوتٍ مسموع. بالأمس كنتُ أتجاذب أطراف الحديث مع أحد مرضاي، وهو شخص محبوب جداً وقد سبق وتحدثنا بالعديد من الحوارات الحميمة الصريحة. ولكن عندما اقترحتُ عليه أن نصلي معاً، أخبرني عمّا كان يمنعه عن هذا. قال: "أعلمُ جيداً أنه إن حاولتُ الصلاة، فهناك أفكارٌ معينة سوف تأتي إلى ذهني تجعلني خائفاً!" وللوقت بدا لي أن ألفتنا قد تعمقت عشرة أضعاف. لقد كان الأمر رائعاً، إلا أننا شعرنا معاً وكأننا دخلنا قُدْساً أعمق.

غالباً ما كان يحدث أيضاً أنني كنت أقول لنفسي: "الآن آن أوان الصلاة معاً"، ثم ألجأ لمواصلة الحوار بلا جدوى بدلاً من اقتراح الصلاة. وحتى في التأمل الشخصي يكون من الصعب أن يبقى المرء أميناً تماماً حتى يطرد أي فكرٍ لأي سبب أو لأنه في غير وقته. ومن الأسهل جداً أن يزهو بنفسه بأن يدون مفاهيم نبيلة قليلة لكنها عادية عن أن يكتب ببساطة ما يصل تلقائياً إلى ذهنه.

الصورة الأخرى لردّ الفعل الضعيف هي حالة الجمود التي يسميها الأطباء والمحللون النفسيون التثبيط. والكلمة الألمانية غير القابلة للترجمة Hemmung تُعبّر بصورة مثيرة للإعجاب عن هذا الشعور بالمنع من جانب رباط غريب غير منظور يسبب الشلل والتحجر.

خُذ حالة فتاة عاطفية جداً عانت كثيراً من عدوانية أبويها. فأبوها لم يكن يوجه لها إلا الشكوى وإيماءات عصبية. وفي أحد الأيام، عندما كانت صغيرة جداً، أظهرَ الأب فجأةً حَلية وضعها أمامها على المنضدة. وكانت تمثل شكل فيل صغير من الزجاج. قال: "أنظري ماذا أحضرت لكِ!" ومن فرط اندهاشها، وسعادتها، وتأثرها لقبول مثل هذه الهدية غير المتوقعة، تسمرّت الطفلة في مكانها دون أن تُبدي أدنى تعبير عن مشاعرها. بدا لها الفيل الصغير متلألئاً مثل نجم بيت لحم؛ فلم تستطع تحديد هوية الشيء البراق. ولم تستطع

حتى أن تتحرك أو تنطق. وبعدها قامت كالروبوت ودخلت الغرفة الأخرى، وعندما رجعت وجدت الفيل الصغير معلقاً على رقبة أختها وهو يتلألأ. فشرح أبوها هذا بهدوء: "حيث أنك لا تريديه، فإني أعطيه لأختك." هذا هو الأمر الدرامي بخصوص ردود الفعل الضعيفة: أنها تقود الآخرين للوقوع في الخطأ. فالأشخاص مُفرطو العواطف مُعرَّضون لإساءة الفهم. فهذه الفتاة تأثرت جداً لدرجة أنها بدت وكأن لسانها قد انعقد، وتمَّ اعتبار ذهولها لامبالاة. وإساءة الفهم هذه - التي حرمتها من هديتها الرائعة - ضايقتها بشدة لدرجة أنها ظلَّت غير قادرة على شرح ما حدث لتوضيح الأمر.

هذه النقطة الأخيرة نقطة بسيطة، لكني أؤكد عليها لأهمية الدور الحيوي الذي تلعبه في الاضطراب الداخلي الذي يصيب الأشخاص العاطفيين. خذ مثلاً حالة مريضة أخرى من مريضاتي - امرأة ذكية لدرجة أنها على دراية بالعقد النفسية التي تتعرّض لها. وقد حدث ذات مرة أن سببّت لها امرأة معينة ضرراً بالغاً. والآن لا يمكنها أن تتذكرها دون أن ينتابها شعورٌ حاد بالضَيق. تزور بعض الأصدقاء ويتصادف أن يتردد اسم هذه المرأة في الحوار. وهنا تشعر مريضتنا على الفور بوجوب الانصراف. تتهيأ للانصراف؛ فيعترض أصدقاؤها؛ فتقول إن عاطفتها تمنعها عن التوضيح، لكن اضطرابها يكون مكتملاً منذ ذلك الحين. فبالإضافة للضيق الذي يثيره موضوع الحديث، هناك نوعٌ من الاستياء تجاه نفسها لشعورها بعجزها عن التعبير عن نفسها والانصراف.

مصدر آخر لإساءة الفهم هو تميز الضَيق العاطفي بالإلحاح. فالشخص الضعيف غير قادر على التخلص سريعاً من تأثيرات أي إزعاج، أو إيحاء غير مقبول، أو فشل. فهو كالتلميذ الذي يكون عليه حلّ مسألة الحساب الخاصة به على سبورة ما زالت مليئة بمعادلات زملائه، أو كالمصور الذي نسى أن يضبط الفيلم حتى اختلطت

الصور مع بعضها البعض. الآخرون لا يفهمونه؛ فهم يظنون أن ضيقته قد انتهت وتم التعامل معها؛ فيعتبرون تبلده عدم انتباه أو لامبالاة. وتكمن المشكلة في أنه حين يشعر الشخص الضعيف بأنه غير مفهوم هكذا، فإنه يجد من الأصعب استعادة اتزانه.

وهناك ميكانيزم مشابه غالباً ما يعمل في حالة التردد. فالضعيف الذي يُواجه باختيار ما بين بدائل يحتاج وقتاً وسكوناً أكثر من الآخرين لاتخاذ قراره. فحيث أنهم يعرفون ميلهم للعاطفة يخافون أن يُدفعوا دفعاً للمراوغة أو أن يتخذ آخرون القرار نيابةً عنهم، وهذا الخوف يجعل الأمور أسوأ. يقولون إنهم لا يعرفون أي مسارٍ يختارون - لكن هذا ليس حقيقياً: فاختيارهم حاضر فعلاً داخل قلوبهم. أما التعبير عن الاختيار فهو المتعطل. وعليه، يظهر ذلك الضَيق من أنفسهم الذي يشغل أذهانهم باستثناء أي شئ آخر، لدرجة أنه لا يمكنهم التفكير، وبالتالي لا يمكنهم صياغة قرار أو استخدام قوة إرادتهم.

يتحدث الكثير من الحساسين عن اهتياج داخلي بمجرد أن تنشط ردود أفعالهم الضعيفة، وما يعقب هذا من صور إساءة فهم، وهذا الاهتياج بدوره يغذيه شعور الشخص بأنه غير مفهوم. ويكون الأمر بمثابة مصباح تزداد شدة ضوئه بإضافة عاكس له. هناك انسداد يحدث، وهو يرجع لانعكاس عاطفة الشخص على نفسه؛ ويكون ما يمنعه هو تماماً تلك العصبية الناجمة لعدم قدرته على صور الحدس الصائبة، والأحكام السليمة، والاختيارات الموجودة داخل قلبه، والاختيارات التي يظن أنه يحتاجها. فيكون كرجل في عجلة من أمره أضاع مفتاح الجراج الذي تركن فيه سيارته. فتعجله الشديد يعطله عن العثور على المفتاح الضائع؛ وهذا يحرمه من السيارة التي يمكنه بها أن يعوض الوقت الضائع.

تلك السيارة في الجراج تشبه شعور الشخص بالعجز

نتيجة تعطل قواه. وهذا يعطي انطباعاً بالتعب، ويبين اقتناع الشخص الحساس بأنه ضعيف.

التعب هو العلامة المميزة لحالة الاضطراب العصبي[1]، وكما أشار د. دوبوا[2]، فإنه العرَض الأول الذي يشكو منه جميع هؤلاء المرضى. وهو في حدّ ذاته ردّ الفعل الضعيف دون منازع، أي خسوف قوة الشخص عندما يعترضه عائق لا يُقهر. لكن هذا التثبيط نفسه هو في حدّ ذاته سبب العديد من ردود الفعل الضعيفة اللاحقة. ومن هنا فإن المشكلة أكثر تعقيداً مما يتصور المريض عندما يظن أن التعب أمرٌ سلبي فحسب، مجرد نقص في الطاقة.

***

يمكننا بالممارسة العادية أن نميز أربعة أسباب رئيسية للشعور بالتعب. ومع ذلك، لا بدّ أن نحذر من التقسيم بصورة منظمة تماماً لأن هذه الأسباب غالباً ما تتداخل.

أولاً الإفراط في العمل. أعتقد أن هذا هو أندر سبب. وهو يرجع أحياناً لعوامل خارجية، أو سلسلة ظروف- المرض، والفقر، والظلم الاجتماعي الذي يفرض ساعات طويلة من العمل، أو لا يسمح بإجازات مناسبة. لكنه غالباً ما يرجع لأسلوب حياة غير منظم يمكن للمرء إصلاحه إن أراد. لا بدّ على المرء أن يكيف حياته تبعاً لطباعه. فالذين لا ينعمون بطاقة غير محدودة غالباً ما يفرطون في العمل خوفاً من اعتبارهم كسالى أو اتهامهم بتدليل أنفسهم.

كثيرون يفتخرون افتخاراً خاصاً بعدم الاعتراف أبداً بشعورهم بالتعب. لكن المسيح نفسه اختبر الشعور بالتعب وكان يستريح. كثيرون أيضاً يخجلون من المرض. أتذكر شابة كانت تعاني من مرض بالقلب. فأخبرها أصدقاؤها-

[1] nervous prostration - اضطراب عاطفي يترك المرء مرهقاً وعاجزاً عن العمل - [المُترجم]

2 Op. cit., p. 123

الذين كانوا يتفجرون بالصحة - ألا تخاف بذل طاقتها هكذا. وقد كان انتصاراً أدبياً حقيقياً أن تجرؤ على استخدام المصعد عندما كانوا هناك.

يخجل من يعانون من شكاوى عصبية وظيفية بشكل خاص من مرضهم. فإن سأل صديق عن صحتهم يشعرون أن سؤاله المتعاطف إهانة. وهذا الخجل الزائف يجعل حالتهم أسوأ، وهذا بدوره يزيد من خجلهم لأنهم لا يعرفون ما يقولونه للصديق حين يُبدي دهشته بعدم تحسنهم بعد.

سببٌ آخر للإفراط في العمل هو تباطؤنا بترك نشاط ما نقدِّر قيمته، أو تخييب آمال إنسانٍ نحبه. دائماً ما أجد أنه من الصعب أن أرفض طلباً مُلِحاً بإلقاء محاضرة، أو أن أخبر مريضاً أني لا يمكن أن أراه قبل تحديد موعد معين. إن كنت دائماً في قمة الانشغال، فكيف لي أن أتكلم عن السلام لمن يبحثون عنه؟ وهكذا يرى المرء رجال دين يعظون عن حفظ يوم الأحد كيوم الراحة بينما هم يعملون لساعات متأخرة من الليل سبعة أيام أسبوعياً وليس لديهم أي وقتٍ يكرسونه لحياتهم الداخلية؛ أو الساسة الذين يرهقون أنفسهم بالحضور الشرفي لكل الاحتفالات التي لا داعي لها غير تاركين لأنفسهم أي وقت فراغ للتفكير في المشكلات الأساسية للشعب.

من الطبيعي أن يكون الطمع أو القلق تجاه الماديات سبباً شائعاً للعمل المفرط. فأحد أهم وأصعب مهام الطبيب هي تنظيم أنشطة مرضاه بما يتوافق وقدراتهم الجسمية. فتصادف المرء مفاجآت كثيرة: فهناك أشخاص يبدون ضعفاء فيما يكون لديهم مخزون غير متوقع يعتمدون عليه، بينما هناك عمالقة ليست لديهم أية قُوى للمقاومة على الإطلاق.

ولكن إن لم يكن العمل المفرط، فإن التعب غالباً ما يكون نتيجة لسوء التنظيم. كنت أعاني في وقتٍ ما من التعب الشديد نتيجة الاستشارات المجانية التي اعتدتُ على تقديمها

ثلاث مرات أسبوعياً في فترة الظهيرة، لأن الأمر كان قد أقلقني لتداخلها مع المواعيد التي نظمتها للمتابعة، وقد وكان هذا ضاراً لكلٍ من الاستشارات المجانية والمواعيد الخاصة. وكان الحل البسيط تماماً - والذي توّصلنا إليه فقط عندما صلّينا من أجل هذا الأمر - هو تخصيص يوم كامل أسبوعياً للاستشارات المجانية للتمكن من العمل بسلام في المواعيد الخاصة بقية الأيام.

من الصعب خصوصاً تنظيم حياة المتماثلين للشفاء. فبعد المرض الجسمي أو الانهيار العصبي، يكون من الضروري أن تحدث عودة بطيئة وتدريجية للنشاط. فتصادف المرء عدة عقبات: عدم الصبر من جانب المتماثل للشفاء، الذي يريد أن يجري قبل أن يمشي أو أن يعمل حالاً ما يرغبه؛ ونقص الثقة من جانبه، أو الإحباط لشعوره السريع بمحدوديته؛ أو نقص الفهم من جانب أصحاب العمل الذين لا يحبون اتفاقات نصف الوقت، أو الذين يعَدون بالرعاية الخاصة التي لا تستمر ثلاثة أيام.

آن أوان قانون التدريب، الذي هو بسيط جداً لكنه مفهوم على نطاق ضيق جداً. فالأطباء الذين كانوا مهتمين بالتخطيط وإدارة التدريب البدني في قواتنا المسلحة أثناء الحرب أظهروا لنا بمنتهى الوضوح أن الراحة مهمة كالتدريب[3]. فالرياضي لا يمكنه الوصول إلى قمة لياقته البدنية ببذلِ مجهودات خارقة، بل برفع مجهوده تدريجياً، وخصوصاً بنوال قسط مناسب من الراحة بعد كل مجهود. نفس الأمر ينطبق على العمل الفكري. وهذا ما يقوله الأب Sertillanges: "لا عمل حقيقياً دون راحة حقيقية."[4]

سبق وكتبتُ في موضعٍ آخر عن إساءة استخدام عدد

3 A. Delachaux, "L'homme et ses facultes d,adaptation", in *Revue medicale de la Suisse romande*, 25 Oct. 1944, p. 744

4 A. D. Sertillanges, *La vie intellectuelle, Editions de la Revue des Jeunes*, Paris, 1921

كبير من الناس لراحة يوم الأحد. فهم يُجهَدون أنفسهم أكثر من إجهاد العمل، بالإضافة إلى إساءة الاستخدام المصاحبة للطعام والكحوليات. وفي هذا الصدد، قد نتذكر تأثيرات التعب المسببة للتسمم، والتي أشار لأهميتها د. بول كارتون[5]

سببٌ ثان للتعب هو فرط الحماسة. كان شاب يعاني من تأثيرات الإفراط في العمل يعمل مندوباً تجارياً متنقلاً، وقد أنفق نفسه بلا اعتدال وبعناد في عمله. في الواقع كان هذا الجهد الرهيب تعبيراً عن حاجة عميقة لإعادة تأهيل نفسه في الحياة، وذلك بسبب شعور بالنقص انغرس فيه من جانب تعرضه لنقدٍ ظالم خلال طفولته. أرسل لي أحد أصحاب العمل خادمة شابة تعمل لديه لأنه لم يبدُ قط أنها قادرة على الاسترخاء. وصار من الواضح أنها كانت تحاول عن طريق العمل الشاق أن تُسكِّن ألم صراع حاد مع أسرتها. كثيرون يتورطون هكذا في دوامة لا تنتهي من النشاط المحموم لأنهم يخافوا أن يُتركوا لوحدهم مع أنفسهم ومع أفكارهم؛ أو لأنهم خائفون من "الانهيار" إن توقفوا - حيث أنهم غالباً ما يعترفون بذلك بأنفسهم.

إن العمل بهذا الشكل متعب ليس فقط بسبب التوتر الجسمي الذي يتضمنه، بل أيضاً بسبب التوتر الذهني المصاحب له. فنفس المهمة في الحقيقة يمكنها أن تكون لعبة إن تم إنجازها بقلب راضٍ، أو تؤدي للإرهاق عندما تضع فينا توتراً أدبياً قد يعودُ مثلاً للغيرة (الغَيرة من حماس بعضنا البعض والمتكررة جداً مع المشتركين في مهمة واحدة؛ غَيرة زوجة تريد أداء كمّ هائل من العمل كزوجها الأنشط منها)؛ أو قد يعود للكبرياء كما في حالة بعض ممرضات المستشفى اللواتي يفتخرن جداً بدعوتهن لدرجة أنهن لا يعترفن أبداً بتعبهن؛ أو لخوف المرء لئلا يكون كفوءاً للمهمة

5 P. Carton, *Traite de medicine, d,alimentation et d,hygiene naturistes*, Maloine, Paris, 1920

المتاخمة؛ أو أخيراً قد يعود التوتر لإحساس ساحق بالواجب يصير عبئاً على كاهل أي شخص لم يختبر نعمة الله.

لكن ما يتعبنا أكثر - وهذا هو سببنا الثالث - هو تمردنا. جاءتني امرأة معاقة طالما عانت من الشعور بالتعب الشديد كي تخبرني أنها قد تحررت منه فجأة. وحدث هذا عندما تعلمت أن تقبل مرضها بالتأمل في عبارة قالها طبيب كبير السن: "المهم في هذا العالم ليس قدر قوة المرء، بل استخدامه لما لديه."

يكتب د. بيير بونسو[6]: "التعب ظاهرة دماغية قشرية على نطاق واسع." نحن نشعر به بالفعل في أعضائنا، لكنه غالباً ما يتمركز في الذهن.

الإنسان الذي لا يشعر بالرضا عن عمله، الذي يعمله فحسب يشعر بعصبية داخلية دائمة، والذي يلوم الظروف أو الآخرين لأنهم فرضوا عليه ظلماً مهمة معينة أبعد من قدرته أو غير مرتبطة بإمكاناته واهتماماته، والذي دائماً ما يسترجع في ذهنه خيبات الأمل التي تعرَّض إليها، والذي يظن أن صاحب العمل ينتفع منه ويستغله، والذي يتطلع لإجازة ويخاف من انهيار صحته نتيجة العمل المفرط والاضطهاد - مثل هذا الإنسان يسحقه التعب. وكل هذه البيانات الذهنية تجعله يرى عمله والمظالم التي يعاني منها أسوأ مما هي، واستدعاء تلك الصورة الذهنية المنبهة تجعل تعبه - وبالتالي تمرده - أكثر حدة. وفي مثل هذه الحالة يمكن أن يسهم القبول الحقيقي في التخلص من التعب مثلما تلقي برداتك جانباً. أو أن يستجمع المرء الشجاعة إما ليطالب بظروف عمل منصفة أو ليتنازل عن آراءه.

كثيرون يصفون مجرد العصبية بالتعب. يقولون: "أنا مرهق"، بينما يقصدون: "أعصابي متوترة."

أمثال هؤلاء يعانون من "التعب الكاذب." وهو كاذب لا

6 Pierre Ponsoye, L,esprit, force biologique fondamentale, Causse, Graille & Castelneau, Montpellier, 1924

لأنهم يكذبون، حيث أن لديهم إحساس حقيقي بالتعب، بل لأن تعبهم لم يضعفهم. ولكن على النقيض، فهم قادرون على إصدار ردود أفعال في منتهى الحيوية. وغالباً ما يشعرون بالتعب بسبب العجز عن العمل، وهذا هو السبب الرابع. رأيت كثيرين يتفجرون بالحيوية، وكان عليهم أن يستغلوا أنفسهم في بعض الأنشطة المفيدة، إلا أنهم سقطوا في أحد أنواع التعب الرهيب، وذلك ببساطة لأن الطاقة التي تتفجر فيهم غير مُستخدمة. لا شئ يسبب التعب أكثر من صراع داخلي دائم. فالعُقد النفسية، أو أخطاء التربية، أو الصراعات أو المخاوف تكمن فيما وراء الحالة العصبية لأمثال هؤلاء. وبدلاً من رعايتهم ومساعدتهم على الانتصار على وضعهم، فإن الناس يُفرطون في تبسيط مشكلتهم بمثل هذا التعليق: "إن كنت تشعر بالعصبية، فخذ فترة راحة." شابٌ على وشك الزواج، وهو حتى ذلك الحين في قمة نشاطه، يصير مكتئباً فجأة. وذلك لأنه يصارع سراً تجربة أن ينال من خطيبته، والخوف المضني من الاستسلام لهذه التجربة. فطُلبَ منه أن يبقى بعيداً عن العمل. ومن ثم، فإن الفراغ الناتج في حياته يمتلئ الآن بصراعه السري. فتتدهور صحته، ولن يكون هناك أي تحسن ما لم يقدر على التحرر من عبء ما يزعجه ويستأنف عمله مرة أخرى.

حالة أخرى لرجل صاحب قدرة عالية وجد أن قدرته على العمل تتناقص تدريجياً. فمُنَحَ إجازة مفتوحة حتى ينال راحة كاملة. وعند عودته إلى مكتبه يشعر بخيبة أمل كبيرة عندما لا يجد أي تحسن. فيبدأ يفقد الثقة بنفسه، ويبدأ يخاف التعرّض للشيخوخة المبكرة. ولكن عندما نفحص حالته بدقة، نجد أنه على العكس على دراية بقيمة ذاته؛ فهو يعرف أنه قادر على تولّي مسئوليات كُبرى بينما ما زالت تُسند إليه مهام صُغرى. وقد كانت هناك فرصة لترقيته، لكن الوساطة والمحاباة، خلف الكواليس، أدت لتجاهله. إن تعبه حالة عصبية حقاً تكشف عن نفاذ الصبر الخفي.

وسوف تسوء حالته أكثر طالما بقيت أهميتها الحقيقية غير قابلة للتمييز، وطالما ظل خائفاً - بصورة خاطئة تماماً - من أنه يفقد إمكاناته.

رجلٌ آخر يتمتع بالاستعداد للمغامرة والحيوية ولا ينقصه سوى بذل الجهد. تتسبب له نوبة اكتئاب في خيبة أمل حادة، فيُرسل للعلاج في إحدى المصحات. وهناك، حيث الرعاية الفائقة المعمولة لفحص ما إذا كان قد اجهد نفسه بصورة زائدة تساعد في أن تصل بشخصه وبصحته النفسية التي ترجع إلى خيبة أمله إلى مزيد من الاجتهاد. وتكون النتيجة أنه يبقى في خوف مستمر من الإفراط في استخدام قوته. فعندما يذهب ليلعب التنس، بدلاً من أن يستمتع تماماً بالمباراة، يتسائل ما إذا كانت ستطول وترهقه. وإن كان يشعر بالإرهاق حقاً، يكون الحلّ الملائم له هو أن يعيش على أدنى مستوى من بذل المجهود، لكن هذا يكون على خلاف طبيعته النشطة. وهذا يجعله يشعر بحالٍ أسوأ.

هناك أشخاص يُطلب منهم أن يستريحوا لمدة سنوات. وتكون حياتهم مقيدة جداً لدرجة أن أي شخص في مكانهم سيفقد فاعليته ويصبح محروماً من أي شئ يمكن أن يبني القوة: الفرح، والعمل، والأمل، والحب. وكلما ازداد مرضهم كلما ازدادت قيود منعهم من أي نشاط، وكلما ترسخ في أذهانهم الخوف من التعب و"الاقتناع بنقص القوة" الذي أشار لأهميته الهائلة في التعب العصبي د. دوبوا[٧]. وفيما يشعرون أن الفجوة التي تفصلهم عن الحياة الطبيعية تزداد عمقاً، كلما يصيرون أكثر فأكثر يأساً من امتلاك قوة عبورها، فيعتبرون المصحة الملاذ الوحيد لحياتهم المسلوبة القوى.

***

وبالتالي، فإن التعب، ردّ الفعل الضعيف دون منازع،

7 *Op. cit., pp. 123-4*

غالباً ما يرجع لمانع عاطفي. فهو يشل قوى الشخص، كما أن إضراب العمال يشلّ اقتصاد البلد. ومثل الإضراب، فإنه أحد أسلحة الضعفاء. فالشخص الذي لا يشعر بنفسه أنه قوي لدرجة أن يُهيمن على الآخر في الحوار يسقط ضحية إضطراب من جانب مخه وأعضاء الكلام لديه. فيداهمه التشنج العقلي: فلا يعد قادراً على التفكير؛ وإن فكرّ، فإن الكلمات تنحبس في حنجرته، وتزدحم هناك كحشدٍ من المشاركين في الإضراب. هذا هو ميكانيزم الغمّ والعبوس. وبصورة مفهومة، فإن من حوله يثيرهم عبوس الضحية، فيهاجمونه محاولين إبطال إضرابه. ومع ذلك، فإن جهودهم إنما تجعل الأمور أسوأ. وهذا يشرح حالات معينة من البُكم لدى الأطفال الذين تعرّض نموهم للإعاقة أو تعرّضت حساسيتهم للأذى. فينسحبون إلى عزلة بعيدة. وبالتشابه، قد يكون الولع بالحيوانات هو طريقة للانعزال عن المجتمع البشري.

ردّ الفعل هذا بعمل الإضراب شائع جداً. وقد أوضح د. أليندي[8] بشكلٍ قاطع أنه بغضّ النظر عن حالات معينة مرضية في الأصل، فإن الطفل الكسول يكون في حالة إضراب، وأن المطلوب هو اكتشاف ما سبَّبَ له الأذى بدلاً من توبيخه. فالسلبية التي يُظهَرها كثيرون هي شكل آخر لردّ الفعل الإضرابي، بينما إضاعة الوقت والكثير من نسياننا لا بدّ من اعتباره نوعاً من الإضراب البطيء. أحياناً، رغم أني كرستُ قلبي لكتابة هذا الكتاب، فكي أنقل لقرائي ما يمكنني أن أراه من المشكلة البشرية من خلال مرصدي المتميز، أجدني جالساً في ملل أمام أوراقي. أُقلِّب جملة ما مرات ومرات في ذهني لأجد الصياغة المناسبة، ومع ذلك، إن كنتُ أكتب خطاباً فحسب لتدفقت الكلمات أمامي في الحال. يبدو وكأني قد نسيت كيف أفكر. ردّ فعل ضعيف. ثم أضيع الوقت في الكتابة العشوائية، أو حفر

---

8 *L,enfance meconnue*

علامات تدل على بدايات الحروف في قاموسي؛ وعندما أشعر بالفخر لأني توصلت لطريقة بارعة لتنسيقها بانتظام، يكون الشعور البسيط بالرضى الذي يمنحه هذا لي هو قدر من العزاء مقابل كمّ العناء الذي أمرّ به في التعبير عن أفكاري. أدرك في أعماقي أن ما أفعله مجرد تضييع وقت كي أسبِّب لنفسي وخزة ضمير أستمد منها الطاقة المطلوبة للتغلب على العامل العائق لردود فعلي الضعيفة.

الكثير من الاضطرابات الوظيفية هي رموز تُعبّر عن الإضراب - وأحد أمثلة هذا هو الرغبة العارمة في النوم. موظف بأحد المكاتب يصاب بآلام عضلية. فهو الشخص الذي ينكبّ على أداء العمل، ويترك له زملاؤه أكثر المهام غير المرغوبة، ولا يملك شجاعة الاعتراض. فينمو لديه شعورٌ بالتمرد الكئيب ضدهم، لكنه يكبته خلف واجهة أداء الواجب. فلا يكون المرض الذي يعترض عمله إلا إضراباً يثيره لاشعوره. وبنفس الكيفية غالباً ما يمثل البرود الجنسي لدى النساء والعجز الجنسي لدى الرجال إضراباً جنسياً ضد الزوج أو الزوجة، حيث يحمل كلٌّ منهما إساءات غير مُعبَّر عنها ضد الآخر. والأمثلة الأخرى للإضرابات يمكن أن توجد في الهروب للتقوى الدينية أو الهروب للمرض في محاولة لإيجاد الملاذ من صخب الحياة. وإني أمتنع عن تكرار ما سبق وذكرته في كتابي *Médecine de la personne* عن أمراض أخرى كثيرة كالإمساك، والصداع النصفي، والربو، والشلل النصفي، والضعف. كما أن معظم حالات التبوّل اللا إرادي لدى الأطفال لا بدّ من تفسيرها كصورة لاشعورية من الإضراب.

غالباً ما يبدو لي أن النحافة المفرطة هي التعبير عن إضراب تجاه الحياة. وقد كانت تلك حالة شابة عانت من فقدان الشهية العقلي. وقد كانت الوجبات تشكل لها كابوساً حقيقياً. وفيما سعيتُ لفهمها وجدت أنه كان ينتابها الشعور بأنها أضاعت فرصها في الحياة. لقد كانت على دراية بأنها

تمتلك مواهب عظيمة لم تسمح لها الظروف باستخدامها. وكانت تشعر وكأنها قد تُرِكت واقفة وحدها على رصيف المحطة بينما انطلق الآخرون في رحلة رائعة. وبالتالي، فإن غمّها أثار فيها إضراباً عن الطعام.

كما أن سوء الكتابة والمظهر الكئيب يُعبّران عن إضراب بخصوص العلاقات الاجتماعية.

أحياناً ما يُصاحب الإضراب بالتدمير. فرغماً عن إرادته، يعمل المرء تلك الأشياء التي ستجعله يفشل في الحصول على ما يتمناه بالأكثر. فلا شعوره يجعله يُظهِر لأبويه - الذين لم يجرؤ على الشكوى العلنية منهما - النتائج المدمرة للتربية التي أخضعاه لها. فإن كان قد نجح في الحياة لكانت شكواه لا أساس لها، ولامتنع لا شعوره عن التخلص منها. ذات مرة كانت لديَّ مريضة كانت لا تطيق تغريد الطيور، فقد كان ذلك يسبب لها استياءً رهيباً.

لستُ أرغب في التقليل من شأن ردود الفعل هذه، والتي غالباً ما تكون لها وظيفة مفيدة كخط دفاع غريزي وضعته الشخصية غريزياً ضد معاناة حادة جداً لدرجة أنه لا يمكن احتمالها دون حتى أن تُسبِّب تدميراً أشدّ. ويكون الأمر بمثابة سدّ الفجوات في المعدات الحربية. كثيرون يغطون أنفسهم بأحلام اليقظة أو العاطفية الغامضة لإخماد ضربات الواقع العنيفة. تقول لي شابة: "أبي ينصرف خارجاً كلما يأخذ الحديث مساراً جاداً." وتقول أخرى: "لا أحب أن أسمع الناس يتكلمون عن الحرب." وأشارت ثالثة إلى أن هذه هي سياسة "الهروب من الحقائق"، أي فن إغلاق الشخص عينيه عن الأمور المُرعبة أو غير السارة. الكثير من مرضاي الذين يعانون من العصبية يبثّون لي مخاوفهم بأنهم يصبحون غير مبالين تجاه أي شئ، وأنه لم يعد شئ يهمهم بعد. هذه لامبالاة واقية تشهد على حساسيتهم، بينما يظنون أنهم قد صاروا غير حساسين. يُقال لي إن هذا أحد تأثيرات القصف الجوي المتكرر. هناك شعور مشابه

باللامبالاة العامة غالبا ما يظهر كعلامة أولية للشفاء عقب فترة من الاكتئاب.

إن التشكك النظامي لدى أشخاص معينين غالباً ما يكون مجرد طريقة للتعبير عن غمّهم لعدم قدرتهم على إحراز اليقين المطلق لما يطمحون إليه. "لم أستطع أن أهتم بدرجة أقل" معناها كما في خرافة الثعلب والعنب "إني مائت لعدم حصولي على ما أتطلع إليه."

إن ردود الفعل بالحماية هذه أشبه بستار الأمان التي تنزل في المسرح عند حدوث حريق على خشبة المسرح، أو أشبه بجسر متحرك يتم رفعه للدفاع عن قلعةٍ ما من الهجوم. كل إنسان ضعيف يبحث في الواقع عن درع. ربما يكون هو نبرة المزاح أو الخفة التي يخفي وراءها ضيقه، أو السيل المستمر من الشكاوى التي يبدو أن العصابي يحذر بها من حوله أنه قد فاض به الكيل وأنه لن يتمكن بعد من احتمال تعديات الآخرين.

ولكن رغم أن العديد من ردود الفعل الضعيفة تبدو أحياناً محاولات للعلاج، إلا أنها دائماً ما تكون علاجات زائفة. ومن ثم، فإن الاستعانة بالمحفزات، ولا سيما الكحوليات، التي تلجأ إليها أعداد هائلة من الضعفاء لتحصين أنفسهم، إنما تستنزف قُواهم الحقيقية؛ كما أنهم يعتبرونها بأنفسهم دليل ضعفهم. ذات مرة اعترف لي رجلٌ يميل للشجار، سريع الغضب، أنه في جدالاته المستمرة كان يبحث حقاً عن محفز مصطنعٍ للتغلب على خجله. وبصفته رجلاً حساساً، ذكياً، وموهوباً، فقد أدرك أن ضعف شخصيته كان يحجب عنه رؤية صفاته الحسنة. وقد كان عنفه محاولة يائسة لتمزيق الستار، لكن كل ما فعله العنف هو أنه أضاف قناعاً آخر لهذا الستار. فانحرف لأحلام اليقظة كي يعزي نفسه لفشل جهوده.

أخبرني مريضٌ آخر أنه اعتاد أن يراجع في ذهنه أحداث حياته كمسرحية، وذلك كي يتخيل نهاية مختلفة

لها. وكثيرون يكررون لأنفسهم مرارا وتكرارا عبارات أو شعارات معينة. والتفسير الحقيقي للموضات والإيماءات الآلية - إشعال السيجارة مثلاً - غالباً ما يكون طريقة استجماع المرء لشجاعته. لقد كانت الحالة الذهنية لأحد مرضاي أشبه بجهاز تسجيل يحوي تسجيلين فقط: أحدهما يصف أرضاً مبهجة كل ما فيها جميل ورائع؛ أما الآخر فكله قُبح ورعب. فنادراً ما كان يشغل الثاني لمجرد أن يتمتع بالأول.

بعض الناس المتعطشين للثقافة الفكرية يُعاقون في دراستهم من جانب مشاعر النقص. يغلقون على أنفسهم داخل غرفهم ليلاً ويواصلون دراستهم سراً، وأحياناً ما يحرزون معرفة احترافية حقاً في مجال دراستهم. لكن سريتهم هذه تفصلهم عن المجتمع وتُفاقم شعورهم بالنقص. فهم لا يتواصلون مع زملائهم في العمل الذين لا تعني أحاديثهم العادية أي معنى بالنسبة لهم، ولا مع طبقة المثقفين الذين يتجنبونهم ظانين بسذاجة أنهم أكثر علماً وإطلاعاً من أنفسهم.

أما أحلام اليقظة، التي تفصل الذهن كعادتها عن الواقع، فإنما تجعل الحالم أكثر ضعفاً وأقل قدرة على التكيف مع العالم الواقعي.

كثيرون من غير المستقرين عاطفياً يكبحون حياتهم؛ حيث يخفضون الإضاءة إلى حدٍ ما لتقليل العواطف الثائرة فيهم. وفي نهاية حوار يستمر على مستوى سطحي، يعترفون بأنهم لم يستجمعوا شجاعة التكلم عن الأشياء التي أتوني حقاً من أجلها، خوفاً من أن يصيروا مفرطين في العاطفية، فينصرفون فاتري العزم - ومُرهقين بالعاطفة أيضاً، وذلك لأنه حين نغلق على حياتنا فنحن نعزل أنفسنا في ضباب من اليأس المختزن. غالباً ما أعتقد أن هؤلاء الناس أشبه بغلاية الماء التي تُطلق صفيراً - باستثناء أنهم قد توقفوا عن الصفير لإخفاء العلامة الظاهرة لتوترهم الداخلي. وأخيراً لا يمكن تجنب الانفجار. فحين نخزن عواطفنا فإنما تصير

أكثر عنفاً، فيتصاعد خوفنا من إظهارها، ومن ثم فإننا نضاعف جهودنا لإخفائها، وتكتمل الحلقة المفرغة. مثال ذلك، كل امرأة تشعر بعاطفة قوية بالرغبة في الزواج. والتي تخجل من هذه الرغبة وتحاول إخفاء العاطفة التي تُسبّبها يتزايد ضّيقها مما يجعل من المرجح ألا يحبها أي رجل. كنت أعرف فتاة أقلعت عن دروس البيانو رغم تمتعها بموهبة موسيقية معقولة لأنه انتابها الخوف من تعلقها الشديد بمعلمها.

وبالتالي يميل الضعفاء لفصل أنفسهم عن العلاقات الاجتماعية. ولكن إن تبقى لديهم بعض الصداقات، فإن العاطفة المثارة فيهم من جانب بعض الصداقات النادرة تصير حادة للغاية لدرجة أنها تفسد الصداقة بأن تجعلها مُجبرة وغير طبيعية. فكل حاجتهم المكبوتة للحب تتركز على شخص واحد، وهكذا تفسد العلاقة. كما أنهم يخافون أن يتعبوا صديقهم بسبب فرط عاطفتهم. عندما يُصبّ سائل في وعاء ضيق جداً فإنه يرتفع إلى مستوى أعلى مما لو كان في وعاء واسع. يستمر العاطفيون في تضييق قاعدة حياتهم، وهكذا ترتفع عواطفهم أكثر. أو يخفون عاطفتهم خوفاً من شدّة التعلق، وهذه العاطفة السرية الخفية تتزايد إلى أن تستعبدهم.

كما أن تفردهم أحياناً ما يجعلهم ينظرون للصديق وكأنه إله، متصورين أنه كامل. وحتماً تأتي لحظة صحوتهم من الوهم؛ فيسقط الصديق من مكانته ويكون مُعرَّضاً للطعن العنيف بنفس الدرجة. فالعاطفة تتمتع بنفس قوتها بسبب الصراع الداخلي بين العاطفة المكبوتة والاستياء.

الاستخفاف بالذات قد يتم اعتباره أيضاً محاولة يائسة للتخلص من العاطفة. رجل يرسل لي قصائده، وهي قصائد جيدة. ويضيف: "يقيني أنها عديمة القيمة." وبقوله هذا يُؤّمن نفسه ضد العاطفة التي سيشعر بها تجاه مدحي أو انتقادي. ويقول آخر: "لم تسبق لي تجربة دينية قط." فتكون

إشارته تأمينا ضد العاطفة التي سيسببها فيه تمييز مثل هذه التجربة، بما ستتضمنه من التوّصل لاستنتاجات معينة عن حياته وتبنّي مساراً محدداً للسلوك نتيجة ذلك. انضم شاب شيوعي للحزب ليلزم نفسه بالمشاركة الفعالة، في محاولة لعلاج نفسه، وذلك لأنه قوي في الأفكار لكنه ضعيف في التنفيذ. فأقترحُ أن يصبح عضواً فعالاً حقاً في الحزب. فيردّ على هذا بأن قراره قد كان "علاجاً خاطئاً." وتكون إجابته طريقة أخرى لعمل ستار فكري لهروبه من التنفيذ. كما أن الطالب الذي يؤجل امتحاناته خوفاً من القلق العاطفي الذي تسببها يكون أكثر عصبية عندما يضطر أخيراً لأدائها، وربما لن يفعل ذلك أبداً. فمن يقول: "لستُ جيداً في شيء؛ أنا غبي، أنا قبيح" إنما يحاول لاشعورياً في الواقع أن يقلل من مخاطرة إثبات إمكاناته. امرأة مستجدة في مجال العمل وما زالت تشعر بالعصبية تعرض أرخص سلعة لزبائنها حتى تقلّل العاطفة التي تشعر بها عندما تحقق ربحاً.

***

رجلٌ يخاف من أن تخدعه مشاعره. وفي قلقه يكون متشككاً بدلاً من أن يكون واثقاً، ويكون واثقاً بدلاً من أن يكون متشككاً. ونتيجة أخطائه المتكررة يفقد ثقته بنفسه ويتصاعد قلقه. كتب مونتيجن Montaigne عن الخوف: "لا عاطفة تُقلَق حكمنا بمثل هذه السرعة." لكن الشعور الذي يفتقده المرء بالحكم هو في حدّ ذاته مصدر كامن للخوف.

الزوجة التي تخاف من نوبات غضب زوجها إنما تثيرها بخداعها وارتباكها. كما أن الزوج الضعيف، الذي يخاف المشاجرات بين زوجته وأمه، يحاول أن يطيِّب خاطر كلاً منهما. فلا يكون من عدم اتخاذه للقرار إلا أنه يثير الشجار، ويلقي بالشجار على نفسه، وذلك لأن كلٌ من زوجته وأمه تضع فوق كاهله عبء ضغطها كي تخلصه من تأثير الأخرى.

وبالتالي، هناك سلسلة مُحكمة من الأسباب والتأثيرات التي تُصعِّد من ردود الفعل الضعيفة بطريقة متزايدة.

وكما يشير د. أليندي[9]، فإن الطفل المُضطهد في البيت يُظهر نفسه خجولاً في المدرسة، وسرعان ما يصير أضحوكة الفصل. وأتذكر شخصياً بندم شديد القسوة التي اعتدنا أن نعامل بها في المدرسة الزملاء الحساسين للسخرية والعاجزين عن الدفاع عن أنفسهم. فالأطفال - كالبالغين- يحترمون الواثقين بأنفسهم ويعذبون العصبيين. والمعلم الذي يخاف من عدم قدرته على ضبط الفصل هو الذي يُستهان به. والأب الذي يشعر بسلطته تهتز يُذِّكر ابنه بالاحترام الذي يستحقه بنبرة صوت تستكمل انهيار تأثيره. الجبناء يفسحون المجال للأقوياء لأن ذكرياتهم المؤلمة عن النزاعات بين أبويهم سببت لهم رُعباً من كل جدال. لكن الأقوياء يستغلونهم كقطع شطرنج في صراعاتهم الخاصة، تاركين إياهم ينالون كل التوبيخ.

تكتب امرأة لي: "طوال حياتي كنتُ خائفة من المعاناة، وخوفي قادني لمعاناة لا تنتهي." الطفل الذي يخاف من أبيه إنما يسبب له العصبية باتجاهه الانسحابي، ويستجلب على نفسه غضب أبيه. أو يدفعه خوفه لطلب حماية أمه؛ لكن الحال لا يتحسن، فهو الآن يكسر قانون غيرة أبيه المجروحة. وغالباً ما تجعل الأم الموقف أسوأ بأن تقدم للابن صورة مشوهة مُرعبة عن أبيه. كنت مهتماً لفترة طويلة بحالة فتاة حدث معها هذا. وقد شُفيت أخيراً فقط بعد دورة من التحليل النفسي. فتصالحت مع أبيها، وكتبت لي خطاباً قالت فيه: "أعلم الآن أن لديَّ أب يمكنني أن أفخر به." أباً أرمل يخاف من إزعاج ابنته بأن يخبرها عن خطته للزواج مرة أخرى؛ حتى أنه ينكر الأمر حين تستوضح منه الموضوع بعدما تسمع به من خلال الأصدقاء. فتكون الصدمة غير قابلة للعلاج عندما يقدم لها بعد فترة قصيرة

9 *L'enfance meconnue*

"أمها الجديدة".

الشخص الذي يشعر بالضعف لديه حاجة شديدة للعاطفة. وهذه الحاجة نفسها تجعله أكثر اعتماداً على من يُظهَرون له العاطفة؛ وهذا الشعور بالاعتمادية يجعله أكثر إدراكاً لضعفه. كما أن الشخص الذي يؤجل بسبب الضعف مهمةً عاجلة - ككتابة خطاب صعب مثلاً - سوف يشعر بالذنب بسبب ذلك. وكلما يطول التأخير كلما يسوء هذا الشعور، وكلما يشلّه أكثر مما يجعله يؤجل أكثر اللحظة المؤلمة التي سيكون عليه أن يقدم فيها أعذاراً عن تأخيره.

الشخص الذي يجد من الصعوبة أن يذهب للنوم يكون خائفاً من الأرق عندما يذهب للفراش، وهذا الهاجس يبقيه يقظاً. جاء للقائي رجلٌ عصبيٍ يستحوذ عليهم الخوف من السرطان، وقد كان مهموماً بخصوص الاضطرابات المعوية التي اعتبرها بداية المرض. واعترف لي أنه داوم لسنوات على تناول ملينات أمعاء يومياً لأنه قرأ في موضع ما أن تليين الأمعاء يمنع السرطان!

كانت شابة عاطفية تعاني من اضطرابات وظيفية معتدلة. وبسبب قلقها على صحتها تركت دعوتها الإرسالية، فنتج عن هجرها لدعوتها أن تفاقمت اضطراباتها.

من يفقد ثقته بنفسه يستشير كل شخص، وتجاه النصائح المتناقضة التي يتلقاها يُترك في حالة أسوأ حتى من عدم اتخاذ القرار. شابة تسحقها أمٌ مسيطرة تبحث عن ملاذٍ في ديانة بعد أخرى. ففيما نشأت في بيئة مسلمة جرّبت الذهاب للكنيسة الكاثوليكية، ثم انهمكت في كتابات الحكماء الهنود، وحضرت اجتماعات مذهب العلم المسيحي. فإن كنت بدوري قد كلمتها عن إيماني المسيحي، لكنتُ قد سببتُ لها المزيد من التشويش.

بنفس الكيفية، امرأة تستشير طبيباً بعد الآخر بخصوص عصبيتها. وغالباً جداً ما يجعلوها تفقد ثقتها بالطب بانتقاد

كل طبيب لزملائه الذين سبقوه في علاجها. أو أنها، فيما تفيض بالحماس تجاه طبيبها الأخير، فإنها تثير أصدقائها بثنائها المتكرر عليه، فيندفعون لإخبارها عن الحالات التي فشل هذا الطبيب في علاجها. أو الأسوأ من ذلك، يتهمونها بأنها تحبه. ومثل هذا التلميح يؤرقها ويجعل من المستحيل أن تأتمن نفسها لرعايته حقاً.

وهكذا، فإن إحدى نتائج كثرة استشارة الأطباء هي شعور الشخص المُحبط بأنه "حالة". فتكرار طلب نصيحتهم يجعل الشخص عاجزاً عن الوقوف بنفسه على قدميه. كانت إحدى مريضاتي امرأة مرّت بدورة طويلة غير موفقة من العلاج مع أحد المحللين النفسيين، ثم تبع ذلك التدخل غير الموفق أيضاً من جانب أحد خدام الشفاء المسيحي. كان كلاهما يفيض بالحماسة والنوايا الحسنة.

لكن المشكلة كانت أنها شعرت بالجهل التام قياساً بالمحلل النفسي المثقف، وبعدم الإيمان التام قياساً بالمؤمن! فأرسلها طبيب بلدتها لي. محاولة أخرى يائسة لطلب المعونة. إن لم أنجح في إقناعها بأنني أساساً ضعيف مثلها، فإن كل ما سأقوله لها، وخصوصاً إن كان صواباً وحقيقياً وجيداً، سيكون مجرد محاضرة ساحقة أخرى.

كم من أشخاصٍ حساسيين فقدوا أخيراً كل ثقة بأنفسهم من خلال إرسالهم لإحدى المصحات، أو مستشفى عقلي، أو مدرسة أحداث "كي يحصلوا على المساعدة!" وكم من نفوس مترددة سُحقت تحت عبء النصائح الجيدة التي أمطرت عليهم! تعترف لي امرأة أنها رأت نتيجة الصلاة أنها لا بدّ أن تترك أختها بمفردها، وألا تستمر في محاولة مساعدتها على إدارة بيتها لأن جهودها للمساعدة إنما تذل وتحبط الأخت، وتجعلها تهمل واجباتها المنزلية أكثر فأكثر. زوجة تخبر زوجها أنه يجب ألا يقلق إلى هذا الحد على صحته. هذا صحيح، لكن هذه الملاحظة تجعله يقلق أكثر فأكثر.

جاءني رجل كان يعاني من اضطرابات نفسية، وقد تفاقمت بسبب مطالب الحياة المشتركة خلال خدمته العسكرية. فارتأى الضابط المسئول عنه طبياً أن أفضل شئ بالنسبة له هو إعفاؤه، فأرسله إلى لجنة طبية لهذا الغرض. ولكن منذ ذلك الحين فإن شعوره بعدم قدرته حتى على خدمة بلاده أصبح هاجساً أكيداً. فأعدته إلى اللجنة الطبية التي قررت إعادة إلحاقه بالجيش. وبعد عدة أعوام عاد لزيارتي. وقد مدّ مدة خدمته بالجيش وقد اختفت كل اضطراباته.

أحياناً ما يسمح الطبيب لنفسه بالتأثر بتوتر الأبوين المفرط مما يمنعه عن إصدار الحكم الأفضل. فتاة تريد أن تصبح ممرضة، لكن أبويها يظنان أنها ستتعرض لكل أنواع الأمراض المرعبة إن اختارت مثل هذه الوظيفة. فيرسلانها إلى طبيبها، بعد أن يزوداه بكل تفاصيل عدم سماح حالتها الصحية، فيسمح الطبيب لنفسه أن يلعب لعبتهما بأن يخبرها أنها ليست قوية لتكون ممرضة. وفيما تتعرض لخيبة الأمل بخصوص دعوتها، تفقد الفتاة القوة الدافعة- اللازمة للصحة- النابعة من امتلاك هدف في الحياة. فتنتقل من مرض إلى مرض، ومن فشل إلى فشل، وفي النهاية تصير حياتها أسوأ بمراحل مما لو كانت قد صارت ممرضة. لقد رأيت الكثير من "المُستضعَفين المزيفين" الذين كانوا يؤكدون تماماً أنهم كانوا "مرهفين"، لكنهم برهنوا بالفحص أنهم يتمتعون ببنية جسدية رائعة. لقد كانوا مرضى لأنهم لم يكونون يستخدموا قوتهم. فالرجل المُعافي تماماً ليس بحاجة لأكثر من مقابلة صديق في الشارع يقول له: "أنت تبدو مريضاً!" حتى يشعر على الفور بالتعب. دائماً ما يقول البعض للبعض الآخر بأنهم يبدون مرضى، وذلك لأن لديهم دافعاً لاشعورياً للشعور بالشفقة تجاه الآخرين كي يقنعوا أنفسهم بأنهم طيبي القلب.

دعنا نسترجع هنا التمييز الذي عملناه بين الضعف الحقيقي وردود الأفعال الضعيفة. فنحن الأطباء غالباً ما نخلط بينهما.

عندما يجد المريض من الناحية العاطفية أن كل مجهود للتكيف له عواقب جسمية قد تتفاقم لاضطرابات وظيفية خطيرة، نكون على أتمّ استعداد بأن ننصحه بالتوقف عن المحاولة. وبعد ذلك فإن الرجل الذي لم يستكمل دراسته، والمرأة التي استقالت من مركز مرموق سوف يحملان في قلوبهما شعورهما بالجُبن، وهذا الشعور سيُضعَف أكثر دفاعهم ضد ردود أفعالهم الضعيفة. ولن يكونون قادرين على أن يصرفوا من أذهانهم ذكرى كلمات الطبيب التي سوف تستنزف ثقتهم بقدرتهم. اجتازت إحدى مريضاتي قدراً هائلاً من العمل؛ فقد كانت تنهض في الرابعة صباحاً للغسيل، وبصورة غير ضرورية بالمرة تمرّ يومياً على كل غرفة في البيت بفوطة تنظيف، وذلك لأنه كان لا يزال منطبعاً في ذاكرتها قولاً موجزاً لأحد الأطباء: "إنتاجك في الحياة لن يتعدى الخمسين بالمائة مُطلقاً." من الواضح أن المجهود المُفرط الذي كانت تفرضه على نفسها يردّ على حاجة غريزية لإثبات أن الطبيب كان مخطئاً. ولكن لم ينجح شئ في تخليص عقلها من الاقتراح الذي تلّقته.

أحد أصدقائي، وهو طبيب أطفال، عبَّر لي عن وجهات نظره بهذا الخصوص. وهي تتمتع بأهمية عظمى. فهناك ميلٌ في دراسة التغذية المتعلقة بالصحة لدى الأطفال لتجنب ضرورة بذل جهود صعبة في التكيف الجسمي من جانب الطفل. فإن وجد صعوبة في تقبل طعام معين، يتم الاستغناء عنه من قائمة طعامه. ويُعطى وجبات أطفال مجهزة مُسبقاً حتى لا تضطر معدته لبذل جهد يكون ضرورياً لها. نفس الشئ ينطبق على كل ما يختص بصحة الطفل الجسمية والأخلاقية. ومع ذلك، فإن الطفولة هي مرحلة القدرة العظمى على التكيف. ولذا لا بدّ من الاستفادة من هذه السنوات المبكرة لتدريب الطفل على الاحتمال الجسمي والأخلاقي. وعندما يصير بالغاً تصل قدرته على التكيف حدّها الأقصى الذي لا تمكن أن تتجاوزه. وبالتالي، فإن عدم

القبول الخاص بالهضم يظهر كعلامة تدل على النشاط في الكائن الحي بدلاً من أن يكون علامة على الضعف - نشاط استثنائي حقاً، لكنه يمثل ردّ الفعل الحيوي للشخص تجاه محفز جديد.

يقدم د. آرنولت زانك Arnault Tzanck[10] تصنيفاً جديداً ومثيراً للأمراض. فهو يصنفها في ثلاث فئات أساسية: الفئة الأولى: أمراض نوع التسمم، حيث يعاني الكائن الحي سلبياً من الأضرار التي يُسبّبها العامل المؤذي. الفئة الثانية: أمراض عدم التقبل، والتي تمثل أعراضها على النقيض ردّ فعل دفاعي نشط من جانب الكائن الحي. وأخيراً الفئة الثالثة: أمراض سوء التغذية. ويشير إلى أن الأطباء قد أطلقوا للتمييز على أمراض الفئة الأولى أسماء تنتهي بالمقطع -itis، وعلى أمراض الفئة الثانية أسماء تنتهي بالمقطع -osis، بينما أسماء أمراض الفئة الثالثة فتنتهي بالمقطع -oma. وقد أوضح المؤلف ببراعة أن هذه الفئات الثلاث موجودة في جميع فروع الطب، في الأمراض الجلدية كما في أمراض الدم، وفي أمراض القلب كما في أمراض المسالك البولية. وحتى في مجال الطب النفسي هناك أمراض سلبية تنشأ من أضرارٍ معينة، وأمراض نشطة تكون استجابات حادة للجهاز العصبي أو حتى للكائن الحي بأكمله تجاه الدافع النفسي - الصدامات أو الصراعات العاطفية؛ وأخيراً أمراض سوء التغذية.

يقول د. زانك إن جميع أمراض الفئة الثانية ترجع بدرجة كبيرة لطب النفس. فسواء كان حساسية جلدية أو عصاباً، تكون الأضرار الموضعية ثانوية؛ فالمرء بأكمله - بعقله، وجسده، ونفسه، هو الذي يتصرف بردّ الفعل. ويكون ردّ الفعل مفرطاً ومضطرباً، فهو حقيقي، لكن المطلوب هو المساعدة على ردّ الفعل بدلاً من حماية الشخص من

10 Arnault Tzanck, *Immuinite, intolerance, biophylaxie*, Masson, Paris, 1932

المؤثرات الخارجية. وهذا باختصار ردّ فعل داخلي للغاية لكنه يُفهم على أساس أنه ردّ فعل خارجي ضعيف.

في الواقع، نجد فيمن نصنفهم كأشخاص ضعفاء كل تلك الأعراض المرتبطة بعدم التقبل الجسمي والنفسي: فرط الحساسية، ارتفاع معدل التمثيل الغذائي، الاضطرابات الوظيفية، العاطفية، الوساوس، وهكذا. أهمية هذه المشكلة واضحة. فعندما نقول لهؤلاء الأشخاص إنهم ضعفاء لأنهم مرضى في كل حين، ولأن أمراضهم تكون شديدة وغير معتادة وغير متناسبة مع المُسبب الذي يثيرها؛ وعندما نخلصهم من هذه الأمراض نمنعهم عن كل شئ يمكن أن يثيرها - الأطعمة التي يجدون صعوبة في تقبلّها أو صعوبات الحياة الاجتماعية - فنحن إنما نُغلَق عليهم في حلقة مفرغة. إنهم يستمرون في المعاناة وتُثار اضطراباتهم حتى حوافز أضعف؛ فأدنى انحراف عن نظام الأكل، أو أهدأ مناقشة كفيلة بإزعاجهم. وهكذا تنهار حياتهم فيصبحون أكثر فأكثر اقتناعاً بأنهم ضعفاء.

بالطبع، ليس علاج أمثال هؤلاء بالأمر الهين. فمجرد وصف زجاجة دواء لهم لا يجدي شيئا. فهم يحتاجون التشجيع الدائم للمثابرة في جهودهم من أجل الحياة ومواجهة الصعوبات رغم ردود الفعل المؤلمة التي تُسبِّبها. لكن مكافأة هذه الجهود ستكون هي تخفيف ردود الفعل تلك، رغم أنه لا بدّ من تمييز أنها لن تختفي كليةً. لا بدّ أن نعلمهم ألا يخافوا من ردود أفعالهم، وألا يفسحوا المجال لخوفهم.

بالرجوع لمثال طبيب الأطفال، فإن الطبيب الذي ينوي أن يتبع هذا في علاج طفل حساس لا يمكنه أن يتقبل أطعمة معينة لا بدّ أن يتصارع بشدة مع الأبوين. فبصورة غريزية، يرغب الأباء والأمهات حول العالم في حماية أطفالهم من المعاناة، والصعوبات، والعوائق. يريدون أن يحفظوهم من الطعام الذي يؤذيهم، والكتب التي قد تزعجهم، والأصدقاء الذين قد يكون لهم تأثير سيئ عليهم. لكن هذا الخوف

المُعدي نفسه، الذي يشعر به الأطفال ببصيرة سديدة فيما وراء دفاعات أبويهم، هو الذي يُفاقم حساسيتهم ويُصعِّد قابليتهم للجُرح.

***

حلقة أخرى من الحلقات المُفرغة التي يقع فيها الضعفاء ترجع لما قد يدعوه المرء حاجتهم للبراعة. فبعد فترة طويلة من الابتعاد عن الأضواء، يرغبون فجأة في تأكيد أنفسهم. لكنهم يبدأون هذا بالطريقة الخطأ. فيتبنون أسلوباً عدوانياً يسبِّب لهم طعنات ساحقة. تكتب شابة: "أنا عاجزة عن توجيه توبيخ في إطار مقبول. فدائماً ما أجعل الأمور أسوأ مما كنت أقصد." ومن ثم ينبع شعورهم بعدم قدرتهم أبداً على أن يجعلوا أنفسهم مفهومين. أما الأقوياء فلا يحتاجون لبذل مثل هذا المجهود. فهم يتوقعون أن يُصغى إليهم، ومن ثم يمكنهم التعبير بهدوء وبثقة عن آرائهم. أما الضعفاء - على الجانب الآخر - فيبطلون سلطتهم من خلال مجهودهم المفرط. عندما يكون الخبز صلباً يكون المرء بحاجة للضغط بشدة على السكين لدرجة أنها تتجاوز الرغيف وتجرح إصبعه.

علاوة على ذلك، يصير أفراد الأسرة معتادين على توازن القوى الذي أصبح بالتدريج مستقراً فيما بينهم. ابنة تحصل من أبويها على كل ما تطلبه. أما أختها فلا تجرؤ أبداً أن تطلب شيئاً. فإن قررت يوماً أن تقدم طلباً عن استحياء، فإنها تقلب نظام الأمور. فينتقدها الجميع تجاه ما يصفونه بالأنانية.

وفي خوفهم لئلا يُصغى إليهم، يبالغ الضعفاء في مجادلاتهم إلى حدّ السخافة حتى أن اللفظة الجافة "لا تكن سخيفاً!" تنهي الحوار. إنهم يشقّون طريقهم فقط من خلال صنع مشاجرة، وينساقون لهذا حتماً. ثم يخجلون من سلوكهم، وبالتالي يزداد شعورهم بالنقص بنفس الدرجة. وهم يُوّبخون لاختلاقهم المشكلات؛ فيوصمون بأنهم أبناء

مُذَللين بينما هم في الحقيقة يتصرفون هكذا وببساطة فقط لأنهم غير مُذَللين.

يتحدثون كثيراً جداً عن صعوباتهم حتى يحسب الناس مجرد شكوكهم المرتبطة بالضمير إخفاقات خطيرة؛ أو ربما يحسبون العذاب الذهني الحقيقي مجرد شك فارغ، فيُتركون وحدهم. يخطئون كثيراً بالقول والفعل لدرجة أنهم يستنتجون أنه ليس من الأمان أبداً أن يقولوا الحق. وبدلاً من أن يسمحوا لأنفسهم أن يرشدهم حدسهم وشعورهم بخصوص أفضل ما يمكن أن يقولوه أو أفضل ما يمكن ألا يقولوه، فإنهم يقعون في مصيدة محاولاتهم للدبلوماسية فيرتكبون خطأً تلو الآخر.

كل ما يعملونه يؤخذ بتردد، وهكذا تتضاعف إخفاقاتهم. والتفكير في إخفاقاتهم يُصعِّد ضَيقهم. شاب لا بدّ أن يتغلب على عُقد نفسية خطيرة لمصاحبة الفتيات، ومع ذلك فهو يريد أن يفعل ذلك. وأخيراً يقابل فتاة ويصحبها للخروج. فيصادفان صديقاً معروفاً لهما ينضم إليهما. ومنذ تلك اللحظة يكون شابّنا هذا عاجزاً عن التحكم في سلوكه. فيتبنى سلوكاً وقحاً غضوباً يُقلل من شأنه في نظر الفتاة. وبينما يخبرني عن هذا يستعيد إحدى ذكريات الطفولة: كان يلعب مع أصدقائه في حديقة، وقد شعر بالجُرح حقاً لأن الفتيات كُنَّ يبدين له اهتماماً أقل من ولد آخر. فكان ردّ فعله أنه لعب دور البهلوان، مما جذب إليه بعض الانتباه، ولكن ليس التقدير والحب الذي كان يبحث عنه.

كل هذا يجلب على الضعفاء لا الفشل وحده، بل أيضاً النقد الظالم الجارح الذي يستنزف ثقتهم بأنفسهم ويثير المزيد من ردود الفعل الضعيفة.

كانت فتاة صغيرة في الرابعة من عمرها تَكنّ أعظم حب وإعجاب لأختها التي في السابعة من عمرها. وحدث أن الفتاة الكبرى ماتت. وبعد عدة أيام أدركت الفتاة الصغيرة

مدى حزن أمها عندما تحدثت عن أختها المتوفاة فرأت أمها تلتفت عنها وتتركها في حزن. فجعل هذا الموقف الطفلة تشعر بأنها يجب ألا تتحدث أبداً عن أختها المتوفاة مرة أخرى. لكن الفتاة الكبرى قبل أن تموت كانت قد جعلت الصغيرة تعدها بأن تكتب لها رسائل وهي في السماء. فلا بدّ أن تفي بوعدها، لكنها لم تكن تجيد الكتابة بعد. فأخذت ورقة ورسمت عليها بعض العلامات بقلم رصاص، وأثناء ذلك كانت تهمس بنصّ رسالتها. ثم وجدت مظروفاً على مكتب أمها تصادف أن كان مكتوباً عليه عنوان الأم. فوضعت فيه رسالتها وأخذته لصندوق البريد. وفي الصباح، عندما أخرجه رجل البريد، كانت هناك تكلفة إضافية لا بدّ من دفعها لأن المظروف لم يكن عليه الطابع البريدي. وعندما فتحته أمها ورأت رسومات الفتاة ظنت أنها عملت هذا كمزحة فوبختها بشدة. فارتبكت الفتاة، وفيما لم تجرؤ على تفسير الأمر، احتفظت بسرّها في قلبها.

فتاة أخرى، فيما تضايقت عاطفياً لوفاة أمها وزواج أبيها بأخرى، يكون ردّ فعلها في ضَيقها بأسلوب يؤخذ على أساس أنه تمرد صارخ ويُسبِّب لها سلسلة محاضرات من معلمتها الرئيسية إنما يقدم اللمسة النهائية لتمردها.

هذه النفوس المسكينة دائماً ما تتعرض للتوبيخ، والانتهار، والتحذير، والعقاب الظالم. فإرادتهم تتعرض للإغراء عندما تكون المشكلة عاطفية حقاً وتقع خارج نطاق إرادتهم تماماً. فينتهي بهم الحال باستمرار بلوم أنفسهم في صمت: "أنا أمقت نفسي."

الكثير من سوء السلوك الذي يُدان بشدة من جانب المعلمين والمجتمع يمكن تفسيره عموماً عند تناوله بالفحص الدقيق كردّ فعل ضعيف لمشكلة غير محلولة. طفل يعتاد على الكذب خوفاً من التوبيخ؛ طفل آخر يعتاد على السرقة تعويضاً عن الهدايا التي لا يتلقاها أو عن حب الأم المحروم منه. زوج يكذب على زوجته بسبب غمّ من عدم قدرته

على إقامة العلاقة الحميمة المبنية على الصراحة التامة التي كان يحلم بها؛ وآخر يتورط في الزنا كملاذ من طغيان زوجته.

رجل يُنتقد لإعجابه بنفسه يعاني في الواقع من العجز الجنسي؛ وآخر يعاني نوعاً من الانحراف. امرأة تشتري معطفاً تلو الآخر من الفراء الثمين على حساب ديون متراكمة وتوبيخات لاذعة من أمها إنما هي تفتقد الثقة في مظهرها. ممرضة تثير أعصاب رفيقاتها بمرحها الساذج إنما ينقصها الثقة بنفسها. فهُنَّ يُوَجهن لها الاتهام بأنها تحاول جذب الأنظار إليها فيصعِّد نقدهن من حاجتها للثقة، ولا يمكن أن ينجح سلوكها المرَح في تخليصها منها.

يعتبر مجال الجنس خصوصاً حقلاً خصباً للأحكام الخاطئة. أعرف الكثير من الرجال والنساء يُنظر إليهم بصفتهم دونجوانات أو أصحاب مغامرات حسية بينما هم في الحقيقة ضحايا لتثبيطات نفسية-جنسية. يبدو أنهم في بحثٍ دائم عن انتصارات جديدة بينما لا يحرزون أيًّا منها في الواقع؛ فهم يسعون حقاً للتغلب على تثبيطاتهم في عملهم المندفع من علاقة لأخرى، ويتركونها كلها لأنهم عاجزون عن الحب الحقيقي.

امرأة تُتَّهم بالانغماس الخليع في مغامرات عابثة بينما الحقيقة هي أنها مدفوعة بحافز مُلح لطلب مشاركة فكرية وروحية لم يقدمها لها أيٌّ من أحبائها قط. رجلٌ يرفض بعناد إنهاء علاقة غير شرعية؛ في الواقع فإن المرأة التي تمكنت من إغوائه في لحظة ضعف إنما تُحكَم قبضتها عليه بتهديدها "بإيذاء نفسها" إن هجرها.

امرأة تلقي بنفسها باندفاع في علاقة طائشة مما يُسبِّب مهانتها لعدم قدرتها على إعطاء نفسها للرجل الذي أحبته حقاً. وزنا رجل يدمر بيته: والحقيقة أن التنشئة المتزمتة زرعت فيه احتقار الجنس، ولهذا لم يكن قادراً في الزواج

على التمييز بين العاطفة النقية والحب الشهواني. امرأة راقية سمحت لنفسها في لحظة ضَيق قبول مبادرات رجل تحتقره. وبالتالي فإن الاشمئزاز من نفسها يستنزف قوى مقاومتها ويمنعها من الانفصال عنه. وهذه ظاهرة كثيراً ما نواجهها. فالذين يُقدِّرون الطهارة أبلغ تقدير يكونون الأكثر تعرُّضا للمهانة، للمهانة المفرطة، حين يتعدونها. فيدفعون أنفسهم بغضب تجاه النجاسة وكأنهم يبرهنون على الانحطاط الذي يتهمون به أنفسهم. ظلّ رجل متعلقا بعشيقة عدة سنوات لأنه كان يمكنه أن يستمد منها قوته المعنوية لأنها كانت تساعده وتُمتعه - أكثر من زوجته - من "الانفلات" وإدمان الشراب.

شابة عاجزة عن فسخ علاقة مذنبة تؤرقها لأنها تخاف العودة للعزلة المرعبة التي اختبرت فيها في الماضي هزائم أخطر من هذه.

عندما ينظر المرء فيما وراء الستار في حياة الناس بهذه الطريقة، يدرك مدى ظلم الأحكام المتسرعة والمرائية التي تسود الحوار في الجلسات والمقاهي.

هذا الشعور بالأحكام الظالمة من الآخرين يلعب دوراً مهماً جداً في سحق الضعفاء وربطهم بسلسلة ردود أفعالهم الضعيفة. لستُ أتظاهر أنهم بلا خطية. فبالطبع لديهم الكبرياء، والأنا، والحقد، والحسد، والنجاسة، والاستثارة، كما أنها موجودة فيَّ أنا أيضاً وفي كل إنسان آخر. إنهم يميزون بالحدس هذه الحقيقة عينها، أن البشر كلهم سواء، لكنهم هم أنفسهم - الضعفاء - دائماً ما يُوّجه لهم الاستهجان لأن ردود أفعالهم إنما تكشف ضعفات القلب، بينما يتمكن الأقوياء من إخفائها بعيداً عن الأنظار.

إن الحلقة المُفرغة الطاحنة لردود الأفعال الضعيفة والانتقاد تتخذ شكل "حرب أعصاب"، تثير ضحاياها لعمل نفس الشيء الذي يسبب الشر الذي يخافونه. فرغبة

الضعفاء لإعادة تأهيل أنفسهم وأن يفهمهم الآخرون عموما هي عذاب دائم بالنسبة لهم، وهذه العاطفة تثير ردود أفعالهم الضعيفة التي تحكم عليهم بالمزيد من صور إساءة فهمهم. وفيما يهربون من سسيلا Scylla يسقطون في فخ Charybdis[11]. ربما يقول قائل أنهم يعانون من عقدة "من سيتعرض للإهانة." وهكذا تبدو حياتهم وكأنها تنتقل من مأساة لأخرى.

***

الطبيب الذي يسعى ليكون موضوعياً يتأمل حياة هذه النفوس بتعاطف شديد. ويبدو له كما لو كان مسار حياتهم مُوَّجها بقوة خفية ماهرة. يتكلم عن الماسوشية (المتعة الجنسية بإيذاء النفس أو الآخر)، أو يتكلم مع د. اليندي[12] عن العدالة الداخلية. يبدو أن هؤلاء الناس يجلبون على أنفسهم سوء الحظ كما لو كان هذا لعقاب أنفسهم بلا نهاية لأجل شهواتهم وتمرداتهم المكبوتة مدة طويلة - حتى إن كانت مشروعة - ضد أبائهم ومعلميهم.

بعد ذلك يُدفع مثل هذا الطبيب لنصحهم بتبني طريقة الأقوياء: إشهار السلاح القاطع ضد الآخرين الذي طالما يستخدمونه ضد أنفسهم، والدفاع عن أنفسهم، والاستفادة من العدوانية التي يكبتوها، والسادية (المتعة الجنسية بتعذيب الآخر) الكامنة فيما وراء الماسوشية التي يمارسونها. أحياناً ما ينجح هذا. ولكن أحياناً أيضاً ما يكون هؤلاء الناس الحساسين أصحاب قلوب طيبة للغاية لدرجة أنهم لا يمكنهم اتباع مثل هذه النصيحة. فعندما يُوّجهون ضربة فإنما تجرحهم هم أكثر ممن أصابوه بها.

١١ Scylla في الأسطورة اليونانية هي وحش البحر الذي كان يبتلع البحارة و Charybdis دوامة خارج ساحل صقلية - [المُترجم]

12 Rene Allendy, *La justice interieure*, Denoel, Paris, 1931

وهكذا يكون من الضروري إيجاد حل آخر، حل أكثر عُمقاً - حلّ الإيمان.

وبالتالي، تكون كل ردود الفعل الضعيفة هذه مجرد رموز لليأس. تصرخ إحدى مريضاتي: "لماذا وُلدتُ؟"، والصرخة تلخص ضيقتها. فهذا اليأس يمكنه أن يتعمق جداً لدرجة أن من يعاني لا يُوعَد بالسعادة، فيدفعها بعيداً بردود أفعاله الحرَجة عندما تظهر. ذات مرة قال كو Coué إنه كي يكون المرء سعيداً فلا بدّ أن يؤمن بالسعادة"[13]. الضعفاء لديهم ذوق غير صحي تجاه الدراما؛ فهم يستعرضون بصورة درامية أي موقف وكل موقف، وحتى أثناء الاستشارة يخفون عاطفتهم خلف بعض الملاحظات السخيفة التي لا يقصدونها حقاً، لكنها على الأرجح تكسر الثقة بيننا، إن لم أعرف أفكارهم الحقيقية فيما وراء هذا الستار. ويكون الأمر كما لو كان لاشعورهم لا يزال يحاول أن يقطع آخر خيط من خيوط الأمل الذي يتعلقون به. كتب لي مريض: "إني أفسد بنفسي كل شئ في حياتي؛ وهذا ما يجعلني يائساً." يقول كلٌ منهم: "ما الفائدة من مجيئي إليك ثانيةً؟ فلا فائدة من ذلك ويضيع وقتك فحسب." وما يقصدونه حقاً: "إني مرتعب أن تسأم مني وتتركني." يقولون: "لا تكلمني مرةً أخرى عن الله. إني أكرهه." ويقصدون: "لم يعد لي أي رجاء إلا فيه."

في الواقع، هذه هي النتيجة النهائية للوقوع في البراثن التي تقيدهم، أي أن طريق الإيمان يكون مغلقاً بالنسبة لهم رغم أنه سيكون الحلّ الحقيقي لهم. أشارت لي امرأة عاطفية: "لا يمكنني أن أصلي بعد. فقد ضاع مني عنوان الله." وبعد عدة حوارات مشتركة أخبرتني بالظروف التي جعلتها تفقد عنوان الله. ففي أحد الأيام أرادت بشجاعة وإخلاص أن تشهد عن إيمانها بالله. لكنها تعرّضت للنقد بسبب ذلك من

13 Emile Coué, *La maitrise de soi-meme*, J. Oliven, Paris, 1929

رؤسائها فعكست مسارها. فقد بدا لها أن الله أصابها بخيبة الأمل تاركاً إياها لردود أفعالها الضعيفة.

إحدى مريضاتي ترى في عصابها دليلاً على أنها مرفوضة من الله، وأن غفرانه - الذي أكلمها عنه والذي سيكسر الحلقة المفرغة لردود أفعالها الضعيفة - ليس مُقدَّماً لها هي. امرأة أخرى تشعر بالخجل من عدم امتلاكها شجاعة كافية لإنهاء علاقة غير صحيحة. فهي تظن أنه لم يعد لديها أي حقٍ في الصلاة، ومن ثم لا تحاول. وهكذا تحرم نفسها من الشركة التي ستمنحها القوة التي تحتاجها.

غالباً ما يخفي هؤلاء الأشخاص أيضاً يأسهم خلف نظريات تهكمية، أو فلسفات قدرية، أو مفاهيم بيولوجية مزعومة لقوانين الوراثة المتزمتة، أو الاعتقاد بتقمص الأرواح، الملاذ الأخير لمن يأسوا من الصراع في هذه الحياة. ثم يستخدمون عدم إيمانهم كسبب آخر لليأس: "الله لن يأتي لمساعدتي؛ فهو لا يمكنه أن يحبني لأني لا أؤمن به."

ومع ذلك، فإن كل ردود الفعل هذه - الخوف، العاطفة، اليأس - تنتمي لمجال الحساسية النفسية. فلا الإرادة ولا العقل يمكنه التحكم في حساسيتنا النفسية التي لها قبضة أقوى بكثير مما نودّ أن نعترف لأنفسنا. رسب ابني في أحد الامتحانات. وقد ظننت في نفسي أنني تقبلت هذه الحقيقة بالفعل. ولكن في يوم التخرج مرّ موكب الخريجين أمام نافذتي تتقدمه الفرقة الموسيقية. وقد كان كافياً لتصاعد صوت الموسيقى بتأثيرها المادي على حساسيتي أن امتلأت عيناي بالدموع. لقد قمت بكبت حساسيتي النفسية؛ فلم أكن قد تغلبت عليها.

الشعور لا يقاومه إلا الشعور. وفي هذا يتفق معنا زملاؤنا غير المؤمنين تماماً: فالشعور الذي نحتاجه هو الثقة التي تولد من جديد عندما نشعر بأننا محبوبون. ونحن ندعو هذا بالإيمان.

فيما تنمو ثقة الضعفاء يبدأون من جديد في إظهار عواطفهم، الذي كان كبتها يعيقهم أكثر فأكثر. ذات مرة قال لي رجل إنجليزي: الانطباع بدون التعبير يولد الاكتئاب." فكل إنسان يعرف أن العاطفة التي تبقى تحت السيطرة، والحرمان الذي كان فيه المرء "غير قادر على البكاء"، وخيبة الأمل السرية في الحب، كلها أمور تولد الاضطرابات. يخجل الحساسون من حساسيتهم ويحاولون إخفائها. إلا أن حساسيتهم تجد مخرجاً من خلال ردود الفعل الخاطئة التي يتعرّضون بسببها للتوبيخ، وهذا يجعلهم أكثر خجلاً من حساسيتهم - وهكذا تنغلق عليهم الحلقة المفرغة. فغالباً ما كانت تنشئتهم تركز فوق كل شئ على تعليمهم طرق إخفاء مشاعرهم؛ وهذا تحديداً ما جعلهم مفرطي الحساسية. جاءت لزيارتي امرأة تعاني من الإكزيما. وقد مرّت بتجربة دينية اختفت الإكزيما من بعدها. ولكن فجأة في أحد الأيام عادت لها مرةً أخرى. فكتبت لي مريضتي أنها أدركت سببها على الفور. فقد كان عليها أن تعاني من شعور محزن بالظلم، وحدث أن كتمت سخطها. ولم تكن هذه تضحية حقيقية بالذات، بل كبتاً سبَّب صراعاً داخلياً فعادت الإكزيما للظهور.

إن ردود الفعل الخاطئة هذه التي تجد فيها العاطفة المكبوتة مخرجاً غالباً ما يكون لها تأثير منشط عقدة أخرى، وذلك مثل شرارة تقع على برميل البارود. أم توبخ نفسها لأنها تضرب أطفالها الذين رغم ذلك تحبهم في حنان. تبذل مجهودات كبيرة للتحكم في نفسها؛ وتخاف أن تبدأ ثانية: تكون في حالة الاتزان غير المستقر. فإن واجهت في مجال مختلف تماماً مضايقة لا يمكنها أن تُعبِّر عنها، فسوف نجدها ترفع يدها مرة أخرى على أطفالها إثر أقل خطأ من جانبهم.

يحتاج الضعفاء أن يتخلصوا من أعبائهم بخصوص كل ما

يجرحهم دون أن يُتهموا في الحال بإثارة الأذى أو التصميم المستمر على حقوقهم. تقولِ امرأة حساسة: "زوجي يثير أعصابي؛ فلا يمكنني تحملَ رؤيته." فإن وبخناها قائلين بأنها لا بدّ أن تحبه، فسوف تشعر بأن أحداً لا يفهمها لأنها تريد في الواقع أن تُظهَر له حبها. لكنها تعبِّر عن العصبية المكبوتة التي تمنعها عن إظهار حبها لأنها ببساطة تريد أن تحرر نفسها منها. فمفرطو الحساسية لا يتكلمون لصياغة أفكارهم، بل للتعبير عن مشاعرهم. ولهذا يعودون مرة ومرات بنفس الشكوى، مما يضايق من حولهم الذين لا يجدون ما يقولونه أكثر مما قالوه. من الضروري أن نفهم أن الحساسين يستمرون في تكرار نفس الشيء إلى أن يكتمل تفريغ شحنتهم العاطفية. أتذكر أني حين أدركت هذا الفارق بين معنيي الحديث أني شعرت بأني كنت أقوم باكتشاف مفتاح العديد من أخطائي. فعندما يتكلم شخص للتعبير عن فكرة، فهنا يكون الحوار مشروعاً - وكونك لا تناقش الفكرة التي يطرحها معناه أنك لا تأخذ الأمر مأخذ الجدية. مثل هذا الحوار أمرٌ مثمر ويلقي ضوءاً جديداً على الموضوع المطروح. أما عندما يتحدث شخص للتعبير عن مشاعره، يكون من الضروري أن تنصت وألا تناقش، لأن المناقشة في مثل هذه الحالة إنما تؤدي لسوء الفهم وتوحي للشخص بالإحساس أنك لا تفهمه.

أيضاً يحتاج الضعفاء أن يتخلصوا من أعبائهم تماماً لسبب آخر. فالمخاوف، كما قلت، مرتبطة ببعضها البعض كالحلقات في سلسلة ممتدة بلا نهاية. فبعد التعبير عن أكثر مخاوفهم وضوحاً وإدراكاً أن مفرطي الحساسية يجرؤون شيئاً فشيئاً على النفاذ إلى أعماق قلوبهم، فيكتشفون هناك مخاوف يكونون أقل شعوراً بها، لكنها تكون ممتلئة بالعاطفة المكبوتة. ولا يزالون بحاجة للمزيد من التفهم والثقة لاستجماع شجاعة التعبير عنها. وبالرجوع للوراء في حلقات تلك السلسلة يرون الدور الهائل الذي لعبه الخوف في

حياتهم. وهكذا يأتون برضاهم إلى بداية مشكلة الإيمان.

الضعفاء يحتاجون الحنان. يحتاجون أن يجدوا في قلوبنا انعكاساً وشهادةً لمحبة المسيح. وحينئذ يمكنهم إحراز انتصارات على أنفسهم كانوا قد يأسوا من إحرازها، والتي ستكسر قيود يأسهم. وأول انتصار ملموس - النهوض بمجرد سماع دقات المنبه، استجماع شجاعة التكلم بالحق عن شيءٍ ما مع أبويهم، طلب الغفران من شخص كانوا يضمرون له الكراهية، التحدث مع شريك الحياة عن ديون كانت بمثابة أسرار - يمكن أن تكون لها نتائج لا تُحصى. فالأمر بمثابة فتح جبهة ثانية في حرب تكون قد وصلت حالة الجمود، وتغيير الموقف الاستراتيجي.

ولكن من المهم في هذا أن يتميز إيماننا بهم وحبنا لهم بالأصالة. فلا شئ بالتأكيد يدمر فرص النجاح كمبالغة المرء في التعبير عن مشاعره، أو لفظ كلمات منمقة لا تنبع من القلب، أو إظهار الإحسان المصطنع. هناك نوعان من اللطف، أو الثقة، أو التعاطف، أو الحماس: النوع التلقائي - وهو نوع مؤثر فعال حيث ينمو فينا بصورة طبيعية جداً حين نكون في "الوضع الصحيح" روحياً. وهناك النوع الذي نبتكره حين لا نكون في الوضع الصحيح روحياً، لكننا نرغب بأن نبدو هكذا. فعندما لا يكون لدينا رجاء في أن نرى الشجرة وبراعمها تتفتّح فنحن نُعلق عليها زهوراً صناعية.

٥

ردود الفعل القوية

أطلقنا على ردود الفعل النشطة اسم ردود الفعل القوية. فالظاهرة ليست نفسية فحسب؛ بل تتعلق بالشخص بأكمله، مُظهرةً نفسها في الجسم، في المشاعر والخيال، وفي الأفكار والذهن. وعلى خلاف ردود الفعل الضعيفة - التي تشلّ الشخص وتشلّ التفكير - فإن ردود الفعل القوية تحفز الطاقة الدافعة وتفتح بوابات الخيال والفكر كي يتدفق سيل وافر من الصور الذهنية الملائمة، والمفاهيم الشيقة، والحوارات المناسبة. ويكون لها صداها حتى في الحياة الروحية. فبينما تبدو المحبة والإيمان بعيدين ولا يمكن الوصول إليهما بالنسبة للضعفاء، فإنهما يبدوان سهلين وطبيعيين بالنسبة للأقوياء.

هذه ردود أفعال آلية، تلقائية، وفورية؛ وهي استجابة المزاج الطبيعي لكل تحدٍ جسمي أو نفسي. فبالمواجهة مع الخطر المادي المتمثل في غزو ميكروبي، أو طعام مسمم، أو تعب مفرط، فإن الدفاعيات البيولوجية تتحفز، وكرات الدم البيضاء تتجمع، وردود الأفعال المحفزة للأوعية الدموية تبدأ عملها، والتمثيل الغذائي الكيميائي يزداد معدله، وكل الوظائف التي يصنفها د. زانك Tzanck

[1] تحت عنوان *biophylaxis*[٢] تبدأ في العمل. وبالمواجهة مع الخطر المتمثل في صراع مع شخص آخر، أو تجربة القوة، أو مسئولية رهيبة، أوَ ارتباط أفكار (شعورية أو لاشعورية) تتجمع لإثارة الضَيق الغامض الذي ينتاب كل إنسان، فإن الدفاعات النفسية للأقوياء تتحفز بنفس الكيفية. وبالتالي فإن شعور استرداد الثقة يمحو عدم الارتياح، كما أن دَفعة الشجاعة تغطي على الخوف، والثقة بالانتصار تحفز الحماس. وتكون الكلمات المطلوبة لإنقاذ الموقف حاضرة، والإشارات التعبيرية التي يجب توجيهها للخصم قد ارتسمت على ملامح الوجه أساساً، وإرادة القوة تكون مبرهنة في الاتجاه المتكامل للمرء.

أما الآن، فلا أحد يمكنه أن يطور شخصيته تحديداً دون اصطدامه مع الآخرين لدرجة أن ردود أفعالهم القوية سرعان ما تدفع الأقوياء لصراعات لا حصر لها يصطدمون فيها مع أمثالهم الأقوياء ويسحقون الضعفاء. لكن الصراع والمخاطرة تعمل كحافز لردود أفعال الأقوياء، مُضاعفة إياها بنفس الكيفية التي رأينا بها تفاقم ردود الفعل الضعيفة في الحلقة المفرغة. والأكثر من ذلك هو أن الأقوياء يحتاجون الصراع والمخاطرة، فهم يطلبونها ويثيرونها بسبب النشاط الذي تتيحه، وذلك لتغذية التيار الساري من ردود الفعل التي تغطي عذاباً داخلياً يكون حاداً كعذاب الضعفاء.

لكن ردود الفعل الضعيفة إنما تؤدي لصراعات فقط بطريقة غير مباشرة طالما تتم مواجهة المقاومة. وبالتالي لا بدّ أن نحترس لئلا نخلط بينها وبين مجرد الميل للشجار. فبكل إخلاص يؤكد الأقوياء على أنهم هادئون: فليس خطأهم - بل خطأ الآخرين - أنهم يتصارعون معهم؛ وكل ما

---

1 Op. cit

٢ *biophylaxis-* ردود فعل دفاعية غير محددة للجسم - [المُترجم]

يريدونه هو التوافق مع الناس. وهم يتوافقون بشكل جيد جدا مع كل شخص، طالما أن أحداً لا يقاومهم! يقولون انهم لا يصارعون الناس، بل يصارعون أخطاء الناس. ويكونون على أتمّ استعداد لمدّ يد الصداقة لهم بشرط أن يستعدوا لتمييز وترك خطأ طرقهم.

مثال ذلك، من الممكن أن تقوم حماة بإخضاع زوجة ابنها لاضطهادٍ قاس وفي نفس الوقت تقول لنا بصراحة إنها تحبها حباً غير منقوص. فبسبب حبها لها وحبها لابنها ورغبتها في سعادتهما أن الحماة تحارب بضراوة بالغة كل ما يبدو خاطئاً بالنسبة لها في سلوك زوجة ابنها. "أنا أعرف ابني؛ أعرف ما يحتاجه لتدبر أحواله وما يجب عمله ليكون سعيداً. أليس هذا هو ما تريده أنت أيضاً وما سيجعلك سعيدة أيضاً؟ تصرّفي إذاً كما تصرُّفت أنا بدلاً من إجباره على هذه العادات الجديدة الغبية، النابعة من تربيتك الرديئة!"

لكن ردود الفعل القوية تحمل أيضاً ثماراً مُسالمة. فهي تحفز الحماس للعمل، وضبط النفس، وممارسة الفضيلة، والخيال الإبداعي، وانسجام الذهن والقلب؛ وكل هذا يُساعد الأقوياء أيضاً على نسيان صور القلق التي يصيرون على دراية بها مرةً أخرى عندما لا يكونون بعد محمولين على أجنحة النجاح.

وبالتالي، فإن التحليل النفسي يكشف أن الكثير من الأمور الجيدة والقيّمة، والكثير من الأعمال النبيلة والجهود الكريمة إنما هي في حقيقتها تعويضات عن نفس صور القلق السرية التي تسحق الضعفاء. ولا بدّ الا تُحتقر لهذا السبب، ولكن من المفيد بالنسبة للمرء أن يكون على دراية بهذا الميكانيزم التعويضي إن كان يرغب في معرفة ذاته وفهم الآخرين.

أدركُ الآن كم تحفزّ نشاطي الفكريّ كثيراً من جانب العُقد النفسية اللاشعورية عندما كنتُ طالباً. فرغم أني لم أعترف لنفسي قط بوحدتي الرهيبة؛ إلا أني كنت خائفاً من الآخرين.

ثم لاحظتُ أن استعدادي للتعامل مع الأفكار، وصياغتها، والدفاع عنها يمكن استخدامه كجواز مرور للمجتمع. وبالتالي استطعت أن أحظى بالعطف والتقدير الذي طالما تطلعت إليه لتدعيم ثقتي بنفسي. فلعبت لعبة الأوراق. وكتبت المسرحيات، ودرستُ الرياضيات بتمعن، ودرستُ القانون، وألقيتُ محاضرات طويلة، وصرتُ رئيس اتحاد الطلبة، وألقيت بنفسي في العمل لصالح الصليب الأحمر، ثم لصالح الكنيسة، ونجحت في امتحاناتي الطبية نجاحاً باهراً.

إلا أن أياً من ذلك لم يخلّصني من عُقدتي النفسية السرية، لكنها ساعدتني على إخفائها. ففي قلبي كانت المساومة والانهزامية ما زالت مستمرة، لكني كنت قادراً على الأقل، إلى حدٍ ما، أن أنساها. فلستُ الآن أتبرأ من تلك الحماسات الشبابية، ولا الحقائق الفكرية والدينية التي كنت أحارب عنها. ففيما بعد مرُرت بأزمات روحية شعرت فيها بكمّ التصنع في الحماس الذي اعتدت أن أدافع به عن التعاليم التي كانت في أغلب الأحيان مناقضة لحياتي الحقيقية. أما هذا الاكتشاف ففيما وراء تقويض قناعاتي، فإنه شدَّدها وجدّدها، طالباً مني توافقاً أكثر بين النظرية والتطبيق.

ذات يوم جاءت لزيارتي امرأة كانت حتى ذلك الحين تظن نفسها مثقفة تماماً وكانت تتمتع بمركز مرموق في الجامعة. وفجأة، عندما تطرقنا للحديث عن الهند، مَرت بتجربة دينية ألقت ضوءاً جديداً تماماً على حياتها الداخلية. قالت إنها فهمت من خلال هذا الضوء أخيراً أن ما كانت تبحث عنه سابقاً في المعرفة، في البحث والجدال الفكري إنما كان إجابة للحنين الديني لنفسها. ولم تكن قادرة قط على إيجاد هذه الإجابة على المستوى الفكري. ففي الواقع كان لديها شعورٌ غير مريح دائماً بأنها كانت إلى حدٍ ما ضد طبيعتها الحقيقية عندما كانت تتصرف كمفكرة جامدة. ثم أضافت أنها الآن ستكون قادرة على وضع ذكائها في خدمة إيمانها، ومن ثم تحقيق انسجام داخلي حقيقي.

حياتهم. و هكذا يأتون برضاهم إلى بداية مشكلة الإيمان.

الضعفاء يحتاجون الحنان. يحتاجون أن يجدوا في قلوبنا انعكاساً وشهادةً لمحبة المسيح. وحينئذ يمكنهم إحراز انتصارات على أنفسهم كانوا قد يأسوا من إحرازها، والتي ستكسر قيود يأسهم. وأول انتصار ملموس - النهوض بمجرد سماع دقات المنبه، استجماع شجاعة التكلم بالحق عن شيء ما مع أبويهم، طلب الغفران من شخص كانوا يضمرون له الكراهية، التحدث مع شريك الحياة عن ديون كانت بمثابة أسرار - يمكن أن تكون لها نتائج لا تُحصى. فالأمر بمثابة فتح جبهة ثانية في حرب تكون قد وصلت حالة الجمود، وتغيير الموقف الاستراتيجي.

ولكن من المهم في هذا أن يتميز إيماننا بهم وحبنا لهم بالأصالة. فلا شئ بالتأكيد يدمر فرص النجاح كمبالغة المرء في التعبير عن مشاعره، أو لفظ كلمات منمقة لا تنبع من القلب، أو إظهار الإحسان المصطنع. هناك نوعان من اللطف، أو الثقة، أو التعاطف، أو الحماس: النوع التلقائي- وهو نوع مؤثر فعال حيث ينمو فينا بصورة طبيعية جداً حين نكون في "الوضع الصحيح" روحياً. وهناك النوع الذي نبتكره حين لا نكون في الوضع الصحيح روحياً، لكننا نرغب بأن نبدو هكذا. فعندما لا يكون لدينا رجاء في أن نرى الشجرة وبراعمها تتفتّح فنحن نُعلق عليها زهوراً صناعية.

لكن الطريقة المجنونة التي يلقي بنفسه فيها إنما تكشف بوضوح حافزاً انتقامياً. فتاة طالما تعرضت لسيطرة أبيها قابلةً آراءه بصفتها آرائها، هي الآن تنتقم منه بمعارضته في كل فرصة. امرأة تفرض بدورها أفكارها على بناتها. وبالمثل، رجل تنتابه فكرة الالتحاق بدورة دراسية معينة تمثل في نظره طريقة لتعويض نفسه عن كل شئ حرمه منه أبواه في الماضي.

رجل يضطهد زوجته بتذكيرها المستمر بكل التضحيات التي فرضها على نفسه في الماضي من أجلها، والتي ينوي الآن أن يطالبها بدفع مقابل ذلك بالطاعة الذليلة. هكذا نصل إلى الدرجة الثانية من التعويض، وهي الانتقام. هناك عددٌ هائل من تصرفاتنا، ودوافعنا، ومشاعرنا تمثل حقاً الانتقام من الجروح التي فشلنا في قبولها. تكتب شابة: "المال يثير نفوري، ولهذا أنفقه كي أنتقم منه." وتكتب أخرى: "أنا أتصرف تجاه الرجال كما لو كنت أحاول أن أنتقم من أبي ومن أخي." زوج ضعيف تسيطر عليه زوجته التي تنتقم منه حقاً بسبب الإهانات التي فرضها عليها زوجها الأول. وبالمثل، زوجة أخرى تُخضع زوجها لشكوك غيرة مستمرة ولا يمكن تحملّها، إنما تنتقم فيه من خطيبٍ سابق كان قد هجرها. رجلٌ - رغم كل قراراته - يجد نفسه في صراع مستمر مع أمه. ويكتشف المعنى الكامن فيما وراء هذه الدّوافع - رغبة في الانتقام لأبيه بسبب المعاناة التي فرضتها عليه أمه في الماضي. هذه الدوافع يمكنها أن تنمو في المرضى إلى حدّ معدلات هائلة، في شكل هاجس بالانتقام أو هوس الاضطهاد. وحتى رفض الإيمان إنما يمثل في كثير من الناس نوعاً من الانتقام من الله، الذي يلومونه مقابل أمراضهم.

الدوافع التي تمثل هذا النوع يمكنها أن تتخذ سمات الحرب النبيلة. فهذه فتاة فقدت أمها. فبعدها تتعلق جداً بأبيها، وتعاني بقسوة عندما يتزوج مرة أخرى. تؤمن بإخلاص أنها قد

غفرت للزوجة الجديدة أنها احتلت المكان الأول في قلب أبيها. وتقول لي إنها لن تسمح لنفسها أبداً أن تسيطر عليها الغيرة القاسية: فهذه مسألة عدالة: فأبوها شخصية ضعيفة حقاً، وهي تشعر أنها مدعوة لحمايته من السيطرة التي لا يستحقها من جانب زوجته. رجلٌ يُنصِّب نفسه رسولاً للتسامح وحرية الرأي، إنتقاماً لنفسه من العناد العقيدي الذي عامله به أبوه في شبابه. ويكون هو نفسه غير متسامح إلى حدٍ ما في الطريقة التي يدافع بها عن التحرر من التقليدية. رجلٌ آخر يهاجم التقليدية المرانية من خلال السلوك الشاذ والإشارات اللاذعة إنما ينتقم من الكبت الذي تربى فيه. وبكل بلاغة دائماً ما يؤكد على جانب النعمة بصفته ضد الناموس؛ لكن المرء لا ينال النعمة بمجرد إدانته للناموس، وبالتالي فإن انتقاداته - رغم أنها قد تكون مُبررة - إلا أنها تبقى لاذعة. رجلٌ آخر مؤيد غيور للأخلاق العامة. فيشنّ حملات ضد كل ما قد يفسد الشباب كي ينتقم لنفسه من التأثيرات الضارة التي قادته في الماضي لسقطات أخلاقية يخجل منها.

من الملائم أن أتذكر هنا تعليقات د. باروك[3] الذكية عندما أوضح أن أقسى الانتقادات الموجهة للأخلاق العامة تنبع ممن يخفون شعوراً بالذنب فيما وراء اتهاماتهم. كما يؤكد على الطاقة الديناميكية الهائلة التي يمنحها ميكانيزم الكبت لأبطال المجتمع والعدالة أمثال هؤلاء.

في الواقع، يمثل النقد أكثر أشكالٍ ردود الفعل القوية شيوعاً. فمنذ قراءة كتاب د. باروك أميِّز بالفعل أنه كلما يأتي نقدٌ ما إلى ذهني - مهما كان مبرراً، ولا سيما حين تأتي الانتقادات دفعةً واحدة باستثناء الاعتبارات الأخرى- فهذا يرجع للكبرياء المجروحة، أو أنه يكون ردّ فعل موجه لتغطية شعور بالذنب بخصوص الشخص الذي أنتقده.

---

3 *Op. cit*

الحصة الأولى إن الأرض ليست مُعرَّضة لمجرد دورتين بل لسبع دورات. فرفعت فتاتنا الصغيرة يدها بجرأة لتسأل عن الدورات الخمس الأخرى. فشعر المعلم بالارتباك؛ حيث لم يستطع أن يتذكرها، وتملكته الحيرة أمام فصله. فوجدت طالبتنا نفسها ممنوعة من الخروج في ظهيرة السبت التالي عقاباً لها لأنها وجهت سؤلاً لا يرتبط بالموضوع. وعندما عادت للبيت عوقبت مرةً أخرى من أبيها لأنها أساءت التصرف في المدرسة.

مثل هذه الأحداث أكثر تواتراً مما هو مفترض عموماً؛ لكننا غالباً ما نحظى بنجاح أفضل بإخفاء ردود أفعالنا القوية، والتي بدورها تخفي نقائصنا. فكلّ منا يرتدي قناعاً، حتى داخل عائلاتنا. كلّ منا يجاهد بألف طريقة وطريقة أن يحمي المظهر المنافق الذي أضفيناه على أنفسنا أو الذي أضفاه علينا الآخرون. نحاول أن نلعب الدور الذي نودّ أن نلعبه. وأن ننزع القناع ونعترف بالضعفات التي يخفيها دائماً ما تكون عملية في منتهى الإهانة، ولا أحد منا يمكنه أن يعمل هذا دون معجزة من الروح.

علاوة على ذلك، فنحن نساعد بعضنا البعض في لعبة الاختباء/الاستغماية التي هي الحياة الاجتماعية. فنحن نتظاهر بأننا نأخذ أقنعة الآخرين مأخذ الجدية حوفاً من أن يكشفوا هم بدورهم أقنعتنا؛ ومثال هذا عندما يُسلّي طفل صغير نفسه بالاختباء وراء جذع شجرة يكون رفيعاً جداً، فنبدأ اللعب ونتظاهر بأننا لا يمكن أن نراه أو نعرف إلى أين ذهب. وهذا ما كتبه بيرغسون: "الشرّ مستور للغاية، والسرّ محفوظ على نطاق العالم كله، حتى يكون كل فرد في هذه الحالة أضحوكة الكل: فمهما كانت قسوة إداننتا للآخرين، فنحن نظن جوهرياً أنهم أفضل منا."[8]

8 Henri Bergson, *The Two Sources of Morality and Religion*, translated by R. Ashley Audra and Cloudesley Brereton, Macmillan and Co., London, 1935, p. 3

كان لا يزال متشبثاً به.

لكن ميكانيزمات التعويض من هذا النوع ليست موجودة على الإطلاق في العصابيين بصورة جذرية وحدهم. فهي في مرحلة العمل - إن جاز التعبير - بين أكثر الناس نعومة ولطفاً وكياسة في المجتمع المتحضر. فالعالمَ يقترح نظرياته بأكثر تأكيد لأنه يعرف أفضل من خصومه الاعتراضات التي تكون مُعرّضة لها. وسيدة المجتمع تُدلي برأيها حول أحدث كتاب بأكثر اقتناع كلما كانت تشعر بثقة أقل في قدرتها الأدبية، أو كلما كانت قد تصفحته بصورة متسرعة. أتذكر هنا امرأة - وهي تمتلئ بمشاعر النقص - اعترفت لي أنها اضطرت لقراءة كتاب كي يكون لديها شئٌ ما تتحدث عنه أمام أصدقائها! ليتنا لا نسخر من ذلك: فهذه الطريقة نمارسها جميعاً، في الواقع إلى حدٍ ما. فكلنا نجد أنه من الصعب أن نكون منفتحين وصريحين في الحوار، وأن نُعبِّر عن أفكارنا وقناعاتنا ببساطة كما نشعر بها. نخاف ألا يأخذنا الآخر مأخذ الجدية، كما نحن، ونخاف ألا نبدو ذوي سلطة كافية. ولذلك نثير رأي الآخرين، مقتبسين كلمات هذا العالمَ، أو ذاك الكاتب، أو معتمدين على محتوى مواد مجهولة المصدر تقدمها الجامعة، أو الصحف، أو الأقاويل العامة، وذلك حتى يكون لنا دورنا البارز في حواراتنا. وهذا الاستعراض للمعرفة السطحية جداً في غالب الأحيان نتخذه ذريعة للثقافة، ونستخدمه للتأثير على الآخرين. فالإشارة البارعة إلى حدثٍ ما في حياتنا يظهرنا في صورة جيدة، أو إلى مناسبةٍ ما نكون قد قابلنا فيها شخصية بارزة إنما تجلب لنا نجاحاً متملقاً وتأكيدياً.

هذا منحدر زلق سرعان ما ينقلنا إلى حافة الخداع، وهذا نطاق يكون من السهل فيه أن نتعمق أكثر فأكثر. وبالطبع فإن قمة الخداع هي التورط في الخداع ونحن نظن أننا نتسم بحسن التمييز لدرجة أننا لا نسمح له أبداً أن يثير من نمارسه تجاههم، وبالتالي نحتفظ بمظهر الوقار بينما في نفس الوقت

نجني لأنفسنا نجاحات اجتماعية متملقة.

يقدم بيتر هاوارد في الكتاب الذي اقتبسته[6] تقريراً شيقاً عن النصيحة التي قدمها له رئيسه في بداية عمله الصحفي اللامع تحت إشراف لورد بيفيربروك Lord Beaverbrook: "بيتر، اسكب زيت التملق الناعم على ظهورهم. سوف تجد أن الناس لا يمكنهم أن يكون لديهم الكثير منه، مهما عارضوا بأنهم لا يحبونه." وقد كانت تلك الطريقة ناجحة. فهو يقدم وصفاً حياً لمجتمع فترة ما بين الحرب العالمية الأولى والثانية بصورة شمولية، حين كان كل واحد يسعى للنجاح: "النجاح كان هدفي. كنت أبحث عنه بالقوة. وكنت أبحث عنه بالمال ... وكان معظم الشباب مثلي يشعرون أن واجبنا الأول تجاه أنفسنا، وتجاه أسرنا وأمتنا هو أن نتواصل مع العالم ... وبالنسبة لي، لم أتوقف قط عن التفكير في التواصل في أية أمة تلك التي ستظهر من بين ملايين الأفراد الذين يدوسون بعضهم البعض في أنانية، ويناورون، ويمزقون بعضهم البعض كي ينالوا لأنفسهم نصيباً أكبر من خير الأمة."

الحقيقة هي أن النجاح هو الهدف الضمني لكل ردّ فعل قوي. فلكي يحقق المرء النجاح، لا بدّ أن يُظهِر نفسه قوياً جسمياً، ونفسياً، ومعرفياً - بل وحتى روحياً. أحياناً ما يكون الإدمان الحديث المفرط للرياضة وللثقافة المادية، والتكريس النفسي لفكرة تطوير النشاط البدني هدفه النجاح الذي ستؤكد عليه القوة البدنية. وهذا أيضاً يكمن فيما وراء فكرة أن الصحة هي الخير السيادي، وأنه حينما تكون صحة المرء ليست على ما يرام، فلا بدّ من استعادتها مهما كانت التكاليف - وتلك الفكرة منتشرة اليوم على نطاقٍ واسع جداً. من المناسب أن أقتبس هنا ملحوظة نافذة قدمها د. بيوت Biot في آخر دورات مؤتمر إبطال الاسترقاق: "الأخلاق قبل الصحة."

6 *Op.cit., p22*

من بين ردود الفعل القوية لا بدَ أن نحسب أيضاً كل صور الغرور: دلال معين في الرجال والنساء - انشغال مفرط بخصوص اختيار رابطة عنق أو منديل جميل، أو بخصوص تسريحة شعر، والاستعباد لاتباع الموضة، كل هذه يراها دائماً العالَم النفسي كتعويضات عن مشاعر النقص. بالطبع لستُ أقصد إدانة كل دلال، وخصوصاً لدى النساء، الذي يمثل فيهن غريزة سليمة. ولكن حالما يأخذ هذا الاهتمام سمة التملك، حالما يصير المرء عبداً له، فإنه لا يعد يتصرف من تلقاء احترامه لنفسه، بل سيتورط في ردّ فعل قوي.

علاوة على ذلك، من الناحية الأخرى، فإن ارتداء ملابس غير محترمة، أو الظهور بصورة غير لائقة، أو التظاهر بعدم التوافق، أو حتى احتقار الشخص لمظهره أو نظافته، كصورة استعراضية عن التفوق المعنوي - فهذه كلها أيضاً ليست إلا ردود أفعال قوية تعويضية.

نفس الأمر يمكن أن يُقال عن التظاهر بالشجاعة. استلمتُ خطاباً من امرأة تكتشف الآن العواقب المميتة لحياة ردود أفعالها الضعيفة التي كانت قد استسلمت لها لسنوات. تكتب: "منذ أيام قليلة، كنت مع إحدى صديقات الطفولة، وهي امرأة رياضية بارعة، مغرورة تماماً، وتعيش في حياة الزنا علناً، والكل ينتقدها لكنها لا تهتم بما يقوله الناس؛ وعندما كنت معها اختبرتُ إحساساً غريباً بالارتياح ... وعلى الفور أكتشف أنني أحب النساء الساخرات، الجريئات، غير المُعاقات بالتعصب، اللاتي استطعن أن ينتزعن شيئاً من الحياة. كان يجب أن أحب أن أكون كذلك إن استطعت، إن تجرأت - أن أبقى في موقف القوة مع الرجال وألا أكون خائفة أو أكون تحت رهن إشارتهم ..." من الصعب وضع الفارق بين ردود الفعل القوية وردود الفعل الضعيفة أوضح من ذلك. فمراسلتي هذه، التي كثيراً جداً ما أعطت الفرصة لردود الفعل الضعيفة إنما تتوق سراً لردود الفعل القوية.

ومع ذلك، فإن صديقتها ليست مختلفة عنها جداً كما تظن: فالسخرية ليست أبداً أكثر من مجرد مظهر كاذب تختبئ ورائه المعاناة والقلق.

من ردود الفعل القوية أيضاً الغضب، الطرق باليد على المنضدة بقوة، الباب المصفوع في ظهر شخص ما، الثورة المزعجة، أو الجدال الماكر المقصود منه إيذاء الخصم في أضعف لحظاته، الشجار الحاد، أو نوبة الهستيريا. أخبرتني إحدى مريضاتي كيف أنها ذات مرة - عندما ارتكب ابنها خطأً ما - أنها كانت تحاول أن تجعله يعترف بذلك فقابلها بعنادٍ مستميت من جانبه. وفجأة انتزع الولد بعض الزهور من المائدة ومزقها إلى قطع - ردّ فعل قوي! فسألته أمه: "لماذا فعلت ذلك؟" فأجابها: "لأنها كانت تنظر إليَّ"

بالطبع، غالباً ما تحفز ردود الفعل العنيفة هذه عوامل لا شعورية. ولكن بنفس الطريقة فإن التهديد بردود الفعل العصبية يمكن أن يستخدمه أحد أفراد الأسرة كوسيلة لفرض رغباته على كل الآخرين. ومثل ردود الفعل هذه لا تحتاج أن تكون صاخبة. وبالتالي تتأكد الأم من الطاعة الذليلة من ابنتها بأن تزرع داخلها خوفاً رهيباً بإيذاءها.

مرة أخرى، سرعان ما تتشكل هنا حلقة مفرغة رهيبة. فعندما يمنح المرء أمثال هؤلاء الناس في سبيل السلام الفرصة لكل نزواتهم فإنما يجعلهم أكثر فأكثر عبيد ردود أفعالهم.

أشعر أنني لا بدّ أن أضيف على ما كتبته للتو كلمة تحذير: أخشى أن يكون هناك قارئاً في أسرة مثل هذه يُظهر ذلك في هيئة انتصار ضعيف أمام شخصٍ آخر يتهمه أساساً في قلبه بأنه يمارس هذا النوع من الاضطهاد العصبي. فعليه ألا يتصور أنه بذلك سوف يساعد المريض على السيطرة على نفسه. فسوف يجعله أسوأ حالاً. وهذا واقعي جداً لدرجة أن كلٌ منا لا بدّ أن يعالج مشكلاته الخاصة بدلاً من

أن يدين جاره.

ومن بين ردود الفعل القوية لا بدّ أن تكون أيضاً الثرثرة، اللسان العفوي، والروح المعنوية المرتفعة. ولكن لا بدّ أن نشمل غالباً الصمت الحريص، جو الغموض الذي لا يمكن اختراقه. كما أن ردود الفعل القوية قد تأخذ شكل المرح والذكاء، مما يسمح للمرء بأن يُخلِّص نفسه من موقف محرج من خلال إشارة لماحة. وأقول من جديد إنني لست أدين الفكاهة الجيدة وقفشات الذكاء التلقائية، بل بالأحرى الذكاء اللاذع والمصطنع الذي يستخدم كسلاح دفاعي وهجومي. في مقالة عن الثقافة الإنسانية[7]، قدم د. رينيه لاكروا تحليلاً بارعاً عن الفكاهة يميز فيه بحرص بين الضحك "الإيجابي" والضحك "السلبي".

***

من الواضح أننا يمكننا إجراء نفس المقارنة في كل مجال آخر. فكل صفة من صفاتنا - الجسمية والعقلية - يمكن رؤيتها في هيئتها الإيجابية حين تُظهَر نفسها تلقائياً، دون حافز خفي؛ لكن كلاً منها يمكنها أن تتخذ سمة سلبية حين تصير أداة لمحاولة أكثر أو أقل من الناحية الشعورية للانتصار في معركة الحياة. فحتى صفاتنا الأخلاقية، شهادتنا على اختياراتنا الدينية، واعترافاتنا بالإيمان يمكن استخدامها كوسائل لممارسة تأثير أعظم.

السلطة الأصيلة هي نقيض الفاشية. اليوم، كانت شابة خجولة تحكي لي بعض ذكريات طفولتها وهي مرتبكة بالمشكلات التي تواجهها في الحياة. انتقلت من الريف إلى المدينة لدخول مدرسة ثانوية. وفيما كانت متعطشة للتعلم، فقد بدأت باشتياق في استكشاف عالم المعرفة المليء بالعجائب. وقد دقّ قلبها بصورة أسرع حين قال المعلم في

7 Rene Lacroix, "Le rire, l'humour et l,ironie" *in Culture humaine*, Paris, Feb 1948, p. 108

الحصة الأولى إن الأرض ليست مُعرَّضة لمجرد دورتين بل لسبع دورات. فرفعت فتاتنا الصغيرة يدها بجرأة لتسأل عن الدورات الخمس الأخرى. فشعر المعلم بالارتباك؛ حيث لم يستطع أن يتذكرها، وتملكته الحيرة أمام فصله. فوجدت طالبتنا نفسها ممنوعة من الخروج في ظهيرة السبت التالي عقاباً لها لأنها وجهت سؤلاً لا يرتبط بالموضوع. وعندما عادت للبيت عوقبت مرةً أخرى من أبيها لأنها أساءت التصرف في المدرسة.

مثل هذه الأحداث أكثر تواتراً مما هو مفترض عموماً؛ لكننا غالباً ما نحظى بنجاح أفضل بإخفاء ردود أفعالنا القوية، والتي بدورها تخفي نقائصنا. فكل منا يرتدي قناعاً، حتى داخل عائلاتنا. كلّ منا يجاهد بألف طريقة وطريقة أن يحمي المظهر المنافق الذي أضفيناه على أنفسنا أو الذي أضفاه علينا الآخرون. نحاول أن نلعب الدور الذي نودّ أن نلعبه. وأن ننزع القناع ونعترف بالضعفات التي يخفيها دائماً ما تكون عملية في منتهى الإهانة، ولا أحد منا يمكنه أن يعمل هذا دون معجزة من الروح.

علاوة على ذلك، فنحن نساعد بعضنا البعض في لعبة الاختباء/الاستغماية التي هي الحياة الاجتماعية. فنحن نتظاهر بأننا نأخذ أقنعة الآخرين مأخذ الجدية خوفاً من أن يكشفوا هم بدورهم أقنعتنا؛ ومثال هذا عندما يُسلّي طفل صغير نفسه بالاختباء وراء جذع شجرة يكون رفيعاً جداً، فنبدأ اللعب ونتظاهر بأننا لا يمكن أن نراه أو نعرف إلى أين ذهب. وهذا ما كتبه بيرغسون: "الشرّ مستور للغاية، والسرّ محفوظ على نطاق العالم كله، حتى يكون كل فرد في هذه الحالة أضحوكة الكل: فمهما كانت قسوة إدانتنا للآخرين، فنحن نظن جوهرياً أنهم أفضل منا."[8]

8 Henri Bergson, *The Two Sources of Morality and Religion*, translated by R. Ashley Audra and Cloudesley Brereton, Macmillan and Co., London, 1935, p. 3

حين نلقي نظرة فاحصة على أية حالة من حالات الاستبداد، في أسرة ما، أو مؤسسة، أو شركة تجارية، أو حكومة معينة، فسوف نلاحظ أن تشكيله قد تضمن تواطؤ الكل. فالطبيب لا يندهش فيما يحدث في السياسة حين يرى ما يحدث في عددٍ لا يُحصى من الأسر. يكتب د. فرانك بوكمان[9]: "إسأل نفسك: هل بيتك تحكمه سلطة ديمقراطية أم ديكتاتورية؟" وسرعان ما يلاحظ الطبيب أن معظم الأسر تعيش تحت نظام حكم استبدادي، وأنه حتى الرجال الذين يناصرون في السياسة بإخلاص اتجاهاً متحرراً أو ديمقراطياً إنما يتصرفون كمستبدين في البيت. يكتب أميل كو Emile Coue: "حين يعيش فردان معاً، فإن ما يسمى بالتنازل المتبادل غالباً ما ينبع دائماً من نفس الشخص."

زوجٌ يسبب لزوجته حالة يأس حين يتوقع منها ببساطة ليس فقط أن تتسامح مع خيانته لها، بل أن تعتاد أيضاً على الترحيب بعشيقته في البيت. فيخبرني بمنتهى الإخلاص أن كل شئ سيكون على ما يرام إن وافقت زوجته على خطته. إنه يتسبب في انهيار أعصاب زوجته ويطلب مني أن أعالجها. زوجةٌ أخرى تندهش من أن الزوج يقضي معظم وقته في المقهى. والحقيقة هي أنها لا تجبره فحسب على الحياة في بيت أبويها، وأن يتناول الطعام على مائدتهما، وأن يعمل معها في أعمالهما، بل أيضاً أن يصحبهم كل يوم أحد في النزهات التي يكونون قد اختاروها بأنفسهم.

لكن الأخطر من هذا هو الاستبداد الديني. ذات مرة عرفتُ امرأة تحطمت حياتها بالقبضة التي كان يُحكمها عليها متشدد ديني كان يدَّعي أنه وحده يملك الروح القدس. وهكذا كان- بصورة لا شعورية تماماً بالتأكيد - يُرضي دافعاً مؤذياً للسيادة على الآخرين. فقد كان يرعبها بتهديد العقاب الإلهي. وكانت تشعر بالحدس أن رجاؤها الوحيد للخلاص إنما يكمن

9 F.N.D. Buchman, Remaking the World, Blandford Press, London, 1953, p. 77

في الهرب، لكنه أكد لها بمثل سلطانه هذا أن إرادة الله هي أنها يجب أن تبقى معه حتى استسلمت للأمر.

كانت هذه مجرد مبالغة لدرجة مرضية من الانحراف الروحي الذي يكمن في كلٍ منا. ولستُ أؤمن أن أياً منا يمكنه الهروب منه تماماً. فمهما صدق حماسنا لتجديد الشخص، فإنما يكمن فيه إرضاء إغرائي لممارسة دور نبوي في حياته، والقدرة على السيادة عليه. عندما ينقذ إنسانٌ ما إنساناً آخر، فإن أضعفهما ليس دائماً ما يكون هو ما نتصوره. وكم تتعاظم التجربة - حين يكون هناك تنوع آراء - بأن ندّعي أن الله إلى جانبنا! فأن يزيد المرء قوته بادعاء أنه ناقل إرادة الله - فهذا ردّ فعل قوي. وهو أيضاً رد فعل إخفائي، وذلك لأن قلقنا الروحي الأعظم إنما ينبعٍ من الصعوبة التي نختبرها جميعاً في تمييز إرادة الله حقاً، ومن الشك الذي ما زال متواتراً في أعماق قلوبنا رغم إخلاصنا؛ ولا شئ يجلب لنا العزاء أعظم من رؤية الآخرين يأتون إلينا كما إلى أنبياءٍ سماويين.

غالباً ما يأتيني أحد الأزواج، أو الأبوان - ويكونون أنفسهم مؤمنين - ويخبرونني عن رغبتهم التوّاقة أن يربحوا للإيمان شريك الحياة، أو الأبناء. ودائماً ما تكون دوافعهم نقية ونزيهة تماماً. ومع ذلك فأحياناً ما كنت أشعر بأن المقاومة التي واجهوها هي نوع من ميكانيزم الدفاع من جانب الطرف غير المؤمن، مدفوعاً بخوفه من أن يضطر للاستسلام إن اعترف بإيمانه. وأحياناً ما يعترفون لي بمهارة: "يقيني أن زوجي سيصير أكثر لطفاً إن اختبر التجديد، وسوف يقلع عن العادات الرديئة التي تؤلمني جداً." هناك بعض الأزواج يكونون مهتمين بالدين، وتكون لديهم قناعاتهم الخاصة؛ فيتحدثونٍ عنها إلى أصدقائهم أو مع مرشد روحي - يقابلونه سراً - لكنهم يحرصون على عدم إثارة الموضوع مع زوجاتهم اللاتي - بصفتهن مؤمنات متحمسات - قد يردن أن يسيطرن على حياتهم الدينية.

وغالبا ما تكون هذه أيضاً حالة مراهق يتجنب الاعتراف بأن لديه ايمانيات دينية خوفاً من أن يستخدم أبواه هذه الحقيقة كوسيلة لإجباره على التوافق الأكبر مع رغباتهما أو وجهات نظرهما اللاهوتية.

وبالتالي، أحياناً ما تكون الروح التبشيرية لدى الناس المتدينين هي نفسها التي تُعيق تجديد حياة المرتبطين بهم. ففي بعض المذاهب يكتشف المرء أن أحد أفراد الأسرة يمارس تأثيراً روحياً كاملاً على كل من حوله، الذين قادهم لقبول معتقداته.

ذات يوم أرسلت لي امرأة طيبة فتاة صغيرة يتيمة كانت تقوم برعايتها، ومع ذلك دون أن تنجح في ممارسة أي تأثير أخلاقي حقيقي عليها. فقد كانت الفتاة قد صارت متمردة إثر وفاة أبويها وبعض المحن الأخرى. وتبنتْ اتجاهاً شكاكاً ودفاعياً تجاه كل سلطة. ولم تلاق جهودي نجاحاً أكبر. قضيتُ معها ساعة، لكني لم أقدر على النفاذ إلى استيائها. فمقابل كل أسئلتي لم أتلق سوى فقرات مختصرة أحادية المقطع. لقد دُفِعَتْ لمقابلتي؛ وقد كنت بالنسبة لها مجرد امتداد للسلطة الأخلاقية التي كانت ترفضها. ولم أسمع عنها أخباراً لمدة عامين؛ وذات يوم رأيتها من جديد. وهذا المرة أتت من تلقاء ذاتها، بإرادتها الحرة، كي تطلب مساعدتي ونصيحتي. بدأت بالاعتذار عن صمتها العنيد في زيارتها الأولى، ثم فتحت قلبها لي بثقة. ومنذ ذلك الحين صارت لنا حوارات كثيرة.

بالطبع يمكننا أحياناً تقديم نصائح مفيدة - لكن هذا لا يقود أي إنسانٍ أبداً لاختبار نعمة الله. أتذكر امرأة رأيتها مرةً واحدة. نادراً ما كنتُ ألقى الشكر الحار هكذا بعد تقديم استشارة: فقد قالت إنها انصرفت متغيرة تماماً. وفي الواقع يكاد يكون الأمر أنني لم أقل لها أي شيء مُطلقاً: لكنها كانت لشهور سابقة تتصارع مع نفسها، وعندما قررت أخيراً أن تأتي للقائي، كان ذلك التصميم بمثابة علامة انتصار حاسم

داخل نفسها. وفي الواقع لم أعمل شيئاً تجاه ذلك. فقد كان الحدث الروحي قد تمّ بالفعل سراً في قلبها حتى قبل أن تأتي إلى غرفة المشورة خاصتي.

لا يمكن أن يتوقع المرء أبداً الوسائل التي سوف يستخدمها الله كي يلمس قلب إنسان، ولا الطرق التي سيقوده عبرها، ولا اللحظة التي سيتدخل فيها في حياته. فقد تكون وهو في منتهى السعادة، أو في عمق أزمة مؤلمة. قد تكون وهو داخل مجتمع ديني حار، أو في عزلة مطلقة. قد تكون من خلال عملية تطور بطيئة، أو عملية خاطفة غير متوقعة. ولكن دائماً ما يكون هذا من خلال التدخل الحرّ للروح. إدوارد هاويل - الذي خدم في R.A.F في كريت يحكي[10] عن كيف أنه حين سقط جريحاً أُخَذَ أسيراً وتم نقله لليونان، فاخترق الله فجاة يأسه أثناء ليلة مؤرقة دون إمكانية توقع أي تأثير بشري لمثل هذا الاختبار. وعلى الفور دارت في ذهنه بعض الأسئلة البسيطة المحددة: "ماذا لو كان الله موجوداً؟ من يمكنه أن يجعلني مختلفاً؟ من يمكنه أن يحررني؟ من يمكنه أن يعيدني إلى وطني؟ أو يعيد إليَّ الوطن؟ وفي تلك اللحظة كلمني الله ... وبعدها استلقيت في سلام وهدوءٍ تام. فقد كنت واثقاً وآمناً في إيماني بأنني قد عرفت حالاً سرّ الحياة." ثم حانت لحظة هروبه، وقد نجح بطريقة إعجازية، كان قد تبع فيها إلهام الله خطوة بخطوة.

الإكراه هو نقيض الحياة الروحية بأكملها. فنحن يمكننا أن نساعد الآخرين بأن نخبرهم عن اختباراتنا وقناعاتنا. ولكن لتكن لدينا أمانة أن نخبرهم عن إخفاقاتنا وشكوكنا أيضاً. علاوة على ذلك، لا بدّ أن نحترس من الميل الطبيعي الذي يجعلنا نظن أن الآخرين لا بدّ أن يصلوا إلى الإيمان بنفس الطريقة التي وصلنا بها نحن. فإن مارسنا أي نوع من الضغط عليهم، فسوف نؤذيهم حتماً. فالضغط من هذا

10 E. Howell, *Escape to live*, Longmans Green, 1947, p. 101

النوع إما أن ينتزع قرارهم وفي هذه الحالة فسوف نغتصب نحن مكان الله؛ أو سيثير مقاومتهم، وهكذا نصير بالنسبة لهم عقبة في طريق الإيمان.

إن ما يكمن غالباً وراء ردّ الفعل القوي الدقيق للتبشير هو إحساس معين بالسمو، احتقار معين لمن لا يملكون الحق أو لمن لا يزالوا "عائشين في الخطية"، كما يقول بعض المؤمنين، للأسف! وهنا نرى مرةً أخرى الظاهرة التي وصفها د. باروك[11] سابقاً. زوجة تعذب زوجها بشكوكها في خيانته. لكني أدرك أنها هي نفسها تهاجمها رغبات الزنا. وهي تخجل منها جداً لدرجة أنها قامت بكبتها، والآن تقوم بإسقاط ندمها على زوجها، ممثلةً إياه كخائن حتى تكون قادرة على تصوير نفسها بصفتها بريئة.

زوج يقرر في صحوة ضمير أن يُنهي الحياة المزدوجة التي كان يعيشها وأن يعترف لزوجته بماضيه. هذا الاعتراف فرصة ممنوحة من الله للزوجين لإعادة بناء حياتهما الزوجية ونوال الشركة الروحية الحقيقية التي أكدت لي الزوجة أنها تتمناها بشدة. ولكن، على العكس، فإن اتجاه الزوجة يتقسى إلى اتجاه احتقار؛ فهي ترفض أن تصلي مع زوج سبق وخدعها، وتتشكك في صدق تغير قلبه، ولا تتوقف أبداً عن إهانته بتلميحاتها بالخطأ الذي اعترف به.

***

هذا يصل بنا إلى شكل ردّ الفعل القوي الذي قد ندعوه ردّ فعل "الأبرار"، باستخدام المصطلح الكتابي. سمعت أشخاصاً يصرحون بلا تردد: "لم أتفوه بأية كذبة"، أو "لست أخاف أي شئ"، أو "منذ سلمتُ حياتي لله، فليست عندي مشكلات"، أو "لا أحد لديه أية أسرار في أسرتنا؛ فدائماً ما نكون صرحاء تماماً مع بعضنا البعض." وسمعت مؤمنين يقولون: "المسيحي الحقيقي لا يخطئ فيما بعد." فإن

11 *Op. cit*

أجبتهم بالتحدث عن خطاياي الشخصية، فإنهم يرفضون بعناد أن يصدقوني: "لا يمكنك أن تقنعني أن رجلاً مثلك يمكنه أن يتفوه بأكذوبة."

هؤلاء الناس صادقين بالطبع، لكن كل اتصال بشري حقيقي معهم يكون مستحيلاً. وهم يسحقون الضعفاء الذين يحاولون تجديد حياتهم. ويكون الضعفاء على دراية تامة بإخفاقاتهم. ففي ضعفهم يسمحون لأنفسهم بأن يتأثروا بادّعاء الكمال هذا. حتى أن البعض قال لي: "لن أتمكن أبداً من أن أظلّ مسيحياً؛ لن أتمكن أبداً أن أكون بلا خطية مثل أولئك الناس!" على المرء فقط أن يفتح الكتاب المقدس كي يرى أنه أقرب للمسيح من الناس الذين يبشرون به.

ومع ذلك، لستُ أنكر أن هناك عظمة محددة في الصرامة الأخلاقية التي يفرضها بعض المؤمنين على أنفسهم. فهم يمتنعون عن المسكرات، والتدخين، والقمار، وارتياد المسارح، والرقص؛ ويفرضون على أنفسهم تأديباً دينياً لا يمكنني للأسف التوّصل إليه. وفي الواقع، فإن هذا كله يتم في سبيل محبة الله - وهذا ما يمثل قيمتها في نظرهم، ومن ثم فإني سأكون بنفسي الفريسي إن ألقيتُ عليهم حجراً.

يرى المرء مدى تعقيد المشكلة. وإني لأحصر نفسي هنا للنظر إليها حسب الرؤية النفسية. فالكمال الأخلاقي غالباً ما يبدو ردّ فعل قوياً، بمعنى أنه يكون وسيلة لإثبات نفسه من خلال كبريائه باتباع تأديب صارم، ووسيلة لظهوره قوياً ومؤثراً على الآخرين بسمعة فضيلته.

ولكن، من الناحية الأخرى، إن اعترفتُ في هذه الصفحات بالخطايا التي أكتشفها يومياً في نفسي، فإني أعرف جيداً جداً أن هذا قد يخفي رغبةً ما للتأثير على القارئ بإخلاصي.

ومع ذلك، فقد يكون مظهر الفضيلة أمراً خطيراً. فهو يغري الشخص لحماية سمعته التي يكون أسيرها، وذلك على حساب الكبت بدلاً من التحرر. وأحياناً ما نرى مرضى

يتمتعون بسمعة أنهم ملائكة، ولا تكون لديهم إخفاقات، لكنهم يلعنون قناع القداسة هذا الذي ارتدوه لحماية قلقهم. كل إنسان يمدحهم، وكل إنسان يظن أنهم أقوياء؛ ولكن في خصوصية دراستي يعترفون في دموع بمدى الضعف الذي يشعرون به.

غالباً ما ينطبق نفس الوضع في حالة التميز بالشجاعة- ردّ الفعل القوي دون منازع. وهنا أيضاً توجد حلقة مفرغة. فالشخص الجسور لا يُتوقع منه أبداً أن يضعف. فكل شخص يعتمد عليه ويدفعه للمقدمة: فهو الذي لا بدّ أن يتلقى الضربة، ليس عن نفسه فحسب، بل عن كل من تعلقوا به، وهذا دون الاعتراف بما يكلفه ذلك من قلق وخوف من المصارحة.

لا بدّ هنا من جديد أن نحترس من التعميم. فنظامنا الحالي للتعليم لا يقدم ما يكفي لتنمية الشجاعة. لستُ أقصد أن أدين كل ردود الفعل القوية. فإن كان شخصٌ ما لا يتصرف بردود أفعال قوية، فإنه يتصرف بردود أفعال ضعيفة، وهذا ليس شيئاً أفضل. المهم أنه يجب ألا نكون عبيداً لأيٍ منها، وتلك الحرية موجودة فقط من خلال الروح.

نفس الأمر يمكن أن يقال عن كل خاصية أخرى. فالحماس للعمل الشاق شئ ممتاز. ولكن في حالة فتاة معينة فإن التصميم العنيف كي تكون الأولى في فصلها يكون مجرد ردّ فعل قوي تجاه عذابها السرّي الذي تسبّبه غريزتها الجنسية وسقطاتها المتكررة. ففيما بعد في حياتها تقول لي هذا، بعد أن تكون قد أبلت بلاءً حسناً تكتشف أنه رغم كل عملها الشاق المحموم لم تجد ارتياحاً لتوترها. رجل كرَّس كل طاقاته لإحراز النجاح في الحياة؛ فقد كان كل اهتمامه الأول هو تقدمه المهني. وهو يدرك أن المصدر السرّي لهذا الحافز المُلح هو حاجته لإعادة تأهيل نفسه في نظر أسرته التي كانت تعتبره أثناء طفولته عديم القيمة. رجل آخر يتعرض للمرض عندما يتم تعيينه في الوظيفة المهمة التي كانت بمثابة طموحه الوحيد لسنوات. طالب متوعك

الصحة يكون مجتهداً جداً لدرجة أنه يحصد كل الجوائز. لكن عمله الشاق يكون ردّ فعل قوياً ضد مشاعره بالنقص من الناحية الجسمية، وحالما يجتاز امتحانات التخرج يعترف أنه عاجز عن مواجهة الحياة اليومية. رجل أدهش الجميع بقدرته الهائلة على العمل، لكنه يعترف لي بأنه يجد في عمله تعويضاً عن عجزه الجنسي.

نفس الأمر ينطبق على المثالية. يكتب د. مايدر: "المثالي يميل لخداع نفسه، بينما الإيمان الحي ينظر للأمور نظرة واقعية." في الواقع، غالباً ما نقابل نوعاً عدوانياً، عنيداً من المثالية تكون مجرد ردّ فعل قوي، وسيلة للتحكم في الواقع بكل مشكلاته وصعوباته. فالمثالية من هذا النوع إنما تؤدي فقط إلى كوارث، وخصوصاً في حياة الشخص المهنية أو في حياته الزوجية. رجلٌ يلقي نفسه بسذاجة في مسئوليات مالية غير مضمونة. لا يميز المخاطر الكامنة فيها، وكلما تورط في ديونه، كلما تصوّر أن معجزةً ما سوف تنقذه، وكلما صار أقل استعداداً للاعتراف لنفسه بخطورة الموقف. رجلٌ آخر يُصوِّر المرأة التي يتزوجها كصورة الكمال المطلق، وعندما تظهر بينهما الصعوبات، يجد نفسه عاجزاً عن حلِّها، وذلك لأنه غير مستعد لها بالمرة.

أخيراً، هناك نساء كثيرات يتزوجن من نابع شعور مثالي بالشفقة، كي يُخلّصنَّ رجلاً ما من تعاطي المسكرات، أو من عقدة جنسية، أو من التورط في الديون، أو من تأثيرات افتقاده لقوة الإرادة. وببساطة، لأنهن لم يُقدِّرن الصعوبات، ظانات أن الحب سيعمل المعجزات، تغرقن معهم في كارثة بعد الأخرى.

غالباً ما يمكن قول نفس الشئ عن الكرم. فالهدايا المفرطة، والقروض الكبيرة وغير المبررة، والدخول في ضمانات بثقة زائدة عن حدها، والتبرعات المبالغ فيها - كل هذه قد تكون ردود أفعال ضعيفة كما سبق وأوضحت. لكنها من الممكن أن تكون أيضاً ردود أفعال قوية تدفعها رغبة

الحصول على القوة من خلال المال. تعرّضت امرأة لمشكلة رهيبة فاستدرت الشعور بالشفقة من جانب صديقة. وبعد ذلك تدمر الصديقة نفسها بتقديم الهدايا المفرطة لها، التي تكون فيما يبدو تعبيراً عن رغبة تملكية للاحتفاظ بصداقتها. إن مثل تصرفات الكرم هذه توقظ في المنتفع إحساساً بالذنب يُظهِر نفسه في صورة إنكار الجميل وغالباً في صورة العدوانية.

أحياناً ما تتخذ دوافع ذات طبيعة مشابهة مظهر عقدة حقيقية بالتضحية بالذات. مثال ذلك، امرأة قوية ترهق نفسها وهي تعمل لسداد الديون التي تسبَّب فيها زوج كسول.

بينما التضحية قد تحمل ثمراً كثيراً حين تكون استجابة حرة للنداء الداخلي للروح، يمكنها أيضاً أن تكون عقيمة ومدمرة حين تكون مجرد ردّ فعل نفسي.

ولهذا لا بدّ لنا في كل شئ أن نميز ما هو أصلي عن ما هو مجرد انعكاس نفسي؛ ما ينبع من الاقتناع المُلهم عن ما هو مجرد ردّ فعل قوي أو ضعيف.

كشف التحليل النفسي أهمية ظاهرة العقلنة، أي ابتكار الأسباب المثالية للسلوكيات التي تدفعها غرائزنا لاشعورياً، والاعتقاد بأننا نتصرف نتيجة الولاء لهذه المثاليات. ولكن، فيما وضع المحللون النفسيون في اعتبارهم بصورة أساسية عقلنة الغرائز، فمن الواضح الآن أن العقلنة هي أيضاً تغطية للتوتر الذي تسببه في داخلنا ضعفاتنا وخطايا العمد وخطايا السهو خاصتنا. ربما يقول قائل إن هذا هو أحد ملامح "إرادة القوة"[١٢] الغريزية لدينا. هذا صحيح إلى حدٍ ما. لكن مثل هذا التفسير يبدو بالنسبة لي مقيداً للغاية. ففي التوتر الذي أتحدث عنه هنا، وخصوصاً حين يكون مسألة توتر أخلاقي (ندم) فهناك ما هو أكثر بكثير من رغبة القوة. بل حتى ربما يفكر شخص في هذا بطريقة عكسية، وينظر لغريزة القوة

١٢ إرادة القوة *will to power* - بالنسبة لنيتشه - هي العنصر الجوهري للطبيعة البشرية - المُراجع

نفسها على أنها تعويض نفسي عن تبكيت الضمير. وهذا هو تفسير د. باروك لذلك[13]، وتحليله يتعمق أكثر من تحليل أتباع فرويد. لكنني أدرك أننا نختار هذا التفسير أو ذاك ليس للأسباب الموضوعية بدرجة كبيرة، بل بسبب مفهومنا عن طبيعة الإنسان. فكما في كل المجالات الأخرى، فإن العلم يكشف فحسب وجود علاقة ما: صلة بين توتر الضمير الأخلاقي وردود أفعال القوة. فالعلم لا يقدم أساسات لتبني تفسير معين عن هذه العلاقة بدلاً من تفسيرٍ آخر - أو للنظر إلى الضمير الأخلاقي على أنه إسقاطُ غريزة قوة غير مُشبعة - كما يفعل أنصار فرويد - أو لرؤية ردود أفعال القوة - كما يفعل د. باروك - بصفتها إسقاطاً لتبكيت الضمير المكبوت. فالخطأ الذي يرتكبه أنصار فرويد هو ادّعائهم بأن تفسيرهم له أساس علمي، بينما ينبع في الواقع من الميتافيزيقا خاصتهم.

من الناحية الأخرى، يمكننا أن نتفق جميعاً لو أننا بدلاً من وضع تفسير واحد ضد الآخر، ميزنا ظاهرة التعويض، والإسقاط والعقلنة - مهما كانت ميكانيزماتها - عن الظواهر الأخلاقية الأصلية والروحية، وميزنا ردود الفعل النفسية عن الحركات التلقائية للروح.

بصراحة، من الصعب رسم خطوط التحديد. فإن حاولنا أن نرسمها للآخرين، فنحن نخاطر مخاطرة شديدة بعمل هذا بروح نقد بارة براً ذاتياً، وذلك لأن كلاً منا لا بدّ أن يفحص ميكانيزمات سلوكه. نحن نحتاج فقط أن نجرب هذا على أنفسنا كي نرى فوراً كم من السهل على المرء أن يخدع نفسه.

على العموم، لستُ أقدم هنا المثال اليوتوبي لحياة خالية من ردود الفعل النفسية. فالأمر المشجع بخصوص فحص النفس من هذا النوع ليس إلى حدٍ كبير ما هو يكتشفه المرء بقدر ما يكون حقيقة أن المرء يقوم بعملية الاكتشاف

13 *Op. cit*

نفسها. في الواقع، فيما ندرك بصورة متكررة، أننا أكثر إفلاساً مما كنا نتصور، وأن الأشياء التي كنا نتصور أن باستطاعتنا إضافتها على رصيدنا لا بدّ أن تضاف بدلاً من ذلك في الغالب إلى ديوننا، وأن الضعف يختبئ حتى وراء ردود أفعالنا القوية، فإننا نجتاز أكثر الاختبارات الإنسانية إثماراً. نهجر محاولاتنا العقيمة لحماية أنفسنا من توترنا الداخلي عن طريق الانتصارات في الصراع الاجتماعي، واستجلاب الارتياح من سُمعتنا ومن كل ما نعمله لتحصينها. وأخيراً نلجأ أخيراً إلى الله، الحلّ الصحيح الوحيد للتوتر الإنساني.

هذا هو الطريق الوحيد للحصول على البصيرة التي سوف تُمكننا من أن نميز في حياتنا بين أفعال الإرادة الأصلية ومجرد ردود الفعل الآلية - لا بدّ أن نلجأ إلى الله في الصلاة. لقد سبق وكتبت هذا كثيراً، وكثير من قرائي كتبوا لي يقولون: "نعم، بالطبع هذا هو الحلّ، ولكن كيف نحصل عليه؟"

"كيف نحصل عليه" هو أيضاً عنوان أحد الفصول الأخيرة لكتاب بيتر هاوارد[14]. ومثله، يمكنني أن أجيب فقط من خلال اختباري الشخصي. كيف نحصل عليه؟ يكفي أن نحاول بأمانة. فبالصمت أمام الله سرعان ما نرى أن هذا الفعل أو تلك الملحوظة لم تكن متوافقة مع إرادته، أنها كانت ردود أفعال ضعيفة أو قوية، هروب جبان أو شجاعة مغرورة، وهدفها في كلتا الحالتين هو إنقاذنا من ضميرنا المُثقل.

بالصمت أمام الله نصل بالتدريج إلى معرفة أفضل بأنفسنا؛ ونصل في نفس الوقت لمعرفة ضعفاتنا وخطايانا بصورة أكثر وضوحاً، ومعرفة الطريق الجديد الذي لا بدّ أن نتبعه للتغلب عليها - حتمية الاعتراف بها لقبول الغفران الإلهي بدلاً من إخفائها لقبول استحسانات البشر.

14 *Ideas Have Legs*

الصلاة لن تخلصنا من ردود أفعالنا الطبيعية، سواء كانت ضعيفة أو قوية؛ لكنها ستوصلنا لتمييز طبيعتها، وبالتالي ستوصلنا باستمرار لاختبارات النعمة المتجددة.

٦

ردود الفعل المتبادلة

في دراسة عميقة بعنوان "الخوف والرعب والسياسة"، يؤكد د. أوسكار فوريل[1] على أن الناس يُعلمون أطفالهم "فن الحياة، الذي هو فن إخفاء المرء لخوفه الأساسي، وفي نفس الوقت استغلال خوف الآخرين." أما أنا فاؤمن من جانبي أن كل إنسان يمكنه أن يتصرف بحرية في كل الأوقات، من خلال إلهامه الفردي، وأن هذا هو الفن الحقيقي للحياة ومصدر كل حركة أخرى مثمرة في التاريخ. لكني أتفق على أن هذا نادر جداً، وأن تمثيلية القُوى في المجتمع محكومة في خطوطها العريضة - من جانب الميكانيزم الذي يصفه د. فوريل. الخوف هو المايسترو الغير منظور المتحكم في سيمفونية ردود الفعل القوية والضعيفة بين البشر - أحياناً بصورة أكثر انسجاماً وأحياناً بصورة أقل انسجاماً. يكتب Abauzit[2]: "الخوف المحدد ينشئ فينا- حسب الظروف - إما شكلاً أدنى من الاحتمال، أو أشدّ صور عدم الاحتمال." وما يصفه باعتباره "شكلاً

1 Oscar Forel, "Peur, panique et politique", in *Revue Suisse de psychologie*, 1942 , No .1-2

2 Frank Abauzit, *Le probléme de la tolérance*, Delachaux and Nieste, Neuchâtel, 1939

أدنى من الاحتمال" هو ما أطلقنا عليه ردّ الفعل الضعيف، أي الاستسلام من خلال الضعف، والخضوع دون اقتناع، وأن يُطبق المرء على قبضته في غضب. أما ما يُطلق عليه "عدم الاحتمال" فهو ما وصفناه باعتباره ردّ الفعل القوي، روح المعارضة، عناد الفكر الذي يجعلنا نفرض أفكارنا على الآخرين خوفاً من أن يفرضوا هم أفكارهم علينا.

في هذا الخصوص يختلف المجتمع البشري قليلاً عن مجتمع القرود. يصف زاكرمان[٣] الاتزان الأكثر أو الأقل سلاماً الذي يتحكم في حياة مجموعة من القرود بمجرد أن تتأسس سلسلة من القُوى، أو إن شئتَ مجموعة من المخاوف، بين كل الأفراد. على رأس هذه السلسلة هناك أقوى ذكر الذي تعتمد سلطته على خوف البقية. كما أن وصول عضو جديد في هذا المجتمع تعقبه فترة اضطراب، وصراعات أكثر حدة إلى أن يتأسس اتزان جديد للقُوى آجلاً أو عاجلاً.

هاتان المرحلتان موجودتان أيضاً في المجتمع البشري. ففي أي تجمع ـ الأسرة، الشركة، المؤسسة، المنظمة الدولية ـ هناك فترات من عدم الاستقرار يتخذ خلالها تفاعل القُوى شكلاً عنيفاً: مشاجرات غاضبة، محاولات تخويف، لجوء إلى القوة، الحرب، الهروب، الرعب، والحيرة. لكن العلاقة الداخلية بين القُوى تميل إلى أن تتبلور في حالة واضحة من السلام تكون مكونة من نمط ردود الفعل القوية والضعيفة. وبالتالي يكون هناك نوعٌ من القبول المتبادل؛ فكل فرد يلعب دوره، خاضعاً لمن قبلهم بصفتهم أقوى، ومستغلاً من هم أضعف. هناك اتحادات، وتحالفات، ومؤامرات، معركة دائرة تحت سطح كل مرحلة، ودائماً ما يكون نفس الأفراد هم الذين يعانون.

نتعلم أن نميز على الفور بين الأقوياء والضعفاء ـ فبخصوص طريقة جلوسهم على الكرسي مثلاً يسترخي

[٣] *Op. cit*

الأقوياء في ارتياح، بينما الضعفاء في المقابل يجلسون على حافة الكرسي. الأقوياء يمددون أنفسهم، يجعلون أنفسهم محطّ رعاية الآخرين، يتكلمون بسهولة، يتعلمون كيف يخفون ضعفاتهم وكيف يؤكدون على نقاط قوتهم، ويستخدمون عند الحاجة شكلاً ماكراً من الخداع. ولكن حتى عندما يشرح الشخص القوي فكرة أكاديمية معينة، فمن السهل أن نرى أن شخصية كمن يضع القانون للآخرين، وهكذا يدعم هدفه مكانته الخاصة. أما الأضعف فينسحب كما لو لم يكن يتمتع بحقّ الحياة. فيكون صامتاً ومنتقصاً من حق نفسه، ومعجباً بالآخرين وغير متأكد من استحقاقه الشخصي. عندما أكون في أحد المحال التجارية غالباً ما أسمح للزبائن الذين جاءوا بعدي أن يأخذوا دوري إن لم يأتِ البائع نفسه ليسألني عما أريده. في العام الماضي كنت في أحد المؤتمرات بالخارج، وذات يوم لم تعمل سيارتي. وبعد تردد كثير قررت أن أطلب من صديق كانت لديه سيارة أن يدفع سيارتي كي تعمل. ولكن كان لا بدّ أن أتغلب على مقاومة داخلية قوية: فقد دقّ قلبي دقات أسرع عند التفكير بإرباك صديقي فيما كان يعمله. وفي اليوم التالي خلال فترة راحتي رأيت حجم الدور الذي لعبه هذا النفور لطلب المساعدة في حياتي، فقد شوّهها ومنعني من أن أكون حراً وصريحاً، وكيف أنه كان عموماً نابعاً من الخوف والكبرياء. كان هناك صديق معي، فاعترفت بكل هذا له. وصلينا لله معاً حتى أتوقف عن هذا الخوف والكبرياء.

وبالتالي، فإن ردود أفعالنا الضعيفة تنبع على الأرجح من الكبرياء مثل ردود أفعالنا القوية. ذات مرة قدمت لي إحدى مريضاتي وصفاً مجازياً لمشاعرها، وقد خصصت لكل شعور صفة محددة: الضيوف المزعجون العُنفاء هم التمرد والحق والشك؛ العمل الشاق هو النشاط؛ الإيمان هو مخلوقة ضعيفة تدبرت حالاً النجاة من الأمراض التي كان يتوقع المرء أن تستسلم لها. ثم كان التوأم، الخجل والكبرياء،

متطابقان جداً لدرجة أنه من السهل الخلط بينهما. "ولأن الأنسة كبرياء دائماً ما تُصدّ وتُحتقر، فإنها تحاول الخداع بارتداء نفس ملابس أخيها الخجل."

يمكننا أن نفهم بالتالي الانسجام الغريب الذي ينشأ في كل مجتمع في تفاعل ردود الفعل المتبادلة لكل أعضائه. في الواقع كلنا نحمل في قلوبنا مشاعر متعارضة بصورة تلقائية ومرتبطة بنفس الأشخاص. فقد تكمن تحت مظهر الحب المتقد رغبة في السيطرة والتملك تكون في الواقع شكلاً من أشكال العدوانية. كما أن الخضوع قد يكون وسيلة لنصب فخ معين - أن يدفع المرء شريك حياته لإظهار السيادة التي يشكو منها، وذلك لتغذية الحقيقة التي تكمن خلف الخضوع.

هذا يفسر أيضاً التحولات المثيرة المفاجئة التي غالباً ما نلاحظها في سلوك الناس تجاه بعضهم البعض. وبالتالي، رجل يختار امرأة مختلفة عنه تماماً، مدفوعاً برغبة حدسية كي يجد ما ينقصه. ينجذب إليها بسبب الكنوز المجهولة التي تكشفها له. ولا تكون هناك خطيبة، بالنسبة له، أكثر إسعاداً وأكثر اهتماماً. يتزوجها؛ لكن صورته عن نفسه كزوج تجعله لا يحتمل أن تفكر هي وتتصرف بصورة مختلفة عنه هو. افترض أنه قد تزوجها لذاتها، أما الآن فإن نشاطها إنما يثير أعصابه لأن هذا يضعه هو في الظلّ. وهكذا يكون المحب المتحمس قد أفسحَ المجال للزوج العنيد المستبد.

أظهرت مدرسة بافلوف أن كل بؤرة خاصة بالإثارة في الجهاز العصبي تنشئ حولها منطقة تثبيط. وعلى هذا المقياس، فإن المجتمع يتصرف ككائن حي: فردود أفعال البعض القوية تدعم ردود أفعال الآخرين الضعيفة، وبالعكس؛ لكن الكائن الحي أكمله تحكمه نفس العوامل ويميل تجاه نفس الغرض. وكلما كانت سيطرتنا كبيرة بدرجة كافية وكانت مخاوف الآخرين تشجعنا، فنحن نتتبع مغامراتنا الدبلوماسية البسيطة من خلال طريق ردود الفعل

القوية؛ ولكن إن تغير النمط الاجتماعي، نسعى لإحراز نفس الغايات عن طريق ردود الفعل الضعيفة.

تتكون تبادلية مستمرة بين الأقوياء والضعفاء، بين الشرطي واللص. فقد كان من المدهش حين سمعنا مؤخراً أنه خلال إضراب ما لضباط الجمارك الفرنسية في إقليم St Gingolph أن المهربين قرروا تأجيل عملياتهم. لا شك أنهم انزعجوا بغياب خصومهم؛ الذين كانوا أيضاً مبرر وجودهم. الضعفاء يحتاجون الأقوياء؛ فإن اختفى الشخص السائد عليهم فإنه يُستبدل على الفور بشخص آخر؛ يتهمونه بدوره بمنعهم عن إظهار شخصيتهم. والأقوياء أيضاً يحتاجون الضعفاء؛ فإن تزوجت ابنة أم مسيطرة زوجاً يحررها من تأثير أمها، فإن الأم تنقل استبدادها إلى زوجها هي، الذي تديره كقطعة شطرنج تلعبها فيما بعد ضد زوج ابنتها.

نحن معتادون، بصورة كبيرة، على اعتبار أن ردود أفعالنا هي التعبير الأصلي لقوة الحياة السارية فينا، لدرجة أننا نحتاجها لإنماء الميكانيزم الذي يقدم لأنفسنا مفهوماً خاطئاً عن الحياة. فالعمل الحقيقي يتطلب مجهوداً أكبر بمراحل من الخيال الإبداعي. وهذا حقيقي جداً لدرجة أنه في بعض الأسر يتم تكرار نمط واحد بصورة منتظمة لا يمكن تصديقها. فالزوج مثلاً يُبدي نفس الاعتراضات حول عدم تجهيز الوجبات في مواعيدها. أما الزوجة فتبقى مخلصة لدورها في النمط: فرغم الجهود المستحقة للمدح، لا تكون مستعدة أبداً في الميعاد. ودائماً ما تقدم نفس الاستجابة، موبخةً زوجها بسبب العمل الإضافي الذي يسببه لها من خلال إهماله. وبعد هذه البداية الغامضة يفقد الزوج أعصابه تجاه هذه الشكاوى - رغم اعتياده عليها تماماً - وتلوذ الزوجة بردود الفعل الضعيفة، مُصرِّحة أن أحداً لا يفهمها وأنها غير سعيدة، وتتحدث عن مغادرة البيت. وبعد ذلك تأتي سلسلة من الهجومات القديمة والتلميحات القديمة، وتكون

بنفس الدقة كما لو كانت مسجلة على شريط كاسيت، إلى أن يظهر النزاع الأخير - كسلاح سري في حرب دائرة - وهو لجوء الزوجة للدموع. لكن هذا السلاح يكون أقل سرية مما يظن المنتصر والمنهزم، وذلك لأنه دائم الحدوث، ولأن كلا الطرفين توّقع أن الجدال سينتهي على هذا الحال.

يرى المرء هذه البللورة المتدرجة من ثنائيات علاقات السيطرة - الخضوع في الكثير من الأسر والمجموعات الاجتماعية. ولكن عندما يتدخل عنصر جديد، تكون لدينا الحالة غير المستقرة من جديد. أدوار كثيرة مؤسسة على هذا المبدأ: في المجتمع المؤسس بطرقه الخاصة - الذي يلعب فيه كل عضو الدور التقليدي المحدد له من جانب الأعراف - يظهر حدثٌ غير متوقع أو عامل بسيط يقلب النظام المؤسس تماماً. كل شخصية تظهر في ضوءٍ جديد، وتنكشف طبيعتها الحقيقية فجأة. كما أن الطبيعة الإنسانية تنكشف في عنفها وجُبنها بالإضافة إلى حل الأكاذيب التي سببّت الاستقرار الاجتماعي الظاهر. وفي الفوضى الناتجة يتم اعتبار من كانوا يبدون متآمرين أنهم منافسون.

وهكذا نرى في الحياة أسلحة الأقوياء تتحول ضد من استخدموها: نفس ردود الفعل العصبية التي أحكمت بها إحدى الزوجات قبضتها على زوجها يتضح أنها بلا جدوى عندما تكون كبيرة السن أو مريضة؛ كما أن نفس الشكاوى التي نالت بها إذعان زوجها إنما الآن تغضبه، وتكون الاستجابة الوحيدة التي تحصل عليها هي سلسلة توبيخات تُسّرع بهزيمتها. كما أن نفس الحُجج المرتبطة بسلطته والتي دائماً ما يُسكِت بها الأب وقاحات ابنه حين يكون صغيراً هي التي تثير فيه التمرد عندما يصل مرحلة المراهقة.

إن فكر المرء في الموضوع، يرى أن الأقوياء منذ البداية لديهم شعورٌ مُسبق بأن قوتهم لن تدوم إلى الأبد، وأنه لكي يؤخروا انهيارها بقدر الإمكان، فإنهم يعمقون أنفسهم أكثر فأكثر فيما وراء دفاعات ردود أفعالهم القوية إلى أن يأتي

اليوم الذي يتسببون فيه في انهيار أنفسهم. وهذا هو تاريخ كل ديكتاتور - وهم موجودون في كل مكان. علاوة على ذلك، فإن أمثال هؤلاء الناس - كالديكتاتوريين - يُصرّحون بنواياهم السلمية المخلصة. وبالطبع، طالما أنهم يحكمون دون معارضة على من هم حولهم، فهم يؤكدون على السلام، كما في مجتمع القرود الذي كنا نتأمله منذ قليل. وبصراحة يؤكدون على أن السلام كان سيدوم لفترة أطول لو لم يكن قد ظهر أحد المحرضين على الاضطراب وتصب نفسه ضد الإرادة الحاكمة.

ومع ذلك، فإن التخويف أبعد ما يكون عن كونه السلاح الوحيد المستخدم من جانب الأقوياء. فسيطرتهم غالباً ما تستند على الإعجاب الذي يثيرونه، ومظهرية سُمعتهم بالكمال. ولكن يمكن رؤية نفس سلسلة الأحداث هنا أيضاً: فلا شيء يدعمهم كثيراً جداً بقدر أن يروا أنفسهم وكأنهم نماذج قدوة. وحتى أدق اختباراتنا الدينية يمكن استخدامها كأسلحة للسيطرة على الآخرين، هذا إن لم نهتم بالأمر. وحتى عندما نحصي أخطائنا ومراحم الله نحونا، يمكننا أن نتذوق المتعة المتباهية لاستخدام أنفسنا كنماذج قدوة. لكن الخضوع الناشئ عن الإعجاب إنما هو خضوع عقيم. وعليه، غالباً ما نرى زوجة يحبها زوجها ويُعجب بها لكنه يمقتها في النهاية، وذلك لأنه لا يشعر أنه نظيرها.

من الممكن تصنيف الناس حسب عقليتهم بالتدريج من الأبسط إلى الأكثر تركيباً. عادةً ما يكون البسطاء أقوياء والمركبون ضعفاء. مثال ذلك، الطبيب ذو التركيبة الذهنية البسيطة، والذي يميل لرؤية الأشياء بطريقة الأبيض والأسود، يكون ممتلئاً بالثقة بالنفس؛ فهو يعلن تشخيصه فوراً وبلا تردد، ويصف علاجه بقوة وسلطة، ولا تساوره شكوك إزاء نجاح العلاج، ويحسن كثيراً إلى مريضه بنقل ثقته إليه، حتى إن كان على خطأ. أما على الجانب الآخر فإن الطبيب ذا التركيبة الذهنية المركبة الذي يرى

جوانب كثيرة لكل سؤال، ويتردد؛ فإنه يكون على دراية بكل الاعتراضات التي قد تُوَّجه لكل تشخيص؛ فيؤجل دائماً اتخاذ القرار، وذلك كي يرى كيف ستبدو الأمور؛ ويقول باحتراس: "قد نجرب كذا وكذا من العلاج، ولكن من المشكوك فيه جداً أنه يقدم أي تحسن!" هذا الطبيب قد يكون مفيداً أيضاً بسبب إخلاصه. فهناك مرضى يتوقعون من الطبيب فوق كل شئ تأكيد ودعم الأقوياء. وآخرون يبحثون عن ارتياح وتفهم الضعفاء.

وفي الأمور الروحية أيضاً نجد نفس نوعي الناس: البسيط والمركب. بالنسبة للبسيط، ليس هناك غموضاً على الإطلاق؛ فهو يشرح بثقة كل شئ عن الله واللاهوت؛ وهناك حقٌ واحد يشرحه بلطف؛ كما أنه يعظ الشخص الأكثر تركيباً، وبالنية الخالصة لخلاصه يحثّه لقبول أفكاره ومعتقداته. لكن الثاني يكون حساساً جداً تجاه غموض الإلهيات الذي لا يمكن استكشافه لدرجة انه لا يقدر على أن يقبله، ومن ثم يصل للشك في مسألة إيمانه بالمرة.

وبهذه الطريقة تميل العلاقات بين الناس لإضعاف الضعفاء وتقوية الأقوياء. فكلما يشعر الضعفاء بفقرهم وسحقهم، كلما يلجأون للآخرين للمساعدة والنصح. ويكون الأقوياء على أتمّ استعداد لتقديم هذا لأنه دائماً ما يكون من المباهاة بالنسبة لهم أن يكونون قادرين على إخبار شخص ما بالشئ الصحيح الواجب عمله. وما يكون لدى الأقوياء هو تفاؤل طبيعي يمنحهم الثقة؛ فقد وجدوا طريق السعادة وهم مستعدون لنقل السرّ للآخرين. ولكن حين يحاول الضعفاء تطبيق الوصفة، بميلهم الطبيعي للشك، فإنهم يفشلون. وهذا الفشل بدوره يفاقم شكّهم، ورعبهم، وشعورهم بأنهم ضعفاء بينما الآخرون أقوياء. وهذا ما يشكو منه د. بيير بوفييه في Drs Pauchet and Morche: حيث يكتب: "إن سعادتهم ترجع إلى ميلهم الفطري، لكنهم يتباهون بها كما لو كانت

بسبب النظام الفلسفي الذي يدافعون عنه."[4]

ولهذا السبب أيضاً، فإن الأطباء ذوي الشخصيات النشطة المتفجرين بالصحة، يمكنهم أن يثيروا - إن لم ينتبهوا- نوعين من ردود الفعل في مرضاهم: إما الاعتمادية المفرطة، وهي رغبة متحمسة للعيش في التوهج المريح لحيويتهم؛ أو الإحباط المطلق، وهو شعورهم بالانهزام أمام التباين بينهما، وأخيراً العدوانية الدفاعية.

ومع ذلك، فمن الغريب أن نلاحظ أن مشاعر النقص كثيراً ما تكون متبادلة. فعندما صَرَّحتُ لأحد أقرب أصدقائي بأنه كانت لديَّ مثل تلك المشاعر تجاهه، انفجر ضاحكاً وقال: "ليتك تعلم كم غالباً ما أشعر نفس الشعور تماماً تجاهك أنت!"

هذه التبادلية غالباً ما توجد بين الزوج والزوجة. فالزوجة تشعر بالضآلة بجانب الزوج بعقله المنطقي الذي يفسر ويبرهن كل شئ؛ والزوج يحسد زوجته على حدسها وحساسيتها التي تمنحها مفتاح الممالك الروحية التي يشعر فيها الزوج بالاضطراب التام. ونتيجة ذلك ينسحب إلى قوقعة نظامه المنطقي. ويعترف بهذا الاحتقار للضعفاء لدرجة أن زوجته ترهق نفسها بالعمل المفرط، دون أن تلاحظ أن فلسفة زوجها الرزينة تخفي شعوراً بالذنب لأنه يترك المجال سراً لرغباته.

غالباً ما يرى المرء ما يمكن أن يُطلق عليه في البورصة "الميل التنازلي" في التأثير المتبادل لردود الأفعال الضعيفة. فالزوجان - وكلاهما ضعيف - يحاول أحدهما أن يزايد إذا جاز التعبير، في ردود الفعل الضعيفة. فكلٌ منهما ينتقص من شأن الآخر. ويتصاعد ضَيق أحدهما بانعكاس ضَيق الآخر، وكلٌ منهما يشكو من أنه لا يجد في الآخر الدعم الذي يبحث عنه كلاهما. وهذا بمثابة رجل تغرق قدماه أكثر

4 P. Buffiére, *L'avenir médical*, Paris, July - August, 1942

فأكثر في الرمال الناعمة.

لكني أوضحت أيضاً أن ردود الفعل القوية دائماً ما تكون شكلاً من أشكال الوقاية التي تخفي وراءها ضعفاتنا. وبالتالي فبعد "الميل التنازلي" لا بدّ أن أنتقل إلى "الميل التصاعدي". ورغم وضوح تعارضهما، إلا أنهما متشابهان بدرجة متساوية جداً لدرجة أنه ليس من الممكن دائماً تمييز أحدهما عن الآخر. فالزوج والزوجة يغطيان إخفاقاتهما بأن يقدم الواحد للآخر محاضرات عن تلك النقاط التي يشعر فيها كلّ منهما بأنه الأقوى. كما أن أحدهما يهاجم الآخر ويجرحه في نقطة ضعفه الأكثر وضوحاً، وبالتالي يردّ الآخر بنفس الطريقة. وحتى دون الصراع الظاهر، فهذا يقود الزوجين لموازنة أحدهما الآخر، وذلك ما يُسبِّب ضَيقها المتبادل: فإن أظهرتْ الزوجة الخجل أظهر الزوج الجرأة؛ وكلما أخفى الزوج همومه، كلما صارت زوجته أكثر خوفاً. إن تحدث الزوج عن التوفير، تتملك زوجته رغبة جامحة للإسراف، وكلما أنفقت هي كلما وعظها زوجها بالتوفير. كلما كانت الزوجة ثرثارة، كلما كان الزوج صامتاً - وكلما كان الزوج صامتاً كلما تكلمت هي كي تملأ الصمت الرهيب. كلما أعلنت الزوجة عقيدتها الدينية جهاراً، كلما أخفى الزوج قناعاته - وكلما أخفاها، كلما اشتدت رغبتها لتجديده. كلما تحمست الزوجة لمساعدة زوجها في عمله، كلما شعر الزوج بالمهانة، وبالتالي فإنه يتنازل عن مسئولياته فتضطر الزوجة لتوّلي المسئولية بأكملها بنفسها لحماية نفسيهما من الانهيار. كلّ منهما يتخذ موقفه مما هو صحيح في موقفه كي يُطمئن نفسه؛ وكلّ منهما يستنكر الأخطاء في موقف الآخر. وهذا يُخلّد ويفاقم تأثير التوازن، ويقلّل فرص تغيير مواقفهما الشخصية. أحياناً ما يكون حدث تراجيدي كوفاة أحد الأطفال هو الشئ الوحيد الذي سوف يكسر الحلقة المفرغة ويجمع الزوجين من جديد.

وإلا من الممكن أن يؤدي الموقف إلى قسوة متبادلة

حقيقية، حتى بين الزوج والزوجة المتحابين.

هذه المنافسة على السيادة يمكنها أن تتحذ أشكالاً كثيرة أكثر أو أقل وضوحاً. فآجلاً أو عاجلاً تدفع الأقوياء للصراع بين بعضهم البعض. كما يحدث على كل المستويات، من القصص الطويلة والخداعات الساذجة التي تشكل أساس "تفضيل النفس عن الغير" إلى سباق التسلح بين الأمم الكبرى.

***

ما رأيناه للتو يلقي ضوءاً خاصاً على عمليات التاريخ. لنتذكر مثال البروفيسور زاكرمان عن مجتمع القرود. فتوازن القُوى في المجموعة يحدده الخوف. كما أن قوة الأقوى مستندة على الخوف الذي يبثّه في كل الآخرين. والخوف يضمن أيضاً تماسك المجموعة، التي يسعى كل عضو منها للحماية في ظلّ هذه القوة الجمعية المتجسدة في الفرد الأقوى. وفي المجتمع البشري نجد الخوف يمثل نفس الوظيفة المزدوجة، إذ يحفز ميلاً تجاه التركيز والمركزية، ويشكل نمطاً للمجموعات الأكثر شدة والأكثر قوة التي تصير بالتدريج أصغر عدداً إلى أن تلتحم ببعضها البعض في النهاية وبصورة حتمية في صراعات هائلة.

وبالتالي فإن الأسياد الصغار الذين لا يحصون في العصور الوسطي أفسحوا المجال بالتدريج للأمم المركزية العظيمة في يومنا هذا. فالدولة تميل إلى أن تصير القوة الفائقة للمجموعة التي يحتمي كل فرد في ضعفه تحت جناحيها. وأعتقد أن هذا هو تفسير حالة الدولة الحديثة. ففي نفس الوقت الذي يتذمر فيه كل فرد بخصوص الدولة، فإنه يسهم لتدعيم قوتها، وذلك لأنه يسعى للحماية من الخوف في تلك القوة. لكن كل فرد يشعر أيضاً بصورة حدسية أن سباق القوى لا بدّ وأن ينتهي بكارثة. في الواقع، بما أن هذه العملية تنتج جبهات قوة أقل فأقل لكنها أقوى

فأقوى، يصير الصراع بينها أكثر فأكثر حتمية. علاوة على ذلك، فإن الحركة تتعالى وتتساقط بالخوف. فما لم يحدث تدخل روحي، فإن البشرية تميل إلى أن تنقسم إلى تحالفين عظيمين، يكونان مُعرّضين للتصادم.

يمكن تتّبع هذه الحركة دورياً عبر التاريخ. لستُ كفئاً لتحليل نتيجتها في كل حالة، لكنها أحياناً - كما في حالة انقسام الإمبراطورية الرومانية الهائلة - ما تؤدي إلى انقسام جديد للقوة.

بسبب ظاهرة العقلنة، يميل كل عصر إلى تركيب فلسفة يفسر بها ما يختبره تحت ضغط دوافعه اللاشعورية.

إن أفعال الشعوب - مثل أفعال الأفراد - تحكمها هذه الدوافع. فالخوف هو القوة الدافعة العظيمة وراء السياسة، والاقتصاد، والثقافة. فهو يلعب في تطور المجتمع نفس الدور الذي يلعبه في تطور الفرد؛ ومع ذلك، دائماً ما يتم تقديم المجتمع والتاريخ لنا بصفتهما محددين من جانب الحقائق المادية والموضوعية.

إن الأسطورة الحديثة عن القوة، التي يعتبر نيتشه هو المتنبئ الرئيسي عنها والتي تعاملت معها في كتابي *De-sharmonie de la vie moderne*، التعبير الفلسفي عن عملية تركيز القوة هذه، الأصل العاطفي الذي ندرس عنه هنا. ومع ذلك، فإن صياغة المعتقد نفسها تؤكد على الحركة، مُقنعةً الجنس البشري بأن القوة هي القيمة الأسمى. وقد استبدل عصرنا احترام الفرد الإنساني، وحماية الضعفاء، وعمل الخير وضرورة خلاص الله الذي تعترف به المسيحية، بعبادة الدولة، وتوقير القوة، وسحق الضعفاء في صراع الحياة، والثقة بعظمة الإنسان "الذي يتسلق بلا توقف سلم التقدم والقوة."

وهذا هو ما يجعل مشكلة الأقوياء والضعفاء خطيرة جداً اليوم. فنحن نعيش وسط فلسفة كاذبة تتملق الأقوياء وتحتقر

الضعفاء؛ وتتظاهر بتصديق أن الخلاص يكمن في انتصار الأقوياء على الضعفاء؛ وتنكر الضيق المرعب للإنسان؛ وتشجع الأقوياء في ردود أفعالهم القوية الخطرة؛ وتدفع الضعفاء لردود أفعالهم الضعيفة المدمرة.

إن العالم الحديث قاسي على الضعفاء. والطبيب يكون مهيئاً جيداً لملاحظة هذا. لكن مشهد اضطهادهم الظالم يصير شائعاً جداً لدرجة أنه يصل حتى إلى اعتباره كقانون لا يرحم بدلاً من اعتباره إدانة مرعبة لعصرنا. وأخيراً يتوقف عن الثورة، والاعتراض، واستنكار ظلم أزماننا، والدفاع عن الضعفاء. وينتهي به الحال وهو يقول لهم: "ماذا تتوقعون؟ العالم ظالم. كونوا أنتم أقوياء ودافعوا عن أنفسكم وصدّوا هجوم الآخرين."

في جوهر دعوته يكون الطبيب هو المدافع عن الضعفاء. كنت أفكر في هذا مؤخراً وأنا أستمع إلى البروفيسور إيكرودت من بازل. ففي مجرى محاضرة عن الرسالة السياسية والاجتماعية للعهد القديم كان يُبيّن أن المبدأ الجوهري للتشريع المُوحى به سماوياً للإسرائيليين كان هو حماية الضعفاء ضد تهديد الأقوياء. وقد كان هذا هو هدف الشرائع المرتبطة بالأملاك والمصممة لمنع تركيز الأملاك في أيدي الأقلية؛ وسنّ سنة يوبيل، وما إلى ذلك. وقد كان الواجب دائماً أن تكون هذه هي الوظيفة الأساسية لكل المنظمات الإنسانية السياسية، والتشريعية، والاقتصادية، والاجتماعية، وأيضاً العادات، والتقاليد، والأحداث السائدة للرأي العام. وكلّ منا يمكنه أن يحسب لنفسه كم شردنا اليوم عن هذا المثال.

من خلال غرف المشورة الخاصة بنا يمرّ كل ضحايا المجتمع الحديث. فغالباً ما تكون أثرى الشخصيات، والفنانين، والحساسين، وأصحاب القلوب الكريمة، وأصحاب أروع التخيلات هم الذين يأتون إلينا كأشخاص منهزمين. يكتب د. جورجيس لينجم Georges Liengme: "من بين أصحاب

الاضطرابات العصبية توجد الشخصيات الإبداعية حقا."[5] لكنهم خجولون من ضعفهم، وذلك لأن مجتمعنا يحتقر الضعف. وعند ظهور الاضطرابات الوظيفية التي تسود بصورة متزايدة في عصرنا، فإنهم يخجلون منها أيضاً، وذلك لأنهم يشعرون أنها علامة الضعف، وهذا الخجل الزائف يفاقم من حالتهم. يقول الطبيب: "لا شئ؛ مجرد أعصاب متوترة." ويقول الزوج: "إني أصاب بحالات الصداع أيضاً، لكني لا أسبِّب هذه الضوضاء." أحياناً لا يقول أي إنسان أي شئ، وذلك لأن المريض يخاف التكلم إلى أي شخص عن حقيقة أنه يشعر بوجود شئ خاطئ فيه، ويرهق نفسه متصوراً سًّرا كل أنواع الأسباب الخيالية، وخصوصاً في حالة الأحاسيس الجنسية الطبيعية تماماً. وأحياناً ما تتبع الاضطرابات الوظيفية من أكثر الأنواع انتشاراً بعضها البعض في سلسلة لا تنتهي بصورة واضحة. وكل هذا يُسبِّب المهانة، ونقص الثقة بالنفس، والمخاوف الهائلة التي تثير وتنمي بدورها ردود الفعل الضعيفة التي تشكل طبيعة هذه الاضطرابات الوظيفية.

وبالتالي، فإن الرجل الذي كان في طفولته ضحية ظلم أو ضحية مرض، ولم ينل أية فرصة في الحياة، والذي فشل عندما كان صغيراً في الوصول إلى سلم النجاح - النجاح حسب مفهوم العالم - يجد أن كل الأبواب التي ندافع وراءها جميعاً عن مكانتنا الصغيرة في الحياة هي أبواب موصدة ومغلقة. يكتب إيريك دي مونتمولين Eric de Montmollin: "مجتمعنا لا يحتقر الفقراء تماماً، لكنه لا يعتبر من ليس لديهم عمل ثابت لأن أولئك هم الذين لم ينجحوا."[6]

***

5 G. Liengme, *Pour apprendre à mieux vivre*, La Baconniere, Neuchâtel, 1947

6 E. de Montmollin, la tâche saciale de l,Eglise, an unpublished lecture, 1946

هل هذا الاحترام للأقوياء والاحتقار للضعفاء أمرٌ شرعي؟ وهل هو حتى مفيدٌ للمجتمع من وجهة النظر العلمية البحتة؟ هل قيمة الإنسان تكمن في قوته، في استعداده لشقِّ طريقة عبر الحياة، وتحرير نفسه من الصعوبات، والدفاع عن نفسه وفرض إرادته على الآخرين؟ هذه هي الأسئلة التي تتزاحم في أذهاننا.

إن قيمة الإنسان الحقيقية إنما تكمن في تشبهه بالله. فيما يضفي القيمة على أفكاره ومشاعره وأفعاله هو مدى ما تكون ملهمة من الله، ومدى ما تُعبِّر به عن فكر، وإرادة، وأعمال الله. أحياناً ما تكون قوة الله هي التي تكون ظاهرة في شجاعة الإنسان وفي السلطان الذي يتحدث به وفي القوة التي يتصرف بها. ولكن أحياناً أيضاً ما تكون رقة الله هي التي نلاحظها في قلب أحد الضعفاء، وأحياناً ما تكون معاناته المُعبِّرة هي التي نكتشفها في نفسٍ معذبة. تذكر اختبار إيليا، جبار البأس، حين فهم أن الله كان يتحدث إليه عندما كان منكسراً ومحبطاً في البرية بالصوت الهادئ الرقيق بدلاً من أن يكلمه في العاصفة.

الحقيقة هي أن حضارتنا بأكملها تُوحي لنا بمقياس زائف من القيم. فهي تنسب القيمة الإيجابية لكل ما هو قوي، وتنسب القيمة السلبية لكل ما هو ضعيف. فمن المخجل أن تكون ضعيفاً، حساساً، مثيراً للشفقة، أو عاطفياً.

اليوم فقط سمعت من إحدى مريضاتي التقرير المؤلم عن المعركة التي كان عليها أن تخوضها يوماً بعد يوم داخل نفسها ضد تجربة الهروب والانتحار. فمراراً وتكراراً يبدأ الحوار بينها وبين المجرب. يشير إليها بمدى فراغ وبُطل حياتها المحصورة بالمرض. فتردَ: "نعم ليست لديَّ قوة كبيرة، ولكن من الناحية الأخرى لديَّ الكثير من الحب. فالله هو الذي أعطاني ذلك؛ ومن هنا لديَّ مهمة لأعملها رغم أنها بسيطة." فيردَ المجرب: "يا لها من فكرة!" "اليوم، في هذه الأزمنة الحديثة، لم تعد العواطف تهمّ كثيراً. فما يهم

هو مقدار العمل الذي تعملينه والقوة التي تملكينها. فعصر المشاعر والرقة قد مضى. أما أن تكوني قوية، وتمارسي نفوذك، وتكوني قاسية: فهذه هي الحياة. الضعفاء ليسوا مطلوبين بعد؛ فالعالم يريد التخلص منهم."

أتذكر رجلاً كنت أعتبره في أعلى مكانة. فهو خادم مرسوم، وذو طبيعة حساسة، وقد تعذب بصعوبات نفسية معقدة وقوية جعلته فريسة للدوافع المرضية. وقد كانت تنتابه دائماً فكرة أن هذه الأعراض كانت علامة عدم استحسان الله له. ولتجنب الغرق في اليأس تمسك بوعود الكتاب المقدس وكان يوجه أنظاره إلى المسيح باستمرار. ولكن فيما سحقه المرض، فقد مُنَعَ لفترة طويلة عن أداء خدمته. فعاد بشجاعة لمباشرتها دون انتظار العلاج الذي لم يقدر أي من الأطباء الذين استشارهم أن يقدمه له. ولكن، كم كان من المرعب أن أشعر بالعجز عن تقديم الارتياح له، والعجز عن تقديم أية تعزية له إلا تعاطفي، ورفقتي الروحية، واليقين بأن يسوع المسيح أقرب لمن يعانون!

لكن عظمة هذا الرجل - كعظمة كل البشر - إنما تكمن فيما لم يأتَ منه هو. لكنها تكمن في حقيقة أن هذا الرجل - الذي كنت أعرف اضطراباته السرّية - كان يقدم رسالة النعمة بقوة جبارة إلى كمٍّ هائل من الناس الذين يخدمهم. أما أنا فقد كنت أشعر شخصياً بالاستياء أثناء استشاراتنا نتيجة فشلي كطبيب لا بدّ أن يقدم المساعدة، إذ كنتُ أستفيد منه أكثر مما كنت أفيده. وقد كان هناك تباين مدهش بين ضَيق طبيعته البشرية - جسده الضعيف جداً، وتركيبته النفسية الهشة جداً - والقوة الروحية التي كان يتلّقاها من الله. علاوة على ذلك، كانت تجارب صحته الجسمية والعقلية، وتجارب الحرب المستمرة التي كان عليه أن يشنّها ضد الشكوك التي كانت تهاجمه بدا أنها أتون المحرقة الذي كان إيمانه يتنقى فيه. ومثل هذه القوة لا تسحق أحداً.

ذات مرة أسرَّ بهمومه إلى زميلٍ كان لاهوته الصلب

البسيط انعكاس شخصية متفائلة غير معقدة. وقد كان ردّ زميله هو أن الإيمان الأصلي لا يهتز، وأنه منذ يوم تجديده لم يشكّ أبداً! يستطيع المرء أن يتصور تأثير مثل هذه الكلمات على مريضنا، التي بالكاد أخفقت في أن تزرع في ذهنه شكاً ما بخصوص دعوته السماوية. ولكن رغم أن ردود أفعاله النفسية قد انصبّت عليه كالعاصفة، إلا أن إيمانه قد بقى راسخاً.

في غرفة المشورة خاصتي أكون قادراً على ملاحظة أن المؤمنين ليسوا دائماً كما يظن المرء؛ وأن من يتكلمون بالأكثر عن شكوكهم غالباً ما يكونون هم الذين عرَّضهم يسوع المسيح للتجربة دون السماح بانهيارهم رغم كل إخفاقاتهم؛ وأن هناك شخصيات قوية يعجب بها ويخافها الجميع، لكنهم يعترفون سراً بضيقهم بينما هناك شخصيات ضعيفة - أناس يبدو أنه لا بدّ أن ينهاروا عند أول أنفاس المحنة - ومع ذلك يتمتعون بقوة فكر تتخطى التصور.

وهذا ما كان يقصده ألفريد دي موسيت Alfred de Musset حين كتب سطوره المعروفة:

("الإنسان تلميذ ... أما الألم فسيده،

ولا أحد يعرف نفسه إلى أن يعاني.

هذا ناموسٌ صعب، لكنه ناموسٌ سامٍ،

قديم قَدم العالم والمصير

أنه لا بدّ أن نقبل معمودية الألم،

وأنه بهذا الثمن الباهظ يُشترى كل شئ.")

أحد زملائي، وهو لاجئ في سويسرا وصحته هزيلة، بعد الهرب من معسكرات الاعتقال كتب لي خطاباً شيقاً جداً عن منافع المرض والمحنة. وهو يتذكر أنه عبر التاريخ كان الذين قدموا للعالم أكثر ما عندهم لم يكونون هم الأقوياء، بل الضعفاء والمرضى - أمثال باسكال والقديس فرنسيس، وغيرهم الكثير.

إن ما تحتاجه البشرية في زماننا - إن كانت تريد الهروب من الكارثة التي تتجه نحوها بسبب حضارتنا العقلانية والتقنية - هي سمات الرقة، والضمير، والعاطفة، والحساسية، والجمال، والحدس التي تكمن مكبوتة وراقدة بعمق في قلوب من تحتقرهم تلك الحضارة.

هؤلاء بالطبع "أرصدة متجمدة". فبدلاً من أن يكونون متحركين كمسألة طوراىء، يُحبسون في حياةٍ مكسورة تكون منبوذة لأنها مميزة باسم "حياة ضعيفة". ولا أحد يعرف ما قد يكون هؤلاء الناس قادرين عليه بمجرد الثقة بهم؛ فالناس يقاسون فقط بما يظهر على الساحة. وفي هذا الخصوص فإن كلمات سارتر مهمة حقاً: "لا محبة بعيداً عن أعمال المحبة؛ ولا إمكانية للمحبة إلا الإمكانية الظاهرة في المحبة؛ ولا عبقرية إلا في العبقرية المعبَّر عنها في الأعمال الفنية ...؛ فعبقرية راسين هي سلسلة مآسيه، وخارجها لا يوجد شئ."[7]

لم يكن هناك إنكارٌ صريحٌ للواقع الداخلي - وأيضاً مبهماً غامضاً - ينبع منه كل شئ مثمر يمكننا أن نبدعه. فقبل كتابة أي شئ على الإطلاق فإننا نسمعه بألم داخل أنفسنا، مثل حلم مراوغ لا يمكنه أن يتحقق. كما أن العاطفة التي تصاحب هذه العاطفة داخلنا تعوقنا، لكنها لا تزال ضرورية. كتب بيرغسون: "الخليقة تشير فوق كل شئ إلى العاطفة."[8]

نحن نحتاج الثقة إن كنا نريد إتقان هذه العاطفة ونستثمرها جيداً. لكن الثقة هي الشئ الوحيد الذي نحرمه على الأشخاص العاطفيين عندما نوبخهم على عاطفيتهم لأنها تكون علامة ضعف.

أما العاطفة التي نكون قادرين على تقديمها فليست إلا

---

7 J.-P. Sartre, *Existentialism and Humanism*, Translated by Philip Mairet, Methuen and Co., London, 1948, pp. 41-2

٨ *Op. cit., p. 33*

إنعكاساً باهتاً لحاجتنا المتزايدة للحب التي تكون عاجزة عن ايجاد التعبير. سوف أذكر دائماً نبرة صوت أحد زملائي حين قال لي: "أشتاق أن أعبرً عن عاطفتي تجاه أمي، لكني لا أنجح أبداً في هذا. فعندما أكون معها أشعر أن شيئاً ما يعيقني. وعندما أتركها أكاد أضرب نفسي. وهذا عذابٌ رهيب لي لدرجة أنني أتردد في الذهاب لرؤيتها."

في قرننا العقلاني هذا، ذكّرنا بيرغسون بأن الحدس هو الشكل الأخصب لذكائنا؛ فمن بين مرضانا "الضعفاء" نجد حقاً أشخاصاً موهوبين بهذه الملكة بدرجة كبيرة. والأمر المثير هو أنه بدلاً من أن يفخروا بها، فإنهم يعتبرون هبتهم كلعنة؛ وبدلاً من استخدامها، يخجلون منها ويكبتوها.

في الواقع، فإن الإدراك بالحدس يجعل العلاقات الاجتماعية أكثر صعوبة. فهو يجعل المرء على دراية فيمن يتحاور معه بأبسط حركة دفاع، أو نقد، أو سخرية، أو احتقار تجاهه هو، حتى عندما لا تكون شعورية. وهذا ما يجعل الحالات العصبية بمثابة تدريباً إعجازياً على الصدق. فإن شعرتُ بأدنى نفاذ صبر مع مثل هذا الشخص، وحتى إن قمتُ بكبته آلياً بسبب العناية الشعورية التي أوليها إياه، فإنه يلاحظ هذا، ويفسد كل شئ. وإن كان يثق بي ثقة كافية، فسوف يكون قادراً على أن يجعل نفسه يخبرني بما سبَّب له الجُرح في اتجاهي أنا؛ وإن فحصتُ نفسي بأمانة، لميزت أن التوبيخ في محله. وهذا القبول من جانبي يعيد إرساء العلاقة بيننا. ولكن إن ضُبطتُ بسبب الهمّ في الخطأ فحاولت الدفاع عن نفسي بإنكار عصبيتي السرّية، ودون حتى أن ألاحظ هنا، فإن كل شئ يكون موضع شبهة.

هذا ينطبق على كل العلاقات الاجتماعية للناس ذوي الحدس. لكن العالم يدافع عن نفسه ضد حدة الذهن الحرجة هذه، كما أن أمثال هؤلاء يُتهمون بأنهم سريعو التأثر، انتقاديون، وشكاكون. وفي معرض الدفاع عن أنفسنا نهاجمهم. أما الأعضاء الآخرين من أسرهم فيقولون لهم بأن

هذه "أشياء تصورية". فهم يُتهمون بأنهم سريعي الاهتياج جداً، حيث كل صور رقتهم النفسية لا يمكن أن يميزها أحد. وعندما تثبت الأيام أنهم كانوا على حق، فإن الذين حولهم، إذ يكونون متضايقين من كونهم قد أخطأوا التقدير، يتذمرون عليهم أكثر فأكثر.

في الواقع أن الحدس أحياناً ما يُسبِّب أخطاء. فهو ليس قادراً على التحليل ولا على الشرح المنطقي. وغالباً ما يكون غير محدد، ونحن نجد مرضانا مضطربين لأنهم يشعرون أن شيئاً خطيراً يدور في داخلهم، لكنهم غير قادرين على وصفه في كلمات. وهذا فقط ما يجعلهم في حالٍ أسوأ، ويرفع من انعدام ثقتهم ويرفع معاناتهم؛ ومن ثم يخفون حدسهم، ويعانون أكثر فأكثر لعدم قدرتهم على استخدامه. ذات مرة قالت لي امرأة شابة: "لو كنتُ أستاذة جامعية، لأخذ الناس كلماتي بجدية، حتى إن كانت صادرة عن حدسي، وحتى إن لم يكن تعليمي مرتبطاً بها؛ ولكن لأني مجرد امرأة مريضة، فإن الناس لا يهتمون."

إن حضارتنا عقلانية، ومن هنا فإن الناس ذوي الحدس يحاولون التصرف دائماً حسب المنطق كما يفعل كل شخص آخر، تاركين حدسهم جانباً، ومن هنا يفشلون. وهذا الأمر بمثابة مسافر لديه حس داخلي بالاتجاه، ومن هنا يمكنه بسهولة أن يجد طريقه دون أن يسأل عن مدى صحة ذلك. لكنه يفقد طريقه لأنه يحاول أن يستخدم خريطة وبوصلة، التي يمكن أن يستخدمها رجل ذو عقلية عملية بنجاح ساحق.

الحدس يمكنه أن يعبر عن نفسه فقط بالرموز. فبالنسبة للشخص الموهوب به "كل شئ يحدث ما هو إلا رمز"، كما كتب غوته - وقد كان قادراً على الاستفادة من الحقيقة مهما كانت الأحوال. ولهذا فإن الناس ذوي الحدس عادةً ما يكونون فنانين إلى حدٍ بعيد. فالفن - الذي يعتبره الآخرون تشتتاً متكرراً - يخترق أعماق نفوسهم. وقد فهمت هذا

بوضوح ذات يوم حين اعترفت لي إحدى مريضاتي - وهي موسيقارة - بأنه كان هناك لحنٌ ما يسري في ذهنها طوال فترة حوارنا، ويطالبها بجزءٍ من انتباهها. ولهذا فإنهم يشعرون أن الآخرين يسيئون فهمهم، وذلك لأن الآخرين- حتى أولئك الحساسون للغاية للجمال - ليست لديهم فكرة عن معنى الفن بالنسبة لهم.

علاوة على ذلك يتمتعون بدرجة هائلة من الخيال الواضح- وهو من الوضوح لدرجة أن عالم الفن المتصور يصير واقعياً بالنسبة لهم كالواقع نفسه. وهذا يُعرِّضهم لمشكلات لا حصر لها يكونون عاجزين عن حلّها، وذلك لأن المرء لا يعد قادراً على حلِّ مشكلة خيالية مثلما لا يكون قادراً على أن يضرب شبحاً. وبالتالي، هناك نساء يقلقن أنفسهن بخصوص أي اتجاهٍ يجب تبنيه نحو الرجال المعترض أنهن في علاقة غرامية معهم، لكنهم في الواقع لا يفكرون فيهن أبداً.

فكر في المدى الذي يعتمد فيه إدراكنا الشامل العالم - مهما كان علمياً - على البرهان الذاتي لحواسنا وحدسنا عموماً، لدرجة أنه لا يكون لدينا برهان نهائي حقيقي. وبالتالي يمكننا أن نحسب كم لا بدَّ أن يكون الشك المستمر المزعج الذي يعيش فيه الناس الخياليون شكاً رهيباً، وذلك لأن كل خطوط الحقيقة بالنسبة لهم إنما هي مبهمة وغير واضحة. فهم يؤمنون بما يخافونه وبما يريدونه. وهم يقولون ما يؤمنون به، ومن ثم يُتهمون بالكذب؛ وهذا ما يفاقم ضَيقهم.

إن أبسط إعاقة في جو علاقاتهم الاجتماعية تزعج توازنهم الداخلي. تكتب امرأة: "ليس خطأي إن كنت مثل ميزان حسّاس يكون له ردّ فعل لأبسط نسمة هواء." إن الموازين الحساسة مفيدة للغاية لمن يعرفون كيفية استخدامها. وما أقصده هنا هو أن حضارتنا - وهي ساحة معركة حقيقية للقوى المتصارعة - إنما تضع الأشخاص الحساسين في موضع تكون فيه عطاياهم الثمينة لا شئ إلا مصدر معاناة

وضَيقة عديمة الجدوى لهم وللمجتمع.

يكتب د. كاريل: "بالنسبة لنا سكان الغرب يبدو العقل أسمى بمراحل من الحدس. فنحن نفضل الذكاء بكثير عن الشعور. العلم يلمع، أما الدين فيخفت. نتبع ديكارت ونهجر باسكال.

"كذلك نطلب أول كل شئ تطوير الذكاء في أنفسنا. أما بالنسبة لأنشطة الروح غير الفكرية، مثل الحسّ الأخلاقي، والحسّ الجمالي، وفوق كل شئ كل المشاعر المرتبطة بالمقدسات، فهذه كلها مهملة تماماً إلى حدٍ ما."[9]

هذا المقياس الزائف للقيم الذي يمثل معيار حضارتنا العقلانية والواقعية لا يشكل ضرراً أقل خطورة بالنسبة للأقوياء. فلكي يبقى الأقوياء أقوياء، يكبتون كل شئ قد يكشف الضعف الكامن في طبيعتهم البشرية: حاجتهم للعاطفة، عذابهم الميتافيزيقي، حسّهم الفني، تبكيت ضميرهم، وحنينهم إلى الله. تكتب شابة: "أعاني من رعب من الضعف لأني ضعيفة جداً."

تعلّم الأقوياء كيف يستخدمون إمكاناتهم للفوز في لعبة الحياة، وهم يصيرون أسرى اللعبة.

إن كان علينا أن نكون أقوياء، فلا بدّ أن نبسط الحياة أيضاً، مغلقين عيوننا على تعقيدها المزعج. وبالتالي يصير الأقوياء بسرعة أسرى عادة ذهنية منظمة وفلسفة ساذجة تنتهي باستنزافهم وفصلهم عن الحياة الحقيقية.

كما أن نجاحهم المتكرر سرعان ما يقودهم لتصديق أنهم أفضل من الآخرين - والأهم أنهم أفضل من الضعفاء الذين يعتقدون أن الله يرفضهم. كما أن نجاحهم - حتى إن كان ظلماً - يعتبرونه ببساطة علامة فخر بالبركة السماوية؛ وهذا يحرمهم من أثمن اختبار يقدمه هذا العالم، ألا وهو اختبار نعمة الله الذي طريقه الوحيد هو التوبة. يمكنني

9 Alexis Carrel, *Prayer*, translated by D. de St Croix Wright, Hodder and Stoughton, London, 1947, p. 15

أن أقتبس هنا عددا كبيرا من مرضاي الذين بعد سنوات من السعادة والنجاح عاشوا لمباركة اليوم الذي سمحت فيه التجربة بأن يجدوا إيماناً حياً. إحدى هؤلاء تكتب لي عن مدى الخلاص الذي تشعر به الآن وهي تدرك تماما اضطراب حياتها، أقرب من الفترة التي كانت تظن فيها أن كل شئ في مكانه. وأخرى تدرك أنه في سعادة سنواتها المبكرة من حياتها الزوجية كانت قد هجرت الله. فقد كان زوجها يشغل مكان الله، واستدعى الأمر صراعاً زوجياً مؤلماً لعودتها إلى الله.

هنا حالة أخرى شيقة جداً: الفتاة الصغيرة الطيبة التي كانت دائماً ما تعتبرها زميلاتها قدوة. كانت تنجح في كل شئ تتولاه، كما لو كان لعبةً بسيطة. ذهبت إلى الجامعة فوجدت أنه من الصعب جداً أن تختار بين الدورات الدراسية المتنوعة: فقد كانت متفوقة في كل شئ. أما الآن فتبدأ تنتابها شكوك بخصوص نفسها: ما هي شخصيتها الحقيقية أساساً؟ ما ميلها؟ ما هدفها في الحياة؟ ليست لديها فكرة. يبدو الأمر أنها لم تكن قادرة على التوصل لمعرفة نفسها لأنها لم تضطر يوماً لتجاوز أية عقبة.

كم يحدث أنه سرعان ما تداهمنا الأوهام بخصوص أنفسنا عندما يسير كل شئ على ما يرام! وهذا ما حدث للعالم في القرن التاسع عشر. ففي نشوة ذلك العصر المتميز بالتقدم العلمي والتقني، هَبت ريح التفاؤل على الجنس البشري. فصدّق الناس لا فقط أنهم أكثر ثراءً وأعلى معرفةً، بل أيضاً أنهم كانوا أفضل حالاً وفي مأمن عن البربرية المتوحشة منذ ذلك الحين. ولكن للأسف، فقد اضطررنا أن نخفض أنفسنا كي نرى حقيقة الأمور منذ ذلك الحين! فقد صُدمنا حين اكتشفنا من جديد كمّ الجرائم التي يمكننا ارتكابها في الظروف التي تكون فيها قيود المجتمع الصحية غائبة. ولكن سرعان ما ننسى الأمر، ونغلق عيوننا على إثم البشر وعلى إثمنا نحن. فالاحترام الذي نُعامَل به حين نكون أقوياء شغل

مكان الضمير اليقظ.

***

هذه القوة الجسمية التي تحظى باحترام الآخرين - ما قيمتها في حدّ ذاتها؟ إنها القصة القديمة للجندي الذي قتل أرشميدس، والتي تذكّرها رينيه جيلوين[10] Rene Gillouin بصورة كافية في الوقت التالي. ولكن هل قوتنا الجسمية أو الفكرية - وحتى قوتنا الأخلاقية - أكثر قيمة في منظور مصيرنا الحقيقي؟

لستُ أريد أن أسمح لقلمي بالانتقال إلى تناقضات ومبالغات. فرغم أني كنت أحاول للتو إعادة تأهيل الضعفاء، فلست أريد أيضاً الافتراء على الأقوياء. فهم في الواقع يحتاجونني بالكاد كي أدافع عنهم! لكن القوة قد تكون أيضاً موهبة ممنوحة لأناس محددين للدفاع عن الخير والعدالة. فحماسة أجسادهم، وقوة فكرهم وخيالهم، وسلطانهم الأخلاقي وسيطرتهم على الذات - مثل حدس وحساسية الضعفاء - تتمتع بقيمة هائلة عندما يوّجهها الله.

ما أؤكده هنا فحسب هو أن كرامة الإنسان لا تنبع من قوته ولا من ضعفه، في حدّ ذاتهما، بل من كيفية استخدامه لقوته أو ضعفه في خدمة الله؛ فتلك القوة وذاك الضعف مجرد حقيقتين طبيعيتين، ومن ثم فهما محايدين مثل أي شئ آخر ينبع من الطبيعة. وكل منهما يشمل مخاطره وامتيازاته، إمكانيته لعمل الخير أو عمل الشر.

لكن المشكلة هي أن هذه الاختلافات الطبيعية تقسم البشر وتكون مصدر شقاق بينهم. فنحن أقوياء عموماً بالنسبة لواحد وضعفاء بالنسبة لآخر؛ وهذه الاختلافات تُبدِّل علاقاتنا معهم. فمن يصبح أقوى أعضاء مجموعة معينة يجني الخطر الأكبر. فقوته تفصله عن الكل. وهكذا يصير

10 René Gillouin, *Problémes francais, problémes humains*, Editions du Milieu du Monde, Geneva, 1944

وحيداً بصورة مرعبة.

رأيت أشخاصاً يعمل الكل حسابهم، أشخاصاً تلفّهم الكرامة والتقدير، ينهارون ويبكون في غرفة المشورة خاصتي فيما يحكون لي عن العزلة الروحية التي تدينهم بها مراعاة الآخرين لهم. القوة والضعف أدوات ترسانة تُخفي الشخص وتمنع الشركة. وتلك هي السمة التراجيدية لمشكلة الأقوياء والضعفاء الرهيبة: فالمرء يمكنه أن يكون منعزلاً بالإعجاب كما بالاحتقار طبعاً، بالخوف الذي يبثّه المرء كما بالخوف الذي يشعره طبعاً. يكتب جوستاف ثيبون[11]: "الحسد من جانب، والخوف من الجانب الآخر يستنزفان كل التفاعل الإنساني." ويكتب جان دي روغمون: "الإنسان ... يريد رفيقه الإنسان الذي يهرب منه، ويهرب دون أن يدري من الإنسان الذي يريده."[12]

لا يمكن أن تكون هناك شركة حقيقية بين البشر طالما أنهم يرون بعضهم البعض كضعفاء أو أقوياء. فقد تكون هناك شركة ظاهرة - لكنها زائفة - ترجع للخضوع الأعمى من الواحد للآخر. لكن هذه الشركة الزائفة - التي تكلفتها هي كبت شخصية الضعفاء - إنما تؤدي آجلاً أو عاجلاً إلى دمار الطرفين.

ليست هناك شركة بشرية إلا في إطار مفهوم مساواة الأنفس: فرغم أنه من الحقيقي أن النفس هي هي في كل إنسان، إلا أنها مستترة وراء ستار ردود أفعالنا القوية والضعيفة. وبالتالي، لكي نعيد فتح طريق الشركة لمجتمعنا الحديث لا بدّ أن نستنكر الانحراف الرهيب لعصرنا، وهو الحكم على البشر حسب مظهرهم القوي أو الضعيف.

لا بدّ أن نساعد الأقوياء على فهم الضعفاء، وهذا صعبٌ جداً. فبين الأمم أيضاً، فإن العلاقات المؤسسة على القوة

11 Gustave Thibon, *Diagnostics*, Librairie de Médicis, Paris, 1940

12 *Op. cit*

تثير الاتجاهات العدوانية والدفاعية التي تضع عقبات خطيرة في طريق الفهم المتبادل. ولكي نعرف البشر لا بدّ أن نخترق هذا الستار من المظاهر ونكتشف أن النفس - التي هي نفس الشئ في كلا الطرفين - لا قوية ولا ضعيفة، أو قوية وضعيفة في نفس الوقت، ممزقة كونها باستمرار بين تطلعات ومقاومات كلا الطرفين.

وقد عبّر عن هذا بصورة مدهشة جان دي روغمون: "إن كان جاري أقوى مني، فإني أخافه؛ وإن كان أضعف مني، فإني أحتقره؛ وإن كنا متعادلين، فإني ألجأ إلى الحيلة. فما الدافع الذي يدفعني لطاعته، وما السبب الذي يدفعني لمحبته؟"[13]

إن طب النفس، تعليم النفس، وسياسة النفس، كلها تشمل إعادة تأسيس علاقة حقيقية للإنسان مع الإنسان فيما وراء المظاهر الخارجية. فبسبب مراكزهم، فإن الطبيب أمام مريضه، والمعلم أمام تلميذه، والقائد أمام شعبه، كلهم يلبسون قوة معينة تفصلهم عن من يجب أن يتعاملوا معهم. قد يرحبون بهذه الحقيقة ويستخدمونها لإخفاء ضعفاتهم الشخصية، ويتورط كلٌ منهم في شكلٍ واحد من أشكال التشخيص، أو التعليم، أو السياسة، وهو متحصن في ارتياح وراء ستار سلطته. لكنهم آنذاك يكونون مجرد أدوات لا نفوس؛ فقد يقومون بخدمات تقنية، لكنهم لن يكسبوا قلوب الناس.

إن المرضى، والحساسين، والأطفال، وأولئك الأطفال الكبار الذين ندعوهم الأمم، إنما يشتاقون للعثور على أشخاص متضعين يخرجون للقائهم، ويعترفون لهم بأنه رغم رداء السلطة الذي يلبسونه، إلا أنهم ليسوا أقوى منهم. يكتب د. مايدر: "الشئ الوحيد الذي يمنع المريض عن التحدث علانية هو الخوف من إدانته."[14]

13 *Op. cit., pp*

14 *Op. cit., p. 137*

يمكننا بالطبع أن نساعد مرضانا بمعرفتنا العلمية. ولكن تأتي لحظات حين يمكننا مساعدة الآخرين، الأصحاء والمرضى، بمجرد أن نكون صرحاء معهم، وبالاعتراف بضعفنا الشخصي. أتذكر مريضة كانت تعاني من حالة معروفة يكون فيها انقباض حلق يصفه المرضى بأنه "بمثابة نتوء يرتفع وينخفض". وذات يوم فيما جاءت إلى غرفة الاستشارة خاصتي قالت: "أشكرك لأنك حدثتني بالأمس عن بعض صعوباتك الشخصية." ففي تلك اللحظة تماماً اختفى النتوء فجأة." لقد تأسست بيننا علاقة شخصية حقيقية، وهذا هو أساس كل علاج نفسي فعال.

من الطبيعي أنه ليس علينا أن نحول هذا البوح الذاتي إلى نظام ثابت. فإن مارسناه كنظام ثابت، فمن الممكن أن يصير طريقة إضافية لاستعراض النفس، وعلى الأرجح فإن هذا سيسحق الشخص بدلاً من أن يسترد له ثقته. هذه مسألة حياة، لكنها مسألة حياة حرة، متحررة من ردود الفعل القوية أو الضعيفة التي كثيراً جداً ما نخفيها في علاقاتنا البشرية.

بالنسبة امرأة كانت تعترف بخجلها وهي متألمة لأنها أحرقت كتاب صلواتها، اضطررتُ أن أعترف أنني أنا أيضاً - في لحظة تمرد - أحرقتُ كتاب صلواتي ذات مرة. وذكّرتها بأن موسى قد فعل نفس الشئ عندما حطّم لوحي الشريعة.

يكتب د. مايدر: "الطبيب - كشخص - يندفع لمعالجة المريض؛ فهو لا يلاحظ "الحالة" فحسب ... إنه مدخل جديد يقدم تحولاً عميقاً لمجال الطب!" وهذا الاتجاه "الشخصي" هو الذي نحتاج أن نستعيده اليوم في كل دوائر العلاقات الإنسانية.

ليتنا لا نخلط الأمور: فهذا الاتجاه الجديد لن يكون موجوداً دون تدخل نعمة الله. فأمام الله فقط يمكننا أن ندرك مدى فقرنا، وأن نرى أنفسنا كإخوة لكل البشر حقاً. وبالتالي سوف

نتمكن من تقديم المساعدة التي يحتاجونها بالأكثر، وذلك لأنه يوماً بعد يوم يكون علينا أن نطلب هذا لأنفسنا: نعمة الله. وبدون تلك النعمة فإني أطلق العنان لضعفي من خلال ردود الفعل الضعيفة أو أخفيه وراء ردود الفعل القوية. ولكن لا هذا ولا ذاك يمنح الحياة. فالحياة هي الفعل، وليست ردّ الفعل؛ إنها الفعل الحّر الناشئ عن الاقتناع، وليس عن الخضوع أو بروح التعارض.

إن تفاؤل الأقوياء عنيد مثل تشاؤم الضعفاء. لكن كليهما مزيف كالآخر. إحدى مريضاتي - وهي امرأة سحقتها الصعوبات التي كان عليها أن تواجهها في الحياة - تصير غير واثقة بأي شئ. فأقول لها إن هناك الخير والشر في العالم، الأحجار البيضاء والأحجار السوداء. "عندما ترين حجراً أسود تظنينه أصلياً، بينما إن عُرَضَ عليكَ حجراً أبيض تظنينه أنه حجرٌ أسود مطليٌ باللون الأبيض." وبالتشابه، فإن الشخص القوي يظن الأحجار البيضاء أصلية، ويعتبر الأحجار السوداء أحجاراً بيضاء مطلية باللون الأسود.

المنظور الروحي ليس متفائلاً ولا متشائماً. ففي هذا المنظور لا يجد المرء الأحجار بيضاء تماماً ولا سوداء تماماً. لكن المرء يرى العالم كما هو، ويرى الإنسان نفسه - سواء كان قوياً أو ضعيفاً - مميزاً بكلٍ من الأسود والأبيض. فمن الصعب مساعدة إنسان قوي على رؤية ضعفه مثل صعوبة مساعدة إنسان ضعيف على استعادة ثقته بالقوة السرية القابعة فيه. كما أن الشئ المميز عن النعمة هو أنها تنتج هذه الحركة المتعارضة ظاهرياً وثنائية الاتجاه. وحيث أننا نكون أقوياء وضعفاء بالمثل، فإن النعمة بالمثل أيضاً تقنعنا ببُطلنا وتحمينا من اليأس - فهي تكسرنا وتستردنا.

وبالتالي، رغم أن ردود الفعل الضعيفة والقوية تبدو كقطبين متنافرين، إلا أنها متشابهة في كونها معاً ميكانيزمات طبيعية. والأمر المختلف تماماً هو الاختبار

الديني الذي يحررنا من هذه الميكانيزمات. يكتب بيتر هاوارد[15]: "الحل يكمن في ... تغير القلب."

في الواقع، كلنا ضعفاء ومسحوقون. كلنا "مشردون". فسواء كنا متفائلين أو متشائمين، حدسيين أو عقلانيين، واثقين أو مضطربين، فإن نظرَ الإنسان إلى القلب وليس إلى المظهر، نكون كلنا سواء. وهذه في الحقيقة رسالة الكتاب المقدس. إنها الرسالة التي يمكنها معالجة الحساسية المفرطة لمشاعر النقص التي تسحقهم.

كلنا متساوون في الخطية وفي الضآلة الأخلاقية. فالتقليدية هي التي تحكم البشر بمظهرهم الاجتماعي، بينما الإنجيل ينظر إلى القلب. وهذا التصنيف المضلل إنما ينشره وينميه في الواقع كل من يرغبون في الظهور بمظهر الأقوياء، وذلك كي يخفوا عن أنفسهم وعن الآخرين ضعفهم السرّي. يمكننا أن نفخر بسرد انتصاراتنا وخبراتنا، ونتباهى بنجاحاتنا الاجتماعية، ونروج لكمال نظامنا الفلسفي أو اللاهوتي، أو الاجتماعي، وندّعي بأننا نعلم الآخرين سر السعادة، والفضيلة. ونحن نفعل هذا كله كي نطمئن أنفسنا. إن النظام الذي يستمد صلابته من افتخار المرء بالتظاهر هو بمثابة ملاذ يسعى إليه المرء للأمن.

لكننا واعون جيداً بأنه جنباً إلى جنب مع نجاحاتنا فقد عرفنا الهزيمة، وأنه لا تعليم ولا خبرة استطاعت أن تحفظنا منها. وكلما نتقدم في الحياة المسيحية كلما نصير واعين بخطيتنا. وهذا بمثابة أثقال تضاف باستمرار إلى إحدى كفتي الميزان؛ وكلما يحدث هذا نحتاج المزيد من نعمة الله في الكفة الأخرى لإعادة تأسيس التوازن. لكن هذا التوازن دائماً ما يكون غير مستقر، وبالتالي فإن أقل ثقل يكون كافياً لتحريكه: فالإحباط والشك واقفان على عتبة بابنا. ولهذا نميل لإغلاق عيوننا عن هزائمنا، وللعودة للطريقة القديمة للمراوغة عن طريق ردود الفعل القوية - وتكون

15 *Op. cit., pp. 153-4*

التجربة على أشدّها كلما اعتقدنا أننا تقدمنا عبر طريق الحياة الروحية. ولكن أن نعمل ذلك هو في نفس الوقت أن نحرم أنفسنا من النعمة التي يمكنها وحدها أن تعيد التوازن.

وبالتالي، ليس هناك أشخاصٌ ضعفاء من ناحية وأقوياء من الناحية الأخرى كما يظن العالم. ولكن هناك من ناحية ضعفاء واعون بضعفهم وعارفون بُطل كل التعويضات النفسية، وفي النهاية يعتمدون فحسب على نعمة الله. ومن الناحية الأخرى هناك ضعفاء يؤمنون بقيمة ردود الفعل القوية، وتعاليمهم، ونجاحاتهم، وفضائلهم.

القسم الثالث

علم النفس والإيمان

٧

الدفاع الشرعي

لا شك أن القارئ قد طرأ على ذهنه التساؤل المهم بخصوص ما إذا كان من المشروع أن نقرّ الاتجاه المسيحي، كما قد فعلت أنا، ليس فقط في مواجهة ردود الفعل القوية، بل أيضاً في مواجهة ردود الفعل الضعيفة؛ ليس فقط في مواجهة الكراهية، والعدوانية، والانتقام، بل أيضاً في مواجهة التضحية بالنفس، وإنكار الذات، والغفران؟ أليست المسيحية - بعقيدة عدم المقاومة - تدافع عن ردود الفعل الضعيفة؟ إن الصراعات بين الأفراد صراعات حتمية في الحياة؛ ويمكننا إما أن نردّ الضربة بمثلها، أو أن نترك أنفسنا لتلقّي الضربات؛ يمكننا أن نطالب بالعدل ممن يعاملوننا بظلم، أو أن نخضع لهم؛ يمكننا أن نقاوم من يحاولون فرض إرادتهم علينا، أو أن نطيعهم. أليس هذا بالضبط معنى ردود الفعل القوية والضعيفة؟ ألا يدعونا يسوع المسيح في الحقيقة لاختيار ردود الفعل الضعيفة دائماً؟

أليست العظة على الجبل واضحة تماماً في هذه النقطة؟ "وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لاَ تُقَاوِمُوا الشَّرَّ بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضاً. وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَاصِمَكَ وَيَأْخُذَ ثَوْبَكَ فَاتْرُكْ لَهُ الرِّدَاءَ أَيْضاً. وَمَنْ سَخَّرَكَ مِيلاً وَاحِداً فَاذْهَبْ مَعَهُ اثْنَيْنِ" (مت ٥: ٣٩ - ٤١).

لا يمكننا تجنب هذه الأسئلة المهمة. إنها تكمن في أصل النقاش الذي يفصل بين المحللين النفسيين أتباع فرويد والمسيحيين. فأتباع فرويد صاغوا تعليماً للعدوانية وأقاموه في مواجهة المسيحية. وكل الأعراض التي يبينها العصاب، وكل ما أسميناه ردود أفعال ضعيفة، إنما يظنون أنه ينشأ من كبت عدوانيتهم الطبيعية، وكبت إرادة الحياة، وكبت حاجة الفرد للامتداد، وكبت الليبيدو. علاوة على ذلك، فإن القيود الاجتماعية، والأخلاقية التقليدية - وخصوصاً أخلاقية الكنيسة المسيحية - هي المسئولة عن هذا الكبت.

سوف يتذكر القارئ مثال ابنتي الأم المتسلطة الذي قدمته في الفصل الأول. فالأولى خاضعة والأخرى متمردة. الأولى تبدو مسيحية والأخرى تبدو ضد المسيحية. في الواقع الفعلي، من المحتمل جداً أن تكون الأولى معترفة بالإيمان المسيحي، حيث تجد في المسيحية تبرير سلوكها وحتى بعض التعزية لصور معاناتها؛ أما الأخرى، بلا شك، فتهاجم المسيحية وأخلاقيتها بعنف كي تُسكِن الندم الذي تشعر به نتيجة سلوكها الفظ تجاه أمها.

لقد وجد المحللون النفسيون حقاً نسبة هائلة من العصابيين في الأسر المسيحية. فقد تربّوا على يد أبوين تقيين، في مناخ أخلاقي صارم ومتشدد؛ وقد تعلموا منذ الطفولة أن يكونون هادئين مطيعين، وأن يحتملوا الظلم دون شكوى، وأن يكبحوا رغباتهم وأسئلتهم، وأن يخدموا دون المطالبة بشئ في المقابل؛ وتدربوا أن يكبتوا دموعهم، وضحكهم، وتعطشهم للحنان، وأن يخفوا همومهم ومخاوفهم، وأن يتوافقوا مع عادات أبويهم، ويتبنوا في كل الأمور أذواقهم، وطموحاتهم، وآراءهم. وكي يحصل هؤلاء الآباء والأمهات على هذا الخضوع الأعمى الذي يبدو أنه يتوافق مع متطلبات الإيمان المسيحي؛ فإنهم يهددوهم بنار جهنم؛ ويدفعوهم للانحناء أمام الله وطلب غفرانه عندما يكونون قد عصوا؛ وبعد ذلك، عندما يصل الأطفال سن المراهقة، يطلب الأبوان

من راعي كنيستهم أن يؤنبهم بشدة إن قرروا اختيار مهنتهم، أو اختيار صديقة من طبقة اجتماعية مختلفة. وعندما يكونون صغار السن جداً، إن سألوا ببراءة كيف يصل الأطفال إلى الدنيا، يردّ أبواهم بعصبية شديدة بأن الأطفال المسيحيين لا يسألون مثل هذه الأسئلة الشريرة.

وفيما بعد، يغرق ضحايا مثل هذا النوع من التربية في العُصاب. وفيما يصيرون فريسةً للقلق، والوساوس، والشكوك، والتثبيط، والانحرافات الجنسية أو مشاعر النقص، يلجأون كمرضى إلى المحلل النفسي. هل يمكننا أن نشكو من أنه يحثّهم لتبني اتجاه مختلف؟ إنه يقول لكلٍ منهم: "تعلم الدفاع عن نفسك، عبِّر عن الشكاوى التي تختزنها في داخلك، تجرأ على إثبات ذاتك، إربح استقلالك. إفتح عينيك وأنظر إلى أبويك: فهما لا يمارسان إنكار الذات الذي يطالباتك به؛ وهما حساسان، متسلطان، حقودان، أنانيان. والذي علماك إياه مجرد اختراع بشري، أداة للسيطرة، غول يستخدمانه لتخويفك وسحقك. كل إنسان ممنوح غريزة عدوانية، الدفاع عن حقه في أن يعيش حياته الخاصة به. فإن كانت تنقصك الثقة بالنفس، فهذا لأنك قمت بكبت تلك الغريزة. إسمح لها بالعمل وسوف تبدأ في التمتع بالحياة مرة أخرى. سوف تدرك أن اللعنات الإلهية التي كان أبواك يهددانك بها ما هي إلا أسطورة. فعلى العكسِ ستصبح سعيداً. بالإضافة إلى عدوانيتك فأنت قمتَ أيضاً بكبت غريزتك الجنسية؛ فقد كنت تتصور أنها شريرة ومخزية بدلاً من أن تفخر بها".

سيقول لي قائل: ليس كل العصابيين يأتون من عائلات متدينة. ليتنا نكون أمناء في هذا النقاش. لنميز أن المحللين النفسيين ليسوا مخطئين عندما يؤكدون على أنه حتى في الدوائر غير المرتبطة بالكنيسة، فإن تربيةً كالتي وصفتها للتو تكون جذورها في بعض الأفكار التي تشرّبها المجتمع من الكنيسة. ومثل المحللين النفسيين، فقد رأيت أنا أيضاً مثل

هذه الحالات - حالات كثيرة حيث يأتي مرضى متدينون يأتون طوعاً لاستشارتي. كما أن الأبوين المتدينين خصوصاً يرسلان طوعاً أطفالهما. وكما الحال مع القس الذي ذكرته للتو، فقد سبق وصادفت أمثال هؤلاء الآباء يلتمسون مني تهدئة تمرد أطفالهم. وأحياناً ما يفاجئون ويغضبون من وقوف طبيب مسيحي في صف أطفالهم، واستعداده للإصغاء لحكاية شكاواهم، ودعوتهم لإثبات ذواتهم والتعبير عن تفضيلاتهم وآرائهم.

النقاش إذاً نقاش خطير. ومعظم المسيحيين يتجنبونه باللجوء للمساومة. فهم يظنون أن عدم المقاومة التي تعلمها كنيستهم مثالاً جيداً، ولكن لا يمكن تطبيقه عملياً. ومن ثم يحاولون أن يكونون رقيقين، أمناء، لطفاء، نزيهين، بقدر الإمكان، ومع ذلك يتصرفون في كل هذه الأمور باعتدال مناسب. وعند الضرورة يدافعون عن أنفسهم؛ حيث يتفوهون بأكاذيب تكون لازمة للحياة في المجتمع. وعندما يُسئلون عما إذا كانوا مسيحيين، فإن ضميرهم لن يسمح لهم أن يقولوا: "نعم"؛ بل يقولون: "أحاول أن أكون." كما يتجنبون كثرة التردد على الكنيسة خوفاً من أن يتهمهم الناس بالتظاهر في رياء بمعتقدات لا يطبقونها رغم صرامتهم.

من الواضح أن طريقة المساومة لا تقدم حلاً. فهي تترك الضّيق كما هو. والجدال الذي يطرحه المحللون النفسيون جدال جاد ولا يمكننا الهروب منه. كما أنه من الواضح أن تطبيقه يتخطى الطب والمشكلة الخاصة بالعصابي؛ فهو يرتبط باتجاهنا اليومي المستمر في المجتمع. كما يتطلب ردًّا متماسكاً، مخلصاً للكتاب المقدس، وقادراً على إلهام أخلاقية اجتماعية واضحة.

هذا ما أسعى إليه هنا في استنكار الخطأ الخطير للخلط بين ردود الفعل الضعيفة بالأخلاقية المسيحية. وهو خلط دائماً ما يكون من جانب المسيحيين وغير المسيحيين.

يقدم الكتاب المقدس الدعوة لعدم المقاومة التي اقتبستها للتوّ. إلا أن الكتاب المقدس يحوي أيضاً تعليماً شخصياً عن الإنسان لا يمكننا تجنبه. ففي كل مواضع الكتاب المقدس نرى أشخاصاً عندما يتشددون بواسطة الدعوة الداخلية التي يناديها بهم الله، فإنهم يتجرأون على تأكيد أنفسهم، والوقوف في وجه أصحاب السلطة، كي ينادوا برسالتهم ويدافعوا عن قناعاتهم. فالمسيح نفسه استخدم سوطاً في إحدى المرات. وعندما قَبِلَ الصليب في جثسيماني، فقد عمل هذا لأنه كان إرادة الله، وليس لأنه لم يجرؤ على الدفاع عن نفسه.

وهنا يكمن الاختلاف كله. فنصرة جثسيماني هي طاعة الله وليست خضوعاً للبشر، عمل شجاعة وليس ردّ فعل ضعيف.

عندما ألقى المسيح العظة على الجبل، كان يتكلم إلى عالم مُعرَّض لقانون الانتقام، والذي لم يكن فيه من المتصور من رجل قوي، يكون قادراً على ردّ الضربة بمثلها، أن يُضيِّع فرصة فعل ذلك. ومن ثم فإن عدم المقاومة التي قدمها المسيح هي انتصار على صراعه الشخصي وليست جُبناً. هناك اختلافٌ رهيب بين الشخص القوي، القادر على الدفاع عن نفسه، والذي يستنكر تلك القوة لاتباع المسيح وطاعة الله، وبين الشخص الذي لا يجرؤ على الدفاع عن نفسه، الشخص الخائف الذي يستسلم في ضعف. فالأول حالة تعبر عن النصرة الروحية، أما الثاني فحالة تعبر عن الهزيمة النفسية.

وبالتالي، فإن المبدأ الذي أسعى لتعريفه هنا لا يتعلق أبداً بالمساومة بين المقاومة وعدم المقاومة، وذلك بالتبني الشرعي لأحدهما أو للآخر مع أمر التلائم، والدفاع عن أنفسنا بحصانة عندما يمكننا ذلك، والاستسلام عندما لا نجرؤ على الدفاع عن أنفسنا. وهذا معناه التمييز بين الدوافع الكامنة وراء سلوكنا؛ أي أن نسأل أنفسنا ما إذا كنا نسلك كطاعة لله أو بسبب ارتعابنا.

غالبا ما يُضلل الناس أنفسهم في هذا الأمر. عندما يخافون من تأكيد أنفسهم، يقنعون أنفسهم أن صمتهم هو نتيجة بذل الذات المسيحي. ولكن إن صلّينا بأمانة لله حول هذا، فسوف يتمكن كلّ منا أن يرى ما إذا كان الكرم الذي يكشفه انتصاراً أو هزيمة. وبنور نفس الوحي الكتابي يرى الشخص، القادر والمستعد للدفاع عن نفسه، أن الله يدعوه للغفران؛ أما الآخر، الذي يكون على وشك الاستسلام للجُبن، فيرى أنه مدعو للثبات.

ومن هنا، فإن الحياة الروحية ترتفع فوق مستوى ردود الفعل البيولوجية. فهي تكسر قوة الأقوياء وتشدد الضعفاء. وهي خصبة دائماً. إن السماحة بالهزيمة (التي هي سماحة خاطئة) تؤذي المغلوب مثلما تؤذي الغالب الذي تشجعه على فعل الخطأ. أما السماحة بالنصرة، من الجانب الآخر، فتضيف إلى مكانة من يتنازل، وتكسب احترام من كان سيربح انتصاراً ظالماً.

من خلال تمييز الكنيسة للأخلاقية المسيحية بردود الفعل الضعيفة في حالات كثيرة، قدمت لنا صورة ناقصة عن المسيحية. ففي يومنا هذا هناك العديد من الضعفاء يشعرون بالارتياح في كنائسنا بسبب هذا الخلط. وبالكاد يكون ذلك "لمجد الله". وذلك لأن محوهم المتضع لأنفسهم ورقتهم محددة من جانب ضعفهم النفسي أكثر مما هي محددة من جانب إيمانهم؛ فإيمانهم تبرير لسلوكهم الضعيف بدلاً من أن يكون انتصاراً على تكوينهم النفسي. وهكذا نجدهم حزانى، قلقين، ومثبطين. وهم يساهمون بدورهم في انتشار هذا الخلط القاتل. يكتب Eric de Montmollin: "الأشخاص الذين لا يشعرون بالقوة الكافية لمواجهة صراع الحياة لجأوا - إذا جاز التعبير - إلى الكنيسة لكونها مجتمعاً لا تكون التجارب فيه قوية جداً."[1] أتذكر إحدى مريضاتي كانت مسحوقة بالقلق، وقد انتابتها رغبة الدخول إلى مجتمع

[1] *Op. cit*

ديني كانت تعتبره ملاذاً قد تجد فيه الحماية من عواصف الحياة. وبلا سبب ترددت في اتخاذ الخطوة الأخيرة، فقد شكّت فيما اذا كان الله يدعوها حقاً لعمل هذا. وشعرت أن اشتياقها كان مرتبطاً بتجربة للهرب أكثر من ارتباطه بدعوة حقيقية. ونحن نعلم أيضاً كيف يسعى إخوتنا الكاثوليك للاحتراس من هذا النوع من الخلط في أذهان من يرغبون بدء الرهبنة.

***

كل هذا يلقي الضوء على مشكلة العدوانية كما قدمها المحللون النفسيون. هناك بعض الحق فيما أظهروه لنا. إن سحق الشخص - كما نراه في العُصاب - والحلقة المفرغة لردود الأفعال الضعيفة التي تعيق الشخص هي مرض وليست حالة عادية من التوافق مع إرادة الله.

قد يكون من الأفضل أن نتجنب كلمة "عدوانية"، التي لها معانٍ مؤسفة تنطوي على فلسفة شاملة زائفة. ولكن لنقل بالأحرى إن هناك دفاعاً شرعياً للشخص، مؤسس على الإعلان الكتابي، وأن نكبت هذا الدفاع الشرعي هو أن نعصي لله وألا نمارس اللامقاومة المسيحية.

في ضوء الكتاب المقدس، تعتبر حياتنا عطية من الله، كنزاً لا يُضاهى استودعنا الله عليه، وزنة لا بدّ أن نستخدمها ونحميها حتى تأتي بثمر. فأن نترك أنفسنا تُسحق، وأن نسمح للتطلعات التي أودعها الله في قلوبنا تخمد، وأن نحفظ قناعاتنا لأنفسنا، وأن نتخلى عن شخصيتنا الخاصة، وأن نسمح لشخصٍ آخر أن يفرض علينا أذواقه، وإرادته، وأفكاره - فهذا معناه أن ندفن وزنتنا في الأرض كالعبد في المثَل. وهذا معناه أن نعصي الله خوفاً من البشر؛ وأن المرض - الشاهد الحتمي لكل خلل في النظام الإلهي - يذكرنا بهذا.

ولهذا قد نقبل جيداً التعليم النفسي الخاص بالكبت؛

والتكتيك التحليلي يمكنه أن يساعدنا على تتبع أثر التضحية الزائفة بالنفس التي تسبب المرض بدلاً من الحياة الجديدة. يكتب د. مايدر: "الكراهية المكبوتة غير المعترف بها تجاه شخص آخر يمكنها أن تحول نفسها لاشعورياً إلى كراهية مدمرة ضد النفس. فكنوع من اللياقة فإن المرء يكره حياته الخاصة بدلاً من الشخص الذي كان يُسبّب الإساءة."[2]

هذا بالطبع هو الميكانيزم الذي يمكن أن نراه في مرحلة العمل. فبصورة أساسية، كل ردّ فعل ضعيف خارجي يتم التعويض عنه بردّ فعل قوي داخلي. فالضربة المضادة المكبوتة ترتدّ إلى النفس. وهنا يكمن الفارق بأكمله بين الكبت والغفران الروحي. ففي العملية التي يصفها د. مايدر، يبدو أن الشخص قد تخلص من كراهيته، لكنه في الحقيقة يكون قد كبتها، وبالتالي تكون قد اندمجت في عقدة التضحية بالذات. إن التخلّص الروحي الحقيقي يحررنا؛ أما الكبت فيؤدي إلى المرض.

ولذلك، عندما يأتينا الضعفاء - الذين لا ينتقمون أبداً ويبدون راضين للسماح لأنفسهم أن تدوسهم الأقدام - ويفتحون قلوبهم لنا، نجد في قلوبهم تراكماً هائلاً للشعور بالظلم والشكاوى يثقلهم ويسممهم. وبصعوبة بالغة يدفعون أنفسهم لصياغة هذه الأمور في كلمات. وهم يخافون لئلا ننتهرهم نحن أيضاً بسبب احتفاظهم بهذا السجل السري من الجروح، والإهانات، والتثبيطات التي عانوا منها. يخافون لئلا ندعوهم أنانيين وحقودين، ولئلا نظن أنهم دائمو النقد لأبويهم، ومعلميهم، وأصدقائهم، وأزواجهم أو زوجاتهم.

الحقيقة هي أنهم ليسوا حقودين أكثر من أي إنسانٍ آخر. فكل ما عملوه هو أنهم كبتوا الانعكاسات الطبيعية للدفاع الذي يتم بصورة طبيعية تماماً عندما يُجرح الشخص. فكل محاولة للسيطرة من أي كائن حي إنما تثير في الحال حركة شرعية للدفاع. وهناك حركة أخرى في الإنسان، تلهمها

2 *Op. cit., p. 34*

النعمة، قد تُمكّنه من الغفران. لكن هذا الغفران الحقيقي، الذي دائماً ما يكون صعباً، ومعجزيا، منتجاً الخير شيئ، بينما الكبت السابق لأوانه للحركة الأولى للدفاع الشرعي شيئ آخر تماماً. فالغفران الأصلي انتصار روحي يحرر القلب من كل سخط. أما الكبت فهو مجرد ردّ فعل ضعيف لا يخلّص من شئ، ويخزن في القلب مخزوناً من الشكاوى العنيفة. يكتب د. مايدر: "الحقد لا يحلّ شيئاً؛ إنما يجعل الأمور أسوأ فحسب."

بإلقاء نظرة على هذا التحرير الذي لا يُضاهى الناشئ عن الغفران الحقيقي لا بدّ أولاً أن نساعد الضعفاء أن يريحوا قلوبهم من ثقل كل الشكاوى التي لم يتجرأوا قط على التعبير عنها. فليس هناك غفران بدون ذلك. فكي يتمكنوا من جديد من أن يحبوا الأبوين، أو الزوج، أو الزوجة، لا بدّ أولاً أن يُعبِّروا بلا خجل زائف عن العداء الذي يحملونه سراً تجاههم. وإلا فسوف يبقون أسرى في الحلقة المفرغة لردود أفعالهم الضعيفة. فالشخص القوي عندما يردّ الضربة بمثلها، فإنه بذلك لا يكتفي بأن يُفرِّغ شعوره بالإساءة، بل أيضاً يفرض الاحترام ويحمي نفسه من هجوم آخر. أما على الجانب الآخر، فالشخص الضعيف باتجاهه السلبي يجلب على نفسه المزيد من الإهانات والقيود. ويردّ عليها بالمزيد من ردود الفعل الضعيفة، وبخضوع ظاهر يكون في تناقض شديد مع رغبات قلبه العنيفة. وهذا التوتر بين اتجاهاته الخارجية والداخلية يمنع طريق أي اختبار للنعمة.

وخوفاً من الظهور بمظهر الشرير، فإن الشخص الضعيف يكبت انعكاسه الدفاعي المشروع، ثم يوبخ نفسه لأنه يخفي في قلبه هذا الكمّ من السخط المرير تجاه من جرحوه. ويبدأ في الاعتقاد أنه أكثر شراً من الآخرين، وهذا يقوده للمزيد من الكبت كي يخفي شره. والكبت يقود للاكتئاب - وعندئذ يظن أن صحته العليلة عقاب بسبب شره المتمثل في عدم قدرته على "نسيان" الجروح التي عانى منها!

أتذكر امرأة تبنت اتجاهاً شجاعاً متسامحاً تجاه خيانة زوجها لدرجة أنني هنأتها على مثل هذا الغفران العطوف، وقلت لها إنها بالتأكيد ستتبارك من أجل هذا. وقد كان بعد فترة بعيدة أنها اعترفت لي أن ضَيقها قد صار أسوأ بعد رحيلي، وأنها اضطرت للخضوع لدورة منتظمة من العلاج النفسي كي تخلِّص نفسها منه. وبعد ذلك اختبرت علاقة جديدة مع زوجها، بينما ما كنتُ أدعوه أنا غفراناً منها كان سابقاً لأوانه وقد أقام حاجزاً بينهما.

جاءتني مريضة أخرى تنتابها هواجس حادة. وقد وجدت أنها طالما كانت تضحي بنفسها من أجل من حولها، وتمحو شخصيتها وسط أسرتها. وقد كانت تظن أنها تعمل هذا برغبتها. وحتى عندما كان حدسها يخبرها - عن حق - أن زوجها يسئ التصرف في العمل، لم تكن تهتم بإخباره الحقيقة؛ وذلك لأنها كانت تعتبر أن امرأة ضعيفة مثلها لا يجب أن تتدخل في مثل هذه الأمور. وبعدها داهمها المرض، كاشفاً أن ثمن قمع شخصيتها بهذه الطريقة كان صراعاً داخلياً خطيراً - إحساس لاشعوري بأنها تخلَّت عن هدفها في الحياة، وبأنها دفنت كنوز الحدس والحكم السليم الذي وُهَبَ لها.

جاءتني امرأة في غاية الذكاء وهي في قمة الاكتئاب. فقد مرّت بالتربية السلبية التي تحدثنا عنها، وقد دربتها هذه التربية على ردّ الفعل الضعيف. ونتيجة ذلك، عندما صارت ضحية ميكانيزمات وافتراءات دنيئة معينة، فقد كبتت ردّ فعلها الشرعي للدفاع، وسمحت لنفسها أن تفقد عملها دون كلمة اعتراض. أما الأسوأ فهو أن الحلقة المفرغة لردود الأفعال الضعيفة كانت قوية جداً لدرجة أنها منعتها عن أن تكون موضوعية: ففي اكتئابها كانت غالباً ما تصل إلى الاعتراف بأن أولئك الذين عاملوها بكل ظلم إنما كانوا على حق. فكانت تلوم نفسها لأنها غبية، وعديمة القيمة، وغير ملائمة للمسئوليات المهمة التي وضعتها على عاتقها.

ولكن فيما وراء هذه الواجهة من تحقير النفس كان يكمن سخطها الشرعي. كان علينا أن ندرس بالتفصيل ظروف صراعها حتى يمكنها أن تلقي عليها نظرة موضوعية وتقدم لي تقريراً دقيقاً عن الحقائق المخزية التي دمرت حياتها. وعندئذٍ تمكنتْ من جديد من استعادة ثقتها بنفسها. وسرعان ما وجدت وظيفة جديدة، أكثر عائداً من تلك التي طُردت منها؛ ثم مرّت باختبار روحي حقيقي: ففي أحد الأيام أثناء الصلاة شعرت أن سلاماً عجيباً يغمرها. فذاب كل استيائها، وتمكنت حقاً من الغفران لمن أساءوا إليها. وفي نفس الوقت وجدت القوة للتغلب على أخطاء معينة في شخصيتها، تلك التي لم تخلّصها منها تربيتها الصارمة. وهذه النصرة بدورها ساعدت على عودتها لحالتها الصحية السليمة.

إن عقدة التضحية بالنفس تشوه الواقع. فالشخص يرى الآخرين أفضل مما هم عليه - بينما هو ينتقدهم سراً - ويرى نفسه أسوأ مما هو عليه، بينما يغذي كبرياء سرية. لا بدّ أن يصحح الشخص كل انطباعاته وأحكامه، تماماً مثلما يجب أن أضيف ست بوصات لكل قياس آخذه بمسطرة ضاعت منها الست بوصات الأولى.

هذه الميكانيزمات النفسية هي مجرد ردود أفعال طبيعية لا بدّ من عدم الخلط بينها وبين الاختبارات الفائقة للطبيعة ومبدأ عدم المقاومة المسيحي. فهي لا تحلّ شيئاً؛ ولا تبني شيئاً؛ ولا تبدع شيئاً. إنها مدمرة للشخصية وللعلاقة. وأحياناً ما تؤدي إلى الاكتئاب والهواجس، كما رأينا للتو؛ وأحياناً أخرى ما تؤدي إلى نوبات عنيفة تعمل كصمام أمان لإطلاق الضغط الناتج عن الشكاوى المتراكمة؛ وأحياناً ما تؤدي إلى اللامبالاة الباردة. يقول لي رجل: "لم أعد أحب زوجتي. وقد توقفت حتى عن أن أكرهها؛ فهي لا تعني شيئاً أبداً بالنسبة لي." في الواقع ظلّ هذا الرجل يكبت في صمت استياءه من اتجاهها؛ ولامبالاته الظاهرية الحالية نحوها ما هي إلا حركة أخرى لجعل الكبت أكثر تأكيداً.

كل من ردود الفعل القوية والضعيفة تميل إلى القضاء على الشخص، وذلك بعزله عن إلهام الروح وإسقاطه في الحتمية العمياء لآلياتها. وبالتالي فإن ردّنا على الأسئلة المثارة في بداية هذا الفصل هو رؤية حياة يوجهها الروح، وموجهة ضد الميكانيزمات الآلية للنفس - سواء كانت قوية أو ضعيفة، محفزة أو عائقة.

لن يكون من الصعب أن نطبق هذه الاعتبارات على مجال العلاقات الدولية، ولهذا نلقي الضوء على مشكلة الدفاع القومي التي ترهق المسيحيين اليوم. إن ردّ الفعل القوي للحالة العسكرية يقود الدولة التي تفسح المجال له آجلاً أو عاجلاً إلى نفس الكارثة التي كانت تترجى تفاديها بالانخراط في سباق التسلّح. كما أن خوف الدولة من أن تهزمها الأمم المنافسة إنما يقودها للجوء إلى التسلّح من أجل الخلاص؛ واتجاهها الاستفزازي إنما يجرّها إلى الحرب التي كانت تفكر في تجنبها بتطبيق المبدأ المشهور وغير السليم في نفس الوقت "إن طلبتم السلام فاستعدوا للحرب" .si vis pacem, para bellum

لكن التعليم النظامي للامقاومة ونزع السلاح بأي ثمن كثيراً ما يمثل ردّ فعل ضعيفاً للرأي العام، بل وسياسة هروبية تجلب الكارثة التي أغلق هذا التعليم عينيه عنها. وإني أستعمل هنا كلمة "تعليم" عمداً، حيث أنني لست أنوي انتقاد اتجاه رافضي الخدمة العسكرية الحقيقيين، الذين يظهرون شجاعة أدبية أكثر من ناقديهم الملتزمين.

في مواجهة مفهوم مشوه للمسيحية يُنزل من إصرار المسيح على الشهامة والغفران إلى مستوى أخلاقية خامدة، ومحوِّلاً إياها إلى نظام إنكار ذات صارم مدمر للنفس؛ وفي مواجهة تعليم العدوانية الذي يضع أولاً النمو والدفاع مهما كان الثمن عن الفرد، الأمر الذي يكبت صوت الروح، ويكون في النهاية مدمراً للنفس بنفس الدرجة، نقدم اتجاهاً ثالثاً لا هو بروح جماعة ولا بنظام، لكنه عاجز عن الخضوع

لأي خط سلوكي جامد؛ ولكنه أيضاً ليس بالحل الوسط الذي يتأرجح بين النظامين الآخرين. إنه اتجاه الشخص الذي يسعى للتوجيه طوال الوقت، لا بالمبادئ والتعاليم، بل بالله الحي. ففي الكتاب المقدس يجد الشخص دعوة الله لبذل النفس والغفران؛ لكنه يجد أيضاً دعوة الله له لأن يكون جسوراً وشجاعاً، وأن يقف بصلابة مدافعاً عن قناعاته. وبالتأمل أمام الله يتعلم أن يميز ما إذا ما كانت الرغبة التي دفعته ما هي إلا ردّ فعل قوي تكون إرادة الله أن ينتصر عليه؛ وسواء كان الغفران الذي قدمه حقيقياً أم لا؛ وسواء كان استعداده للقتال شرعياً أم لا. وبالتالي لا تكون المسألة مسألة أخلاقية تضحيات زائفة ولا أخلاقية بلا تضحية.

أتذكر إحدى مريضاتي، وهي امرأة متدينة جداً، دائماً ما كانت تبذل نفسها لمساعدة الآخرين. وفي اكتئابها كان تشكو ضد نفسها. فقد قالت لها ممرضة: "إن فكرتَ في الآخرين أكثر وفي نفسك أقل فلن تكوني مريضة!"

فقلت لها: "إني أميل بشدة أن أشرح لكِ الذات - الذات من المنظور المسيحي. الله يريدنا أن نحب في أنفسنا النفس التي خلقها على صورته، المستحقة للرعاية والحماية حتى تنمو بصورة سليمة. لا بدّ بالفعل من تهذيبها حتى تأتي بثمر، وليس إتلافها."

إذن فهناك دفاع شرعي عن النفس حسب إرادة الله لإتمام المهمة التي يدعوها إليها. بتوظيف المصطلحات التي يستخدمها معلمه Charles Secretan ، يقارن الفيلسوف Frank Abauzit[1] بين الفرد والنفس، الإنسان الطبيعي والإنسان المتجدد بالروح. يقول إنه من أحدهما للآخر "هناك تطور عميق - تحول بدرجة تعارض اتجاه الفرد واتجاه النفس الأخلاقية ... [ومع ذلك في التطبيق] يكون الفرد والنفس الأخلاقية واحداً ... فكلّ منا كفردٍ أولاً لا بدّ أن يبقى فرداً كي يدرك النفس الأخلاقية. وغالباً ما قد أقول

1 *Op. cit*

إنه لا بدّ أن يبقى محتفظاً بذاتيته."

وبالتالي فإن النفس الأخلاقية قد تكون مرتبطة بفرع مُطعَّم على الفرد. فحيويتها لا يمكن الحفاظ عليها على حساب انكسار الجذع. وعندما ينكسر الجذع ويجف، بغضّ النظر عن التعليم النظامي بإنكار النفس، فلا بدّ أن نغذيه مثل "بستاني البشر" الصالح[1]. فالله يخلق النفس؛ وهو يريد أن تعيش وأن تنمو.

مريضة أخرى من مريضاتي أصبحت حبيسة في اتجاه طفولي نتيجة مرات عديدة من الكبت، وقد كنت أحاول إعادة إيقاظها للحياة والنمو. ذات يوم وجدتها شاردة تماماً. قالت لي: "إني أصير أنانية وغيورة. فقد تلقيت رسالة من صديقة تنتظر مولوداً، فبدأت في البكاء. لم تكن لديَّ مثل هذه المشاعر الشريرة من قبل. فعندما كانت تتزوج أخواتي أو صديقاتي أو ينجبن أطفالاً، كنت دائماً ما أفرح حقاً!" فقلت لها: "هذه علامة حقيقية على التحسن. فقد كنتَ تسعدين من أعماق قلبك في الماضي كما تسعد بنت صغيرة في الثانية عشر من عمرها بزواج أختها الكبرى، وذلك لأنها لم تدرك بعد مقارنة نفسها بأختها. لكنكِ لم تعودي طفلة، وإذا لم تشعري بأية غيرة، فهذه علامة على أنكِ كنتَ تكبتينها لأن هذا يكون معناه أنكِ كنتَ تفقدين الثقة بنفسك وفي إمكانية زواجك. كل امرأة غير متزوجة، إن كانت طبيعية، تشعر ببعض طعنات الغيرة عندما تتزوج إحدى صديقاتها أو تصبح أماً. لستُ أقول إنها يجب أن تسمح للغيرة. ولكن أن نتعرف عليها، أن تأتي بها أمام الله، أن نخوض المعركة التي لا بدّ أن نخوضها جميعاً ضد الأنانية في قلوبنا شيء؛ وأن نهرب من المعركة، وأن نخفي غيرتنا عن أنفسنا ونظن أننا معفيون من الشعور بها، وأن نسقط مرضى نتيجة الخراب الذي يمكن أن تسببه الغيرة في قلوبنا عندما

1 Armand Vincent, *Le jardinière des hommes*, Editions du Seuil, Paris, 1945

ولا نهتم بها، واللا شعورية شيء آخر تماماً.

***

لنحاول الآن توضيح مفهوم هذا الدفاع الشرعي عن النفس. لن أدافع عن أي نوع من أنواع تقرير مسائل الخير والشر. فكما قلت، عندما يطّلب إنسان بأمانه أن يقوده الله، فسوف يميز أكثر فأكثر أية ظروف لا بدّ أن يترك فيها المجال وأية ظروف لا بدّ أن يثبت فيها. ولا شك أنه غالباً ما سيخطئ. ولهذا لا بدّ ألا يكون بمفرده في هذا البحث. يمكنني أن أفهم أن خادماً بالكنيسة، تكون دعوته هي أن يتكلم باسم الله، يجب أن يمارس توجيه الضمير، أي يجب أن يصف طريقاً للسلوك للمؤمنين الذين يستشيرونه. ولكن كلما أمارس "شفاء النفس"، كلما أقتنع أكثر بأن طبيباً مثلي - علماني عادةً - لا بدّ أن يتجنب بحرص أن يأخذ مكان القس. لكنه لا بدّ - عن طريق الأسئلة التي يسألها - أن يساعد أخيه لسماع صوت الله، وألا يدَّعي أن يعلن ما يقوله ذلك الصوت. كثيرون يأتوني متوقعين مني أن ألعب دور وسيط المشيئة الإلهية. وعموماً ما أتجنب إرضاء توقعاتهم، فيما عدا عندما يمكنني أن أشير عليهم ببعض المقاطع الكتابية التي تعالج الموضوع. وعموماً أقدم القليل جداً من النصائح؛ حيث أحاول مساعدة الناس على امتلاك شجاعة عمل ما يعرفون ضرورة عمله.

خذ حالة شابة ارتبطت برجل متزوج. وهذه العلاقة ليست مناقضة فقط لإيمانها الديني، لكن الرجل لا يمثل أبداً النموذج الذي تتمناه - فهي لا تشعر نحوه بالاحترام الحقيقي. فتسألني: "ما رأيك، هل يجب أن أقطع هذه العلاقة؟ فلا أشاء الإجابة. فكل المطلوب هو أن أضع سؤالاً آخر: "ما رأيك أنتَ؟" غالباً ما تكون المشكلة الحقيقية ليست معرفة إرادة الله، بل مجرد طاعتها.

ومع ذلك، فالطبيب يمكنه مساعدة مرضاه في بحثهم،

ليس فقط بعرض تواصله معهم، والصلاة لله من أجلهم، بل أيضاً بواسطة معرفته المهنية. فأي انتهاك للدفاع الشرعي للنفس يسبب اضطرابات نفسية بسبب الكبت المتضمن. ومن هنا يكون دور الطبيب هو أن يكشف هذا الانتهاك، ويبين آلياته، وبتتبع أثره يظهر لمريضه أنه اتخذ الطريق الخطأ، وأنه استسلم لردود أفعاله الضعيفة عندما كان يظن أنه كان يتصرف نتيجة عمل الخير.

هذا الأمر ينطبق خصوصاً - كما سبق وأوضحت - في حالة طفل، ولا سيما مراهق، سمح لنفسه أن يسيطر عليه أب متسلط أو أم متسلطة لدرجة تخليه عن إرادته الخاصة وأذواقه الشخصية.

ونفس الأمر ينطبق أيضاً في حالة شابة تضحي بكل أصدقائها من أجل غيرة خطيبها، بالإضافة إلى كل الهوايات التي أثرت حياتها - الرياضة، والفن، والتطلعات الفكرية - وذلك لأنها تجعله يشعر أنه أقل منها، ومن هنا فإنه لا يحتملها. لقد شاهدت الكثير من هذه الحالات. وعندما تُفسخ الخطبة تعاني الفتاة مرتين: ليس فقط بسبب الهجر، بل أيضاً بسبب الفراغ الرهيب الذي حدث في حياتها بتمزق ارتباط مستعبد كان إلى ذلك الحين يشغله تماماً.

وهذا ينطبق أيضاً في حالة الزوجة التي تعاني من استبداد زوج عصابي، وتفكر أن تسترضيه بالتخلي شيئاً فشيئاً عن كل شيء ثمين في نظرها. إن ما يوضح خطأ كل هذه التصرفات السلوكية هو أنها تفشل في هدفها: فالطفل الضحية يرى أبيه أو أمه يصبحان أكثر فأكثر تسلطاً، ويكدسان فوقه الأثقال؛ كما أن الخطيب الغيور، عندما يكون قد سلب شخصية خطيبته بأكملها، فإنه يسأمها ويتركها؛ والزوجة الضعيفة إنما تغذي فحسب عصاب زوجها.

وهذا ينطبق أيضاً على حالة المراهق الذي يستنكر المهنة التي يشعر أنه مدعو لها، وخصوصاً المهنة الفنية، تحت

ضغط أبيه، إما لأن الأب يظن أنه من الصواب أن يتبعه في عمل الأسرة، أو لأنه يظن أنه يحمي مستقبل ابنه المادي - رغماً عنه - بدفعه إلى وظيفة إدارية. وهذا ينطبق أيضاً مثلاً على رجل يلتحق بدراسة اللاهوت بدافع من أم لديها طموح عاطفي كي تراه يعتلي أحد المنابر.

لكن هذا ينطبق أيضاً بدرجة أقل كلما يستنكر أي شخص اقتناعاً شخصياً أو رغبة مشروعة خوفاً من "ما سيقوله الجيران." فتاة تتوقف عن الرقص، وأخرى تترك صديقاً حميماً تكون أحواله ليست جيدة، وثالثة دائماً ما تبقى في البيت في خضوع أثناء الإجازات بينما رحلة الإجازة يمكنها أن تفيدها: كل هذه الحالات تستسلم لتحيز الآخرين.

من الجدير أن أشير هنا إلى كيف أن بعض الآباء والأمهات إنما يحبون أولادهم من أجل أنفسهم. فهم يعتبرون عموماً أنهم قد تعرضوا للإهانة بمجرد أن يُظهِر الأطفال أية دلائل على أذواق شخصية مختلفة عنهم، ويوبخوهم على ذلك كما لو كان هذا الأمر خروجاً عن التربية.

لكن أخطر انتهاكات الدفاع الشرعي عن النفس هي الانتهاكات المرتبطة بالقيد الأخلاقي أو الديني. ومثال هذا حالة المرشح للتثبيت[1] الذي يصرح لأبويه ولقس كنيسته أنه لا يمكنه ضميرياً أن يتقدم للتثبيت، وأخيراً - ضد إرادته- يستسلم في وجه العاصفة التي تهاجمه. وهذه أيضاً هي حالة الشخص الذي يسمح لنفسه أن يدفعه بعض المتشددين إلى طائفة لا يشارك في عقائدها خوفاً من اللعنات الإلهية التي يهدده بها معلمه إن قاوم. وهذه أيضاً حالة المرأة التي كي تحتفظ بزوجها تسمح له أن يُحضِر عشيقته إلى البيت؛ أو تترك نفسها للممارسات الشاذة من جانب زوج منحرف

---

١ سر من أسرار بعض الكنائس، يُثبِّت المعمودية أو يُكمِّلها، ولذلك يسمونه خاتم المعمودية. يمنحه الكاهن عند الاعتماد، أو الأسقف عند بلوغ سن الرشد، بحسب عادات الكنائس [نقلاً عن الأب صبحي حموي اليسوعي، مُعجم الإيمان المسيحي، دار المشرق، بيروت، ط١، ١٩٩٤].

جنسياً. وقد كانت هذه حالة امرأة على قدرٍ عال من التعليم، وتعمل طبيبة نفسية، "من أجل حبها لزوجها" وافقت على الطلاق الذي كان هو يريده، والذي لم تكن موافقة عليه، ثم عانت من انهيار عصبي شديد بسبب شعورها العميق أنها قد خانت مبادئها. وقد كانت هذه أيضاً حالة امرأة اعترفت لي أنها طلبت غفران أبويها عن خطايا لم ترتكبها قط، وذلك كي تنال رضاهما دون أن تناله بعد كل هذا.

بعد هذا هناك حالة فتاة كاثوليكية أراد خطيبها البروتستانتي أن يجبرها على العدول عن فكرة إقامة مراسم الزواج في كنيستها. وفي سياق حديثنا معاً، أدركت أنه رغم أنها لا بد أن تحترم عقيدة خطيبها الدينية، إلا أنها لا يمكنها أن ترجو بناء بيت مبارك على أساس إنكار عقيدتها.

وبالتالي، فإن هناك قناعات معينة لكل إنسان قد لا يخضع بشأنها لأي ضغط، سواء من الأسرة، أو الزوج أو الزوجة، أو الدولة، أو الكنيسة، دون أن يدمر بنفسه الانسجام الداخلي والحيوية الصحية لنفسه. وحالما تتم مثل هذه التنازلات، فإنها تؤدي حتماً إلى تنازلات أخرى. ونتيجة تخلي الشخص مرةً بعد الأخرى، ينتهي به الحال بفقد كل ثقته بنفسه. وتكون إجابته على أي سؤال هي كلمة "ربما". فكثيراً جداً ما يكون قد تبنّى آراء الآخرين لدرجة أنه لم يعد يعرف آراءه الخاصة به. وحالما يكون على هذا المنحدر الزلق، بدلاً من أن يطور شخصيته، فإنه يداهمه المرض.

عندما يتخلى البشر عن حقهم المشروع في الدفاع عن أنفسهم، فإن احترامهم لأنفسهم ينهار. فيهملون أنفسهم ويشوهون شخصياتهم. وأحياناً ما يتركون أنفسهم للرذيلة، كما لو كانوا منساقين برغبة جامحة لتحقير أنفسهم في أعين أنفسهم. إنهم يكرهون ذواتهم، ويتكلمون بقسوة وغضب لأنفسهم، بمصطلحات كانوا سيسارعون بالاعتراض عليها لو استخدمها ضدهم شخص آخر.

ليس من السهل على المرء أن يخلص نفسه من عادة تحقير الذات هذه. فالذين وقعوا فريسة لها يشعرون بالخجل من الاهتمام بأنفسهم، وإنفاق المال على أنفسهم، وشغل وقت الآخرين، والدفاع عن أنفسهم.

يقولون: "خصص وقتك لمرضى أكثر أهمية أو أكثر استحقاقاً لانتباهك منا." وإن استمعنا إليهم فسوف تتوقف استشاراتنا حين يكونون في غاية التوق لاستمرارها. هناك احتياج للصبر الكبير إن كان علينا استعادة احترامهم لأنفسهم، الذي بدونه لا يمكن لإنسان أن يثبت ذاته.

والحقيقة أنه لا شئ يقوم بذلك بصورة فعالة أكثر من المبدأ الكتابي للإنسان الذي يُضفي عليه قيمة مستمرة كشخص، وضمان أن الله يحب كل البشر بالتساوي وبالتمام، وأن موته على الصليب هو بمثابة الضمان الدائم لمحبته.

ومن هنا فإن الضعفاء يمكنهم أن يصبحوا أقوياء، وذلك بقوة مختلفة تماماً عن القوة الآلية لردود الفعل القوية. فهم لا يُمنحون قوة ميكانيكية طبيعية؛ بل قوة فائقة للطبيعة، إثبات النفس الهادئ الذي يتم حين نتواصل مع الله، وحين يوقظ فينا قناعات ثابتة قوية ويدعونا للدفاع عنها بأمانة نحوه.

إن المحللين النفسيين، كما هو معروف جيداً، يؤمنون أن هناك علاقة وثيقة بين الغريزة الجنسية وما يسمونه بالعدوانية. فأتباع فرويد يعتبرون أن العدوانية مجرد إسقاط للغريزة الجنسية. وتبعاً ليونج، فإن الغريزة الجنسية مجرد تعبير معين عن الليبيدو، غريزة البقاء وعن امتداد الإنسان. على كافة المستويات، سيكون من المفهوم أن الاتجاهات الثلاثة التي سبق وعرَّفتها تتضمن أيضاً ثلاثة مفاهيم واضحة المعالم للسلوك الجنسي. إن تعليم إنكار الذات النظامي يتضمن رؤية سلبية تحقيرية تقوم على كبت غريزة الجنس. أما تعليم المحللين النفسيين عن العداونية فيتضمن التأكيد على حق الفرد في أن يُطلق العنان بحرية لغريزته

الجنسية. وأخيراً، فإن الاتجاه المسيحي يتضمن مفهوم الحياة الجنسية الموجهة من جانب الله. فإله الكتاب المقدس لا يدين الجنس، حيث أنه خلقه ومنحه للجنس البشري؛ لكنه يكشف للبشر كيفية استخدامه.

يكتب د. مايدر: "عقب فترة الصراع المتحيز ضد الغريزة الجنسية، يبدأ ردّ الفعل المعاكس في الظهور. لا بدّ أن نسعى الآن نحو موقف وسط يمكنه أن يتميز كضبط نفس حكيم."[1]

من الحقيقي أنه في حالة رجل يعاني من اعتمادية نفسية مرضية على أمه، أن اختبار الجنس - حتى خارج إطار الزواج - قد يمثل إظهاراً مفيداً للتحرر. لكنه لا يكون تحرراً حقيقياً. لكنه مجرد ردّ فعل. ردّ فعل قوي يحلّ محل ردّ فعل ضعيف، وإلى هذا الحد فقط، كتصرف علاجي، يكون خطوة نحو حياة أكثر طبيعية.

أما التحرر الحقيقي فلا يوجد على مستوى ردّ الفعل النفسي. لكنه موجود في طاعة الله. إنه يوجد عندما يلجأ الإنسان إلى الصلاة، طالباً معرفة إرادة الله وحاكماً سلوكه بموجبها. وعند تلك النقطة تنكسر حتمية ردود الفعل البيولوجية البحتة، بإتاحة المجال لاتجاه خلّاق واستقلالي. تذكر كلمات ويليام بن: "لا بدّ أن يُحكم البشر من جانب الله، وإلا فسوف يقودهم الطغاة."

كي نتحرر كبشر، لا بدّ أن نعتمد على الله وحده. فالحرية لن تكون في تقليد شخص آخر - حتى إن كان شخصاً بارزاً مثيراً للإعجاب - أكثر من أن تكون في اتخاذ الرؤية المضادة لشخصٍ ما لا نحبه بصفة منتظمة.

زوجة شابة تهيم بزوجها وتعجب بحماتها. الحماة ربة منزل بارعة، ورغم أنها في غاية اللطف تجاه زوجة الابن، إلا أن الزوجة دائماً ما تمتلئ بالقلق عندما يكون

---

1 *Op. cit., p. 160*

عليها استضافة حماتها، حيث تظن أنها ستنتقد طريقة إدارة بيتها. في إحدى المناسبات تحضَر لها حماتها أرنباً برياً كي تطهوه على العشاء، لكن الزوجة تشعر بقلق بالغ لدرجة أنها تمرض، ولا يمكنها مصاحبة زوجها إلى حفلٍ موسيقي كان قد طلب منها حضوره معه. في الحقيقة كانت تخاف لئلا تظن حماتها أن زوجات اليوم الشابات مؤهلات لحضور الحفلات الموسيقية أكثر من الطهي! ونصيحتي لها هي أن تترك حماتها تُظهِر مواهبها في طبخ الأرانب، وأن تدع نفسها تنمى المواهب التي قد منحها الله إياها. وأقول لها: "لا شك أن زوجك اختارك لأنه يقدر ذوقك الفني. وسوف تكون سعادته أكبر بذهابك معه للحفل الموسيقي عن أن يراك في المطبخ تذرفين الدموع على أرنب بائس."

شاب متدين جداً يستشيرني لأنه صار يعتمد أكثر من اللازم على مرشده الروحي. فهو يرى أنه دائماً ما يحاول تقليده وينال رضاه. وقد جاء ليصلي معي كي يتمكن من ترك هذا الاتجاه الخاطئ.

ولكن أن يدافع المرء عن نفسه ضد تأثير شخص آخر، هذا لا يجعله أكثر حرية أبداً. امرأة تصارحني بأن خوفاً مستمراً من التعلق بي تعلقاً زائداً قد أعاق شفاءها. ومع ذلك، فهذا لم يمنع خوفها من أن أفقد اهتمامي بها إن نالت الشفاء. فالحوار الصريح حول هذا كله يساعد على تحريرها أكثر بكثير من كل الاحتياطات التي اتخذتها في قلقها السري.

هناك أشخاص يدافعون باستمرار عن أنفسهم ضد من يُعجبون بهم بالأكثر، خوفاً من أن تُمحى شخصياتهم. وهذا الاتجاه عينه الذي يكون فيه الشخص في حالة دفاع دائم هو ما يمنع النمو الحر لشخصيته. يمكن للمرء أن يعمل استراتيجية جديدة مع كل شئ دون أن يكون نفسه فيما بعد نتيجة ذلك.

نفس الشيء يحدث عندما نخاف من الخداع، أو النقد أو الإدانة. شابة تدرك أنها تعمل بالوظيفة غير المناسبة. لا

تجرؤ أن تخبر أبويها لأنهما ينتقدانها دائما لأنها مترددة ومتقلبة في أفكارها بخصوص ما تودّ أن تعمله. في الواقع فإن هذا النقد بالضبط هو الذي أزعجها ولم يمنحها سلام الذهن اللازم لاتخاذ قرارات ناضجة. حالة أخرى لامرأة تعمل بمفردها في الشركة، وتعيش في خوف دائم من الدعابات السوقية من زملائها الذكور. وخوفها يزعجها نفسياً، وهذا يثير المزيد من الدعابات من زملائها.

لستُ بحاجة للتركيز على الخوف "مما سيقوله الناس"، الذي يجعل كثيرين أسرى ويدفعهم إما إلى توافق مستعبد للمجتمع، أو إلى عدم توافق يدعو للسخرية. يكتب ألين Alain : "الشخص المدّعي العلم يتصرف بطريقته ويفكر نفس ما يفكره الآخرون. أما الحكيم - من الناحية الأخرى - فهو يتصرف مثل أي إنسانٍ آخر، لكنه يفكر تفكيره هو." كما يضيف د. زانك Tzanck: "أن يفكر المرء بنفسه هو أن يفكر حقاً."[3]

الاتجاه الاعتمادي يصبح تدريجياً طبيعة ثانية، حتى أن الشخص لا يعد يعرف ما هي طبيعته ومعتقداته الحقيقية. وما يثبت أن ردود الفعل القوية والضعيفة ليست مختلفة جداً كما نفترض هو حقيقة أننا كثيراً جداً ما نمر من أحدها إلى الآخر، تماماً مثلما اعتاد Maitre Jacques de Moliere أن يبدل بين الردائين خاصته. وهذا بمثابة لعبة نلعبها الآن بطريقة وبعدها بطريقة أخرى - لكنها ما زالت نفس اللعبة.

أخبرتني امرأة أنها اعتادت وهي طفلة أن تلعب لعبتين خاصتين للتظاهر. وقد كانت تلعبهما دوراً بعد دور، وتتقمص الأدوار حقاً، كما يعمل الأطفال في لعبهم. كانت إحدى اللعبتين هي "لعبة الضمير" والأخرى هي "لعبة لا أهتم". عندما كانت تختار الأولى، كان عليها أن تكون

3 Arnauld Tzanck, *La conscience creatrice*, Charlot, Algiers, 1943

صالحة ومطيعة بصورة كبيرة جداً، وأن تعمل تماماً ما يُطلب منها. ولكن عندما كانت تسأم هذا الكمال المزعج، كانت تقرر أن تلعب "لعبة لا أهتم"، ومعناها أنها عليها أن تكون أقسى ما يمكن. واستطردت لتخبرني أن شيئاً ما من ذلك قد بقي حتى فترة بلوغها؛ وكانت لا تزال تجد نفسها تنتقل من دور إلى دور، من التدقيق المفرط إلى عمل الخطأ المتعمد. ومن هنا غالباً ما ننتقل من ردود الفعل الضعيفة إلى ردود الفعل القوية، والعكس، دون أن نتوقف في كلتا الحالتين عن أن نكون ممثلين نؤدي دوراً.

***

ليس من السهل أن نتحرر من ردود أفعالنا النفسية. فالمطلب الأول، بالطبع، هو أن نتعرف عليها. لكن هذا ليس كافياً. فحتميتها قوية. كما أنها تتغذى - كما أوضحت في الفصل الثالث - بتراكم إخفاقات الماضي، والندم، والمرارة التي نحملها جميعاً في قلوبنا، بالمعرفة التي لدينا عن ضعفنا الداخلي. ولهذا فإن التحرير الحقيقي لا يمكن أن يوجد بدون الاعتراف بخطايانا واختبار الغفران الإلهي.

هذا الاختبار يقود في الحال إلى التكريس، إلى قرار في كل ظرف لاختيار مشيئة الله. يكتب تشارلز سيكريتان Charles Secretan فيلسوف الحرية: "إن فعل التحرير لا يكمن في الإرادة بلا دوافع، بل في الاختيار بين الدوافع، وذلك دون أن نتقيد تماماً في اختياراتنا بأحداث الماضي الداخلية أو الخارجية كأفراد."[4]

من يأتي إلى جانب المسيح يمكنه بحرية أن يشترك في كل شئ يبدو له متوافقاً مع إرادة المسيح مهما اختلفت المجموعات البشرية.

---

4 Frank Abauzit, *L'enigme du monde et sa solution selon Charles Secretan*, Delachaux and Niestle, Neuchatel, 1938

هناك قوة جديدة تولد في الشخص الذي يتحرر هكذا، قوة مختلفة تماماً عن القوة البيولوجية: قوة الاقتناع الحقيقي. أتذكر فتاة صغيرة يتيمة عانت كثيراً من نظام قاسٍ في أحد الملاجئ، واستمرت في أن تقول لي إنه لم يكن لها هدف في الحياة. وذات يوم جاءت واعترفت أن هذا لم يكن حقيقياً. قالت: "منذ ذلك الحين يمكنني أن أتذكر أنني كنت أريد أن أكون ممرضة، لكني توصلت مؤخراً فقط لإدراك الحقيقة." ومنذ تلك اللحظة قررت بتصميم رهيب أن تتغلب على كل عائق يعترض طريقها، وذلك بتوفير القرش على القرش كي تحصل على المال اللازم لدراسة التمريض.

أتذكر شابة أخرى سحقتها طفولة قضتها وسط الفقر والحياة المهينة. وبعدما بدأت تطوير شخصيتها بعد اختبارات روحية معينة، أخبرتني عن أحد أحلامها. كانت في غرفة؛ وكان هناك أسد نائم عند قدميها نهض بشكل مهيب ومدَّد نفسه. كان وحشاً مثيراً للرهبة، لكنه كان أليفاً. وببطء بدأ يتخذ طريقه خارجاً إلى العالم، فارضاً احترامه أينما ذهب. كانت تخاف لئلا يرتعب منه الناس، لكنها شعرت أنه لن يؤذيهم. لقد كان الأسد هو نفسها، أو بالأحرى قوتها الكامنة، المثيرة للرهبة، والمفيدة في نفس الوقت التي شعرت أنها تعود للحياة في داخلها.

هذه هي القوة الروحية، التي ليست لعبة، لكنها التزام للنفس. يكتب سارتر: "الجبان يجعل نفسه جباناً، والبطل يجعل نفسه بطلاً؛ و... هناك إمكانية دائمة للجبان أن يقلع عن الجُبن وللبطل أن يقلع عن البطولة. فالمهم هو الالتزام الكامل.[5]

فيما نشكل اقتناعاتنا نكرس أنفسنا. فتاة تعترف لي أنها تجنبت بحرص أن تدعني أعرف القرارات التي اتخذتها سراً في قلبها كي تحمي نفسها من مخاطرة تعرضها للومي إن حدث ولم تلتزم بها. وبالطبع لم تتمكن من الالتزام بها!

5 *Op. cit., p. 43*

لا تغامر فلا تنال غالباً ما نكون كهذه الفتاة، ودهاؤنا إنما يهيئ الطريق لعدم وفائنا.

في نفس الوقت الذي يجد فيه الشخص الضعيف قوته الجديدة، فإنه يتحرر من عمل ادعاءات زائفة. من الملاحظ جداً أن الضعفاء دائماً ما يشكون من الآخرين كمبرر لضعفهم. فعجزهم عن إثبات أنفسهم يرجعونه لفشل أبويهم في تفهمهم. ومع ذلك حين يرحل أبواهم، فإنهم أيضاً لا يثبتون أنفسهم. والآن يتهمون أزواجهم أو زوجاتهم، رؤساءهم في العمل، أو المجتمع كله. أظهرتُ بوضوح كافٍ في هذا الكتاب كيف أن هناك أرضية كافية لمثل هذه الشكاوى لئلا أتعرض لتهمة عدم التعامل بعدل معها. لكن الشيء الملحوظ هو أنه عندما يتحول شخص ضعيف إلى شخص قوي، بعد اختبار روحي، يأتي إلينا قائلاً: "كان من الأسهل أن أشكو من أبويَّ عن أن أقف في مواجهتهما. كما أرى الآن مدى الرضا الذي كنت أحصل عليه من لعب دور طفل غير مفهوم، لأن هذا كان يعطيني مبرراً كافياً لعدم عمل ما كنت أعرف ضرورة عمله."

هكذا يأتي رجل ليخبرني أن سبب عصبيته وجداله المستمر مع أمه واتهامها بمحو شخصيته هو أنه خائف من الحياة ويلوذ بحماية أمه. وامرأة تدرك أن شكواها الدائمة ضد أبيها المسن إنما هي وسيلة تلتمس بها العذر لنفسها على الضَيق الذي تشعر به لكونها ضعيفة جداً أمامه. وقد قالت إنها لا يمكنها بعد أن تحتمل أن يعيش معها، ولكن إن تغيرت من الداخل فسوف يمكنها أن تتوافق معه.

فتاة متضايقة لعدم قدرتها على الالتحاق بالدراسة التي تطمح إليها بسبب الوضع المالي لأبويها. ولكن حين تجد وسائل توفير الدعم اللازم لإزالة هذه العقبات، تتخلى عن فكرة الدراسة. زوج يشكو من غيرة زوجته الشديدة حتى أنه لا يمكنه أبداً أن يقضي أمسية بالخارج بمفرده. فأتمكن من إقناع الزوجة أنه من المفيد لكلا الزوجين أن ينفصلا

أحيانا كي يتمكن كل منهما من أن يشعر بحرية عمل ما يريد. فيحدث أنه في نفس تلك الأمسية تتمنى الذهاب لحضور محاضرة حتى يشعر الزوج بحريته. إلا أنه يصحبها إلى باب قاعة المحاضرات، ثم يتجول في المدينة بلا هدف، ويمرّ على الكثير من دور السينما دون أن يتمكن من اتخاذ قرار دخول أي منها. ثم يعود إلي البيت، حيث تجده زوجته أخيراً جالساً في كرسيه الوثير المعتاد!

كتب La Bruyere إن من يضيعون وقتهم هم من يشكون من عدم كفايته. ممرضة بإحدى المستشفيات تشكو من أن أحداً لا يساعدها في مهمتها الثقيلة؛ ولكن عندما يأتي شخص ما ليعرض المساعدة، تتضايق من ذلك. زوج ينزعج من زوجته لذهابها في رحلة في الوقت الذي كان يحتاجها فيه. "لماذا لم تطلب منها ألا تذهب؟" فيجيب أنه لم يجرؤ على ذلك؛ إنما كان يود أن تخمن أمنيته. إن حقده الشديد ضدها يعمل كستار للحقد الذي يغذيه على حساب خجله.

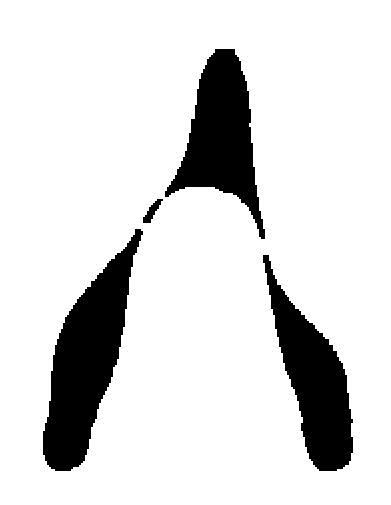
امرأة قوية، ضيقة الأفق تشكو من أن زوجها يُسلّي نفسه ويخدعها، تاركاً إياها تهتم بشئون عمله. وفيما وراء شكاواها تخفي حقيقة أنها تلوم نفسها لأنها فرضت عليه سيادة لم تضع أمامه بديلاً سوى الهروب. زوج يشكو من تقصيرات زوجته، وعندما نناقش الأمر بجدية يعترف أنه هو نفسه يشعر بمسئولية ذلك. فقد كان قد حثّها لذلك من خلال الضعف الشديد الذي كان يُظهره أمامها. زوج آخر يشكو من البرود الجنسي لزوجته. يدرك أن السبب الحقيقي يكمن في نقص رجولته، الأمر الذي أخفاه تحت مظهر الفضيلة. وبعد أيام قليلة يكتب لي رسالة رائعة عن السعادة الزوجية التي اكتشفاها معاً من جديد.

لستُ أقصد إذاً في هذا الكتاب أن أكتب دفاعاً عن الضعفاء، كما قد يكون القارئ قد وبخني على ذلك. أعلم أننا غالباً ما نكون مسئولين عن حالات سوء حظنا بسبب كسلنا، وجُبننا، وتخاذلنا. أتمنى فحسب أن أوضح كم أن الحياة الروحية

بعيدة تماماً عن القدرات الطبيعية لردّ الفعل، الضعيف أو القوي. لقد استنكرت خطأ الخلط بين ردود أفعالنا الضعيفة وإنكار الذات من المنظور المسيحي. ويبقى لي أن أفحص أيضاً الفارق بين القوة الروحية والقوة النفسية.

إن الإيمان قوة، قوة ملموسة وعملية. والحياة المسيحية ليست امتناعاً. والتجديد الحقيقي يحرك المرء بدلاً من أن يجعله مُعاقاً. ما زال يمكنني أن أسمع شاباً يقول لي بشغف بعد الصلاة التي قدم فيها حياته لله: "لقد قبلتُ الآن فكرة أن الحياة معركة."

ولكن ما هي تلك المعركة، وبأية قوة نخوضها؟ لم تعد هي المعركة بين الاقوياء والضعفاء؛ ولا هي موجهة بالقوة البيولوجية التي نالها الأقوياء بالوراثة والتي طورتها فيهم ظروف الحياة.



القوة النفسية والقوة الروحية

جميع الملاحظات التي جمعناها في هذا الكتاب تقودنا بالتالي لتمييز منظورين في السلوك الإنساني، منظور طبيعي ومنظور فائق للطبيعة، منظور بيولوجي ونفسي ومنظور روحي. وهما لا يختلطان معاً كما أن أحدهما لا يتعارض مع الآخر. ولا يمكن الادّعاء أيضاً بأن القوة الروحية دائماً ما تُترجم إلى انتصارٍ ونجاح، أو أنها ظاهرة فقط في الحرمان والهزيمة. يقدم العهد الجديد أمثلة لأناسٍ ضعفاء يصبحون أقوياء بعمل الروح القدس. هناك مرضى ينالون الشفاء، وأشخاص تجرحهم الحياة يستردون شجاعتهم، وأشخاص خجولون جُبناء يتولون المسئوليات ويصيرون رجالاً لا يُغلبون. ولكن هناك أيضاً الصليب، وهناك المسيح يرتجف في وجه الموت، ويبدو مهزوماً لدرجة أنه يظن نفسه متروكاً من الله؛ وهناك رسوله الأعظم يعترف بضعفه.

من الضروري إذاً عمل تشخيص مقارن بين القوة الطبيعية والقوة الفائقة للطبيعة، بين الضعف الطبيعي والضعف الفائق للطبيعة؛ وبهذا التعبير أقصد الخطية، الانفصال عن الله. هذه مسئولية معقدة مركبة. فالحياة الفائقة

للطبيعة تُعاش في إطار الحياة الطبيعية؛ كما تَظهَر نفسها في سلوك البشر. ومع ذلك، بينما تنتمي الحياة الطبيعية لمجال الدراسات العلمية، فإن الحياة الفائقة للطبيعة تنطلق فيما وراء حدودها. كما أن العقل البشري أصغر بمراحل عن قبول المنظور العلمي في نفس الوقت مع المنظور الميتافيزيقي، بل أنه يكون غير كافٍ بدرجة أكبر عندما تتم مقارنتهما. ولهذا فنحن غير قادرين على صياغة خط التحديد الذي نسعى لرسمه بين القوة الطبيعية والقوة الروحية بشكل مجرد، ضمني، وفكري. نحن مُجبرون على تحديد حدوده حينما وحيثما يمكننا ذلك، باقتباس عدد كبير من الأمثلة وعمل تشخيصنا المقارن حالةً بحالة.

ما قُلناه في الفصل السابق عن الإنكار الخاطئ للنفس يمكن التعبير عنه في العبارة التالية: الضعف الطبيعي ليس فضيلة دائماً، ولا القوة الطبيعية خطية. وهذا في الواقع هو الخطأ الذي يقع فيه من يساوون المسيحية بنوعٍ خاطئ من الزهد يرفع من شأن التضحية والتخلي بصورة نظامية كما لو كانت قيمتها كامنة في حدّ ذاتها. كما تُعرِّف التقديس باتجاه سلبي للحياة، وللجسد، وللجنس. كثيراً جداً ما أقابل هذا المفهوم المشوه للحياة المسيحية - وبالتالي يظن كثيرون أنه عندما يريدون شيئاً بدرجة شديدة فلا بدّ بالضرورة أن يدينه الله.

يستخدم الكثير من الضعفاء هذا التعليم لتبرير ضعفهم. فهم يشعرون بالرضى باتباع ميلهم الطبيعي، متملقين أنفسهم بأنه يُضفي عليهم سمواً أخلاقياً معيناً عن الذين يشقّون طريقهم للنجاح في الحياة.

كثيراً جداً ما يكون العكس هو السائد، وكثيراً جداً ما يكون الضعف النفسي عقبة في طريق الحياة الروحية. هناك مثلاً حالة رجل أقسم في شبابه بألا يتورط في أية علاقات جنسية قبل الزواج. وهذا بالطبع قرار سليم جداً. لكن قراره كان نابعاً من ضعفه النفسي، خوفه من الجنس ومن نفسه

أكثر بكثير من كونه نابعاً من إيمانه الديني - وهذه الحقيقة يدركها الآن. ونتيجة ذلك انحرفت حياته منذ ذلك الحين بالوساوس الجنسية التي أحكمت قبضتها عليه. وصارت حياته هزيمة وليست نصرة؛ وأخيراً في هذا الضيق فقدَ إيمانه. حالة أخرى لامرأة تنتابها ذكرى قبلة آثمة اعترفت بها. وهي تؤمن بغفران الله لكل خطية - ولكن ليس لهذه الخطية. وبالتالي فإن اضطراباً نفسياً - خوفها من الجنس - أزعج حياتها الدينية لدرجة أنها صارت تظن أنها غير مستحقة للصلاة.

يمكنني أن أستشهد هنا بكل المرضى النفسيين اللذين يأتون ليلقوا علينا أحمالهم من تبكيت النفس. إنهم يتهمون أنفسهم بعدم الإصغاء للمسيح، ويرون مرضهم كعقاب إلهي. لكنهم ليسوا قادرين أبداً على أن يخبرونا بالضبط أية دعوة من المسيح رفضوا الاستجابة لها. وهنا لا بدّ أن يعمل الطبيب النفسي تشخيصاً مقارناً: فاتهام النفس المبهم، الحصري، والنظامي يكون مَرضياً بصورة عامة. أما الشعور الملموس بالندم، الذي يتعلق بفعل أو باتجاه محدد يكون حقيقياً بصورة عامة. وأهمية التفريق واضحة. فالمريض النفسي من هذا النوع المَرضي يتصادف أن يقابل مؤمناً أو قساً، فيقترح عليه أن يركع على ركبتيه ويتوب ويصلي. فيجيب المريض: "لا يمكنني أن أصلي." في مثل هذه الحالة تكون كل جهود العلاج بالاهتمام الرعوي بلا جدوى، وذلك لأنها موجهة توجيهاً خاطئاً، وسوف تُعمِّق اكتئاب المريض لأن المشكلة ليست روحية بل نفسية. إن إحساس المريض بالذنب وعدم قدرته على الصلاة مجرد إسقاط للإحباط النفسي على المجال الديني. فبينما بالنسبة للشخص السليم يكون معنى أن يضع نفسه هو أن يجد الحرية باختبار الغفران الذي يقود إليه، أما في المريض فيزيد اكتئابه، وخيبة أمله، وإحباطه. وكما يكونون مدفوعين بحاجة لجعل أنفسهم شهداء، فإن هؤلاء المرضى يجربون مدخلاً دينياً تلو الآخر؛ يتنقلون

من كنيسة لأخرى ومن مذهب لآخر، ويُخضعون أنفسهم لوضع الأيدي، وللمعمودية بالتغطيس، ولأشكال عديدة من إماتة الجسد، فيشهدون فشل كل هذه الطرق على منح الشفاء الروحي دليلاً على عدم رضا الله تجاههم.

على الجانب الآخر، فإن الذكاء، والصحة، والتحكم في النفس، كل الصفات التي تأتي بالنجاح للأقوياء، قد تكون غالباً هي التعبير عن القوة الإلهية. فيما أوضحت في الفصل الخامس أن ردود الفعل القوية أحياناً ما تكون قناعاً خادعاً نخفي من ورائه ضعفاتنا وأخطاءنا، فمن الصواب يجب الآن أن أنصف الأقوياء. فالطاقة التي تعتبر طبيعية بالنسبة لهم، وسلطتهم التلقائية، وشجاعتهم الرزينة الثابتة قد يعتبرونها عطايا من الله، مواهب يمكنهم تطويرها لخدمته، مستخدمين إياها ليس دون مراعاة الآخرين، بل للدفاع عن الضعفاء وتدعيم العدل والحق.

أحد أقرب أصدقائي زميل كاثوليكي يعيش حياة بسيطة تماماً، مستقيمة، ومثمرة تماماً. كانت طفولته سعيدة، ونموه متناغماً، وعمله مرموقاً. لم يعرف قط مشاعر النقص والإخفاقات التراجيدية التي كان من نصيبي أن تشكل إيماني. فبالنسبة له، تبدو طاعة الله، والنصرة على النفس، والسلطة الجيدة على الآخرين أموراً سهلة وطبيعية. إنه يخدم الله والآخرين بقوته بينما أحاول أن أخدمهم رغم ضعفي.

هنا أيضاً يكون التشخيص المقارن مهماً. فمن بين شخصين قويين بصورة طبيعية، يكون أحدهما قوياً بانسجام وقوة شركته مع الله، أما الآخر فيكون قوياً باستجماع قوته بصورة دفاعية بينما يكشف علم النفس ضَيقه السري فيما وراء هذا. رأينا تواً أن مقارنة النفس بالآخرين بصورة نظامية إنما يكشف عن اضطراب نفسي وليس اقتناعاً حقيقياً بالخطية. وبالمثل، فإن اهتمام المرء المستمر بإظهار قوته وتبرير النفس المستمر حين يكون مخطئاً إنما يكشف عن قوة زائفة - قوة نفسية وليست روحية.

لكن القوة الطبيعية للأقوياء قد تكون أيضاً علامة أصلية للقوة الروحية.

وهذا يكون أكثر إثارة حين تكون حالة شخص ضعيف يصبح قوياً من خلال القوة التي يجدها في شركته مع الله. وفي تاريخ الكنيسة كان الشهداء من هذا النوع. ففي الواقع لم يكونون أساساً "أقوياءً" بالطبيعة، ومع ذلك فقد واجهوا الاضطهاد والموت بشجاعة منقطعة النظير. وهكذا كان الرسل بعد يوم الخمسين، الذين كانوا قبل أسابيع قد هربوا جميعاً من بستان جثسيماني.

الإنسان الضعيف يقدم شهادة قوية عن الإيمان بعدما يُظهِر نفسه بعد مروره باختبار روحي على الفور متحرراً من الخوف واليأس ومختلف التثبيطات. ذات مرة سمعتُ ملاحظة لطيفة من أحد الأطفال. ففي إحدى الأمسيات فيما كان يخبر أمه أنه كان خائفاً من الأشباح، اقترحت عليه أن يتلو صلواته. وبعد لحظات قال الطفل: "لم أعد خائفاً الآن. فقد أخبرني يسوع أنه سيتولى أمر الأشباح." وذات مرة عبَّرت واحدة من مريضاتي عن اختبارها للحياة المسيحية كالطيران في طائرة شراعية - فعليك أن تجد التيارات الصاعدة.

الإيمان حقاً قوة مقتدرة، تيار صاعد قادر على إصعاد طائرتنا الشرعية حتى إن كانت أثقل من الهواء. "كان ينتابني الخوف من المستقبل، من المرض، من الدمار والموت - لكن الله حررني منه." "كنت خجولاً، لكن الله منحني النصرة على خجلي." "كانت حياتي في فوضى، وأضعف عن الالتزام بالقرارات لضبط الأمور؛ أما الآن فقد تغير كل شئ حتى أنني أخضعت إهمالي إلى الله بالإيمان." "كنت في غاية الجُبن حتى أنني لم أكن أجرؤ على إعلان معتقداتي لزوجي. وبعدما صلّيت من أجل ذلك تمكنت من عمل هذا بمنتهى البساطة ودون مجهود." "عندما أتيتُ للقائك، كنت في حالة مرعبة لأنني لم أكن أظن أنني سأقدر

أن اعترف بالخطأ الذي اعترفت به لك الآن. فالله هو الذي منحني قوة عمل هذا - ولم يكن ممكناً قط أن أعمل هذا بنفسي."

هناك بعض من ينتقدون هذا النوع من الشهادة الملموسة. فهم يخافون لئلا يظن الناس أن الإيمان المسيحي مجرد وصفة للنجاح في الحياة. لكن المسيح قدم معجزات الشفاء التي عملها كبراهين سلطانه الروحي - براهين ملموسة ومنظورة تماماً. لا يمكننا أن نستوعب الأمور الفائقة للطبيعة بصورة مباشرة ما لم يكن بالفحص، ولكن يمكننا أن نلاحظ موضوعياً آثارها في النظام الطبيعي. فالمسيح لم يحتقر قط هذا الإظهار المادي. فقد كان الانسحاق الفعلي للبشر، الجسمي والنفسي والروحي هو الذي شفاه: أمراض أجسادهم وضعفات شخصيتهم وضَيقهم الديني.

كثيراً ما قال لي المرضى: "لقد ترددت قبل مجيئي إليك. وما أتيت من أجله إليك هو معونة الله؛ لكنني خجول قليلاً لطلبها فقط بعدما وقعت في هذه المشكلة. كان يجب أن أُفضِّل التعامل معها بنفسي أولاً، ثم ألجأ إلى الله حين أشعر بالقوة من جديد." ودائماً ما كانت إجابتي عن مثل هذا هي أن أشير إلى صورة المسيح كما هي ظاهرة في الأناجيل. فلأن المرضى كانوا يعانون حقاً، فقد كانوا يصرخون إليه وهو في طريقه ويحاولون الاقتراب إليه. وأما هو فلم يصدّهم قط؛ ولم يتهمهم قط بأنانية أسلوبهم. أتذكر أيضاً واحدة من مريضاتي أخبرتني أنها كانت تعاني من شكوك عن صحة الصلاة لله كي يساعدها في عملها. وهذا الشعور يرجع أيضاً لفكرة أن عالم الروح يعارض عالم الماديات. وهذا انطباع خاطئ يمكن أن تمحوه المسيحية تماماً.

إن ديانتنا هي ديانة التجسد. وإني أكتب هذه السطور الآن وسط الاحتفال بعيد الميلاد. فالأخبار السارة ليست مجرد رسالة روحية؛ ولا مجرد أخبار سارة للسابقين، لكنها تهمّ حقاً مصيرنا الأبدي، كما تخص أيضاً حياتنا الآن ههنا.

في عالم شهد انتصار القوة - في عصر الإمبراطورية الرومانية - وحيث كان الضعفاء محتقرين، أحدث المسيح انقلاباً هائلاً للقيم مُعبَّر عنه في التطوبيات. فقد مدّ يده للضعفاء، والمرضى، والفقراء، والخطاة - كل المنبوذين من جانب المجتمع. لكن هذه لم تكن مجرد ثورة مفاهيم وأفكار تلك التي قام بها المسيح. فبلمسته كان المرضى يُشفون، والضعفاء يتشددون، ومن ظلّوا إلى ذلك الحين أسرى ميولهم الطبيعية تحرروا منها. لم يكن الأمر مجرد إعادة تأهيل الضعفاء، بل أيضاً تحريرهم؛ ليس مجرد تحرير الضعفاء، بل أيضاً تحرير الأقوياء.

ما زلنا نرى اليوم أشخاصاً يتحررون من قيود ردود أفعالهم الطبيعية بعد اختبار نعمة الله. نرى مرضى يستعيدون الحيوية البدنية؛ نرى عصابيين يتحررون من التثبيطات النفسية التي أحياناً ما لم ينفع معها أفضل علاج. لكننا نرى أيضاً الأقوياء يصبحون لطفاء؛ نراهم يلقون الدرع الذي يسجنهم، درع صحتهم، وعدم حساسيتهم، وثقتهم بالنفس.

ولهذا فإن الشهادة الملموسة طالما تركت تأثيراً عظيماً عليّ. ومع ذلك، لا بدّ ألا نبالغ في أهميتها. فحقيقة أن الخجول قد انتصر على خجله لا تعني أنه قد نال خلاصاً أبدياً. فهذه الانتصارات في ترتيب الأمور الأرضية - كما يقول القديس بولس - مجرد عربون الخلاص العظيم الذي سنعرفه فحسب في السماء. ورغم أن السكير يقلع عن الخمر، إلا أنه يظلّ خاطئاً. لكن تحرير المرء من خطية معينة هو إظهار لقوة الروح القدس التي لا تُضاهى.

***

لنلقَ نظرة أعمق على المشكلة. رجلٌ استسلم لإدمان الكحوليات، والمقامرة، والفسق تحرر فجأة من هذه الرذائل فور تجديده. وفي غمرة فرحه طفر يخبر الآخرين عن

اختباره ويعلن أن الإنجيل لا يقدم فقط غفران الخطايا، بل أيضاً النصرة الحاسمة على الخطية، نصرة كاملة لدرجة أنها تحرر الإنسان من التجربة: فواعظنا لم يعد راغباً في الشراب أو القمار أو الفسق. وعلى خلاف اللاهوتيين الذين يؤكدوا - مع القديس بولس - أننا مخلَّصون فقط بالرجاء، أعلن هو رسالة جريئة وبسيطة: المسيحي ليست له خطية بعد. وأضاف أن سبب بقاء الكثير من المسيحيين خاضعين لميولهم الطبيعية هو أنهم لم يؤمنوا حقاً بالخلاص الذي كانوا يعلنونه، أو على الأقل لم يؤمنوا أن لها أي تأثير ملموس على حياتهم المادية. وقد كان الوعظ بهذه الرسالة له تأثير فعال. فقد جاء بعددٍ كبير من المتجددين، كلهم يتميزون بإظهار أخلاقي ظاهر في حياة المهتدين الذين جمعوا أنفسهم معاً في مجتمع حي كانت مبادؤه صارمة وتعليمه واضحاً: المسيحي ليست له خطية بعد.

لقد اقتبست هذا المثال كي ألقي الضوء على موضوع المناقشة. لكننا بدرجة أقل دائماً ما نجد هذين الميلين في المسيحية: ميل الذهن المركب المعقد الحريص على الحق، الذي يؤكد على أن نبقى خطاة تماماً بلا علاج إلى نهاية أيامنا رغم كل جهودنا وكل النعمة التي ربما نكون قد نلناها؛ وذاك الذي يؤكد على أنه إن حققنا بعض النجاح من حينٍ إلى آخر، فهذا لا شيء مقارنةً بهول أخطائنا، وأنه بإعلاننا عن نجاحنا فنحن إنما نقع في خطية أعظم، خطية الكبرياء الروحية. أما من الناحية الأخرى فهناك الميل التفاؤلي الذي يمثله الواعظ الذي تحدثت عنه للتوّ. فحيث يستمد إلهامه أيضاً من فقرات معينة من العهد الجديد، فإنه يعلن أن الخلاص ليس ميتافيزيقياً فحسب، لكنه يجد تعبيراً ملموساً تماماً على هذه الأرض في شفاء المرض وفي الانتصارات الأخلاقية الحاسمة.

لا بدّ أن أسجل هنا أن من ساعدوني بالأكثر على اختبار قوة يسوع المسيح كانوا مسيحيين من الميل الثاني. فالناس

لا يتأثرون على الأرجح برسالة غامضة جداً، بل بالأحرى برسالة بسيطة ومباشرة. ولهذا فكثيراً جداً عند سماع شخص ما يشهد بصراحة وصدق نتيجة اختباره أجثو على ركبتيَّ لالتماس معونة الله المقتدرة التي كنت أجاهد إلى ذلك الحين من أجلها دون جدوى. وعندما يأتي أناس بدورهم كي يضعوا أمامي الصعوبات الخاصة التي تأسرهم، فإني أعلم جيداً أنني لا أساعدهم بالأكثر بالمناقشات اللاهوتية المطولة، بل بأن أخبرهم ببساطة كبيرة عن اختباراتي الشخصية لرحمة الله من جهتي. نحن جميعاً نقف باستمرار في احتياج لهذا النوع من الشهادة الذي يبقي إيماننا حياً. فعندما نرى بعيوننا الخلاص الممنوح حيثما يكون أقل توقعاً، فإننا نتأثر أيضاً باقتناع أن وجه العالم يمكن أن يتحول من جانب أشخاص قليلين طائعين ومُوحى لهم.

من المشروع إذاً أن نعلن ما قد رأيناه واختبرناه. بل وأكثر من هذا أنها شهادة لا بدّ أن نشهد بها عن قوة الله. ولكن لا بدّ أيضاً أن أعترف للقارئ بالفزع الذي أحياناً ما كنتُ أدرك به - مدفوعاً بغيرتي وحماسي - أنني كنت أشوه الحق في التقارير التي كنت أقدمها، متغافلاً عن بعض التفاصيل الأقل أهمية هنا، أو مضيفاً هنا بعض الزخارف من اختراعي. وحتى عندما تكون شهادتنا حقيقية بصورة صارمة، فقد تكون مضللة لحقيقة أنها تستند فقط على حادث معين واحد: فنحن نتحدث عن نصرة نربحها في نقطة معينة لكننا نبقى صامتين تجاه هزيمة نعاني منها في نقطة أخرى - هزيمة ربما نكون قد عانينا منها منذ بضع لحظات!

ولهذا فإن الواعظ الذي كنا نتحدث عنه منذ قليل كان مخلصاً عندما تكلم عن كيف حرره الله من إدمان الشراب والقمار والفسق. ولكن كي ننطلق من تلك النقطة لنقول إن المسيحي الحقيقي لا خطية له هو إطلاق تعميم لا مبرر له. لا شك أنه ليس هناك مدمن كحوليات أو مقامرين أو فاسقين. لكن الرجال يشتهون أموراً أخرى عديدة غير

الخمور والمقامرة والنساء. فلا شك أنه توجد في جماعته- كما في قلوب جميع البشر - الغيرة، والمشاعر الجريحة، والكبرياء.

لقد فكرت طويلاً في هذه المشكلة التي تبدو لي على قدر من الأهمية. هل الميلان اللذان عرضناهما غير قابلين للمصالحة حقاً؟ الا يحتوي كلّ منهما على جزء من حق الإنجيل؟ إن التزمنا الصمت بخصوص الانتصارات التي أحرزها يسوع المسيح خوفاً من ألا نكون صادقين بصورة كاملة، فهل لا نخونه هكذا؟ وإن تكلمنا عنها، أليست هناك مخاطرة لأننا نحبط الضعفاء الذين في صراحتهم الدقيقة يقارنون أنفسهم بنا فيما بعد بصورة خاطئة، مقارنين إخفاقاتهم بنجاحاتنا؟

أظن أننا ربما نجد إجابة هذه التساؤلات إن تصوّرنا الخطية كنبات له جذور ويحمل ثماراً. وتصوّرنا أن إدمان الكحول، وشهوة القمار، والفسق هي الثمار. الناس قد يتحررون فجأة - وإلى الأبد - من إحدى ثمار الخطية. ويكون الأمر بمثابة أن ينتزع يسوع المسيح الثمر الذي لا يمكنه أبداً أن يعود للنبات عضوياً من جديد. لكن جذر الخطية ما زال موجوداً، وسوف نتحرر فقط بعد الموت. والنبات يستمر دائماً بلا توقف في حمل ثمار جديدة. وبهذه الطريقة يمكننا أن نشرح كيف يمكن أن يكون هناك في نفس الوقت صور تحرر حاسمة وأيضاً حالة مستمرة من الخطية.

وبالتالي سوف يمكن - بل يجب - أن يعلن المرء لمجد الله كيف تحرر إلى الأبد من العادة الشبابية. لكن هذه ثمرة، أما جذورها فإنما تكمن في عدم نقاوة قلبه، تلك التي سرعان ما سوف تُظهر نفسها في تجارب أخرى أكثر مكراً. إنسان آخر يمكنه، بل يجب، أن يشهد لمجد الله كيف تحرر من الخجل. لكن هذه أيضاً ثمرة تكمن جذورها في انشغاله بنفسه، وفيما بعد ستكون هناك إظهارات أكثر لذلك الانشغال يكون عليه أن يحاربها.

الذين يركزون على الجذر يتوه عنهم التطبيق الملموس للإنجيل على حياتنا الأرضية. فهم لا يجرؤون أن يخبروا الناس بأن قوة يسوع المسيح قادرة حقاً على تحريرهم حتى من أكثر ثمار الخطية مرارة؛ وبأنها يمكنها أن تمنح الأضعف قوة أعظم من قوة الأقوياء، وبأنها يمكنها أن تهدم أمنع الجدران وتحل أعقد المشكلات الشخصية والاجتماعية. أما من يرون مجرد الثمار فإنما ينخدعون بتفاؤل ليس هو تفاؤل الإنجيل. فهم يقللون من شأن قوة الخطية وينشرون أمام الناس الوهم الخطير البراق عن ولادة جديدة شخصية واجتماعية كاملة سوف تأتي فقط بعودة المسيح الانتصارية.

أصحاب الاتجاه الأول، بفهم اختبار الإيمان على أنه الندم على الخطية يحصرون الإنسان في منظور من اليأس؛ فمهما كانت جهوده، سيبقى شريراً دائماً، وسوف يبقى المجتمع فاسداً. وبالتأكيد، فتحت تأثير رسالة مثل هذه سوف يفقد المرء الرجاء من ربح أية نصرة حاسمة على ضعفه الذي لا يُداوي. وفيما يُسلِم نفسه لكل الفساد المحيط به، فسوف يسمح لنفسه أن يقع أسير الحلقة المفرغة لردود أفعاله الطبيعية. فيسأم العالم ويلوذ بديانة خيالية، من عالم آخر، معرفية أو حسّية. ذات مرة قالت لي امرأة: "ما أبحث عنه هو إله غير عاطفي وغير عقلاني."

أما أصحاب الاتجاه الثاني، فعلى الجانب الآخر يقدمون للإنسان تحدياً مفيداً يحقق تحت تأثيره إصلاحات غير متوقعة لها نتائج لا تحصى لصالح حياته هو ولصالح المجتمع. وهناك في الحقيقة الفعل الملموس لإله ليس عاطفياً ولا عقلانياً تماماً. ولكن من خلال فهم اختبار الإيمان باعتباره النجاح الأرضي، فإنهم يقللون من شأن الدين إلى حدّ أبعاد هذا العالم ويتخيلون ساذجين أنهم يبشرون بالعصر الذهبي. وقد عرفت أناساً فور انتصار اكتشفوا أنهم أكثر يأساً من قبل، حيث يكتشفون أنهم ما زالوا خاضعين للتجارب

التي كانوا يظنون أنهم تغلبوا عليها أخيراً.

رسالة الاتجاه الأول هي رسالة الجمعة العظيمة، أما رسالة الاتجاه الثاني فهي رسالة أحد القيامة. والإنجيل يتضمن كليهما، وأن نترك إحداها معناه أن نشوهه؛ ولكن يا لصعوبة قبول الاثنين معاً في آن واحد! فطبقاً إلى ما إذا كان مزاجنا الطبيعي قوياً أو ضعيفاً، فنحن نميل إلى رؤية متفائلة أو متشائمة عن الحياة المسيحية. وبهذه الطريقة تؤثر ردود أفعالنا النفسية على إيماننا.

ولكن لا بدّ أن ندرك أن الكنائس المسيحية التقليدية عموماً أكثر ميلاً في يومنا هذا إلى الرؤية الانهزامية؛ ولهذا السبب تملك تأثيراً ضعيفاً جداً على عالم لم يعد يبحث غالباً في الدين عن حلٍ للمحن التي تحاصره، أو عن علاج لضعفه النفسي واضطرابه الاجتماعي. بالطبع هناك مسيحيون كثيرون لديهم إيمان حار؛ ولكن يبدو أنهم يحتفظون به ككنز ثمين تحت الزجاج بدلاً من أن يجعلوه موضع الاختبار في واقع الحياة الملموس. كتب د. دوبوا - وهو طبيب دعا نفسه غير مؤمن: "الإيمان الديني يمكنه أن يكون أفضل وقاية ضد أمراض الذهن ... إن كان قوياً بدرجة كافية ... ففي مثل تلك الحالة الذهنية، النادرة للأسف بين الأشخاص ذوي التفكير السليم، يصبح الإنسان غير ضعيف. وفيما يشعر أن الله يسنده، لا يخاف المرض أو الموت."[1]

إن القوة الروحية تصير في الواقع متجسدة؛ فمن الممكن أن تنشط مقاومتنا الجسدية وقوتنا النفسية. سبق واقتبست فرضية د. بونسو *L'esprit, force biologique fondamentale*[2]. ففي هذه الدراسة يكشف بصورة ملموسة تماماً كيف أن القوة الروحية التي ننالها من الله تعمل تأثيراً تنشيطياً وتوفيقياً على الكائن الحي بأكمله.

لا بدّ أن نحذر إذاً، كما كنت أقول في بداية هذا الفصل،

1 *Op. cit*

2 *Op. cit*

من أن نرى في عمل ردود أفعالنا الضعيفة، التي تنتج نوعاً من التخلي، علامة اتجاه مسيحي حقيقي. فالإيمان، أبعد من كونه يجعلنا نهجر المعركة الأرضية، فإنه يلقينا فيها بقوة: ومن هنا لا بدّ ألا نعتبر الضعف دائماً فضيلة أو نعتبر القوة خطية.

ولكن لا بدّ أيضاً ألا نعتبر القوة دائماً فضيلة أو نعتبر الضعف خطية. فهذا يجعلنا نقع في الخطأ المضاد، وهذا ما سوف ندرسه الآن.

***

هناك، كما قلنا، نظامان من الظواهر: الطبيعية والفائقة للطبيعة، الظواهر التي تشكل ردود أفعالنا الفسيولوجية والنفسية، والظواهر التي تنشأ من حياتنا الروحية، من عمل الله فينا. وهذان النظامان أو هاتان الظاهرتان لهما انعكاسات تبادلية ثابتة، لكنها لا تندمجان أبداً. وأن نفشل في إدراك مكمن الاختلاف معناه أننا نُسلِّم أنفسنا لأسوأ الأوهام عن الطبيعة البشرية، بما فيه كياننا. ويكون معناه أن نعتبر ثقتنا الطبيعية بأنفسنا، هذا إن كنا أقوياء، إيماناً؛ وأن نعتبر الانتصارات التي تحققها لنا صفاتنا الطبيعية انتصارات روحية. وعندما نكون ضعفاء، يكون معناه أن نعتبر نوبات اكتئابنا ضعف إيمان؛ وأن نعتبر الهزائم الراجعة للتثبيطات النفسية خطايا - علامة على أننا تحت لعنة إلهية.

ومع ذلك، فأن نستهين بالتأثير المتبادل الثابت لكلا النظامين من الظواهر ليس بالأمر الأقل خطورة. فهذا سيكون معناه أن المرء يحكم على نفسه بسوء الفهم التام لطبيعة الإنسان، وأن ينظر إليه كحيوان أو كملاك؛ وسيكون معناه أن يفقد معنى التجسد وينسى أن مصيرنا الفائق للطبيعة متضمن دائماً في حياتنا الطبيعية.

خذ مثلاً المحبة. فهي لها الملامح الطبيعية والفائقة للطبيعة. ولكن أين الخط الفاصل؟ أن نقارن بين المحبة

الروحية والمحبة الطبيعية هو أن نعتبر المحبة غير متجسدة؛ وأن نعمل التناقض الخاطئ بين الروح والجسد الذي أحدث ضرراً بالغاً بين المتدينين، وأن نفشل في إدراك الجوانب الإلهية في "الليبيدو". ولكن كم من الناس أوهموا أنفسهم باعتبار أن مجرد الحالة العاطفية شركة روحية، وبتصور أنفسهم محصورين بمحبة روحية بينما هم في الحقيقة يتحفزون بشهوة طبيعية شعورية أكثر أو أقل.

إن التشخيص الفارق الذي اقترحنا عمله بين الظواهر النفسية والروحية مركب وصعب بقدر ما هو مهم. فالمرء لا يمكنه أن يرسم أي خط تحديدي نظري. لكن كل ما يمكنه في أية لحظة هو أن يسعى أن يميز بأمانة تحت إرشاد الله بين ما يأتي منه وما يأتي من أنفسنا، في مشاعرنا، وأفكارنا، ورغباتنا. وكي ندفع أنفسنا باستمرار لعمل فحص النفس هذا، فإننا نعمل هذه المواجهة بين المجالين، الروحي والنفسي.

سبق ورأينا أن ردود الفعل الضعيفة يمكن أن تكون عقبة للإيمان. وكلنا نعلم أن ردود الفعل القوية يمكنها أيضاً أن تبعدنا عن الله. أتذكر مريضاً قال لي ذات مرة: "أخاف أن أشفي من اكتئابي لئلا أبتعد عن الله عندما تتحسن أحوالي من جديد كما كنت معتاداً." أن يعتبر المرء قوته الطبيعية قوة روحية أمر كثيراً جداً ما يؤدي للكبرياء، وعندئذٍ سرعان ما نتصور إمكانية الاستغناء عن الله. عندما نجد أنه من السهل التأثير على الآخرين، ونشعر أننا أقوى منهم، وأننا أكثر اعتماداً على أنفسنا، وأننا أكثر قدرة على مقاومة التجارب التي يستسلمون هم لها، فإنما نكون نحن في خطرٍ رهيب من أننا نستسلم بأنفسنا، دون دراية، لتلك التجربةِ الأخدع والأخطر - أي تجربة أن نتصور أنفسنا أفضل منهم، وأن نتصور أنفسنا على صلة أقرب مع الله، وأن نضع أنفسنا كقدوة، وأن نغلق عيوننا عن إخفاقاتنا في المجالات الأخرى.

ولهذا، في أحد اجتماعات الشهادة، سمعت ذات مرة مسيحيين كثيرين يؤكد كلٌ منهم بعد الآخر: "الآن وقد كرست حياتي لله، لم أعد أخاف من أي شئ." لقد كانوا بالطبع منساقين برغبة جديرة بالثناء لإقناع مستمعيهم أن الإيمان هو حل الخوف. وهذا حقيقي. فقد اختبروه بأنفسهم. لكن حماسهم قادهم إلى تعميم تخطى الحقيقة. في الواقع، عندما يجرؤ أحد هؤلاء الحاضرين، ويكون هو أيضاً مسيحي له اختبار إيمان ثري وعميق، على مقاطعة هذا الحوار المتفائل بأن يعترف بصراحة بالمخاوف التي كانت تنتابه، فإنهم جميعاً - عندما يُصلّون من أجل ذلك - يعترفون أيضاً بمخاوفهم.

كما سبق وقلت، غالباً ما كان أصدقائي يساعدوني بأن يخبروني عن الانتصارات الملموسة التي حققوها بإيمانهم، لكن شهادتهم دائماً ما تكون أكثر تأثيراً عندما يكونون صُرحاء لدرجة أن يخبروني عن إخفاقاتهم، وصعوباتهم، وخطاياهم.

من الصعب أن يكون المرء صادقاً تماماً. فنحن نرى اختباراتنا الروحية من خلال الجوانب الإيجابية أو السلبية من مزاجنا الطبيعي، وفقاً لما هو قوي أو ضعيف. ولهذا، عندما يقدم إنسان صاحب شخصية قوية اختباراته في ألوان أكثر بريقاً مما هي عليه حقاً، يكون تأثير ذلك هو إحباط الضعيف بدلاً من مساعدته. فسوف يمضي حزيناً وهو يقول: "لن يمكنني أبداً المرور بمثل هذا الاختبار."

رأيت أيضاً أشخاصاً أقوياء من ناحية المزاج يستعرضون برضا اختباراتهم الروحية المتملقة، طالما أن كل شئ معهم على ما يرام، وعندما تضعهم محنة معينة موضع الامتحان، فإنهم ينهارون.

في ثقة الأقوياء بأنفسهم، قد يكون هناك قدرٌ من الإيمان الحقيقي يقف في مواجهة المصاعب والإخفاقات؛ لكن

علم النفس قد يكون قادراً على توضيح أن قوتهم تشكل أيضاً جزءاً من ردود الفعل القوية. وبهذه الكيفية، في كل كنيسة، وفي كل حركة دينية، كما في الحياة المدنية، فإن من يجدون أنه من السهل التعبير عن أنفسهم، ويكون من الطبيعي بالنسبة لهم التأثير على الآخرين، والذين لديهم فكر بسيط ويتمتعون بروح التصميم سرعان ما يبدأون اتخاذ دور القيادة. أما مجموعة الضعفاء، فبسبب الإعجاب الذي يحملونه تجاههم، فإنما يضعونهم في خطرٍ كبير، خطر إخفاء ضعفاتهم واعتمادهم على مواهبهم الطبيعية، كي يتسنى لهم أن يقوموا بدورهم كقادة دون إخفاق.

لست أرغب أن يُساء فهمي. فأنا لا أنتقد الأقوياء. فمن الصواب أن يستخدموا لخدمة الله المواهب الطبيعية التي أودعها لهم. لكن العلامة الأصلية للروح هي مجرد تلك الأمانة التي بها قد يدرك الأقوياء كم قدر ما هو بشري تماماً من أفعالهم، ويعترفون أنهم ليسوا أقوياء مثلما يظن جمع أتباعهم الذين أقاموهم كقادة. إن أعظم سيادة يمكن أن يشهد بها الضعفاء - كما رأينا للتو - هي في الانتصارات التي يمكن أن يحققوها، بقوة الروح، على طبيعتهم الضعيفة. والعكس صحيح مع الأقوياء. فالقوي يشهد بأفضل صورة لا بإظهار قوته أو قدرته على السيادة على الآخرين بعقله أو بكلماته، بل بانتصاره على نفسه في أن يصبح متضعاً، متسامحاً، ولطيفاً. وهذا هو الأصعب لأن هناك دوراً لا بدّ أن يلعبه يكون بالأكثر أمام العامة، ولأن المسألة لا تعد مسألة تأثير على الآخرين، الأمر الذي يجده سهلاً، بل مسألة التحكم في نفسه.

وهنا يمكن لعلم نفس بواطن الإنسان أن يقدم معونة كبيرة للحياة الروحية، وذلك بأن يكشف للمرء إلى أي مدى تكون الفضائل التي كان يتباهى بها مجرد واجهة خادعة في حقيقتها. يوضح د. مايدر هذا بحماس في إحدى الحالات التي يسجلها. ويعلق قائلاً: "أهم شئ هو الأمانة مع النفس.

وهذا هو الأمر الصعب تحديداً بالنسبة للشخص المفرط في المثالية، ولهذا السبب يكون الأمر ذا ضرورة أكبر."[3]

الحقيقة هي أن الإيمان الحقيقي صعب بالنسبة للأقوياء كما هو بالنسبة للضعفاء.

خطر آخر يكمن للأقوياء. وهو خطر استخدام الموقف الحالي كمبرر لردود أفعالهم القوية. فإن أصبحوا متسلطين عنيدين، ويحاولون استخدام القوة على نفوس البشر، وإن كشف حماسهم عن أنهم يدَّعون أنهم مفسرون موثقون لتفسير مشيئة الله أكثر ممن يختلفون معهم - الأمر الذي يحدث كثيراً، فإنهم يقعون في مخاطرة نسيان كم قدر ما يرجع من اتجاههم هذا إلى تكوينهم الفردي، ومخاطرة إقناع أنفسهم بأن هذا مدفوع فقط من جانب رغبتهم لخدمة الله بشكل أفضل. أما الضغط الذي يمارسونه على نفوس الناس فهو يهدف إلى خلاصهم، وكي يكسروا مقاومتهم فإنهم يزيدون الضغط بنفس الكيفية. أذكر امرأة وقعت ضحية هجوم مفاجئ لمرض عقلي حاد نتيجة هذا النوع من العنف.

ومن جديد لستُ أرغب أن يُساء فهمي. فأنا لا أدافع عن الفردية أو الحرية الكاملة للمسيحي. إني أدرك أن البروتستانتية، لا في ذهن الإصلاحيين في الواقع بل فيما بعد، مالت للتغاضي عن معنى الجماعة ومعنى الكنيسة. والله نفسه يأمرني أن أخضّع نفسي بولاءٍ لكنيستي، وخصوصاً في أمور الإيمان التي يجب أن أتعلم منها كالعلماني البسيط وليس أن أعلم. فما أتمنى أن أظهَره هنا كعالم نفس هو أن هناك اختلافاً رهيباً بين طاعة المؤمنين للكنيسة المُوحى بها سماوياً والطاعة المفروضة عليهم من جانب قائد ديكتاتوري. الطاعة الأولى مثمرة لأنها روحية. أما الثانية فخطيرة لأنها مجرد عملية ميكانيزم سيادة الأقوياء على الضعفاء.

3 *Op. cit., pp. 36-7*

إن الشيء الرائع، الشئ الذي يجعل المغامرة الروحية شيئاً مختلفاً تماماً عن أية مغامرة مدنية هو أن الله يستخدم ضعفاتنا. وبهذه الطريقة يمكن أن يتيقن الضعفاء كالأقوياء من أن لهم مكاناً في قصد الله.

لقد ألقيتُ محاضرات كثيرة؛ وأحياناً ما كنتُ أنال استحساناً من أعماق القلب ومع ذلك لا تكون رسالتي قد حملت ثمراً. ولكن ذات مرة، حين دُعيتُ للتكلم في إحدى الجامعات، شعرت منذ البداية أنني فشلت في التواصل مع مستمعيَّ. فانتابتني عصبية متصاعدة، وخرجتُ وأنا أشعر بالصدمة. تعلقت بأوراقي، التي استطعت بالكاد أن أقرأها، وتلوتُ في جهدٍ ما كان لا بدّ أن أقوله. وبعدما غادر الحضور، استطعت أن أرى أصدقائي يتسللون للخارج مسرعين كي يوفروا عليَّ حرج مقابلتهم. وفي طريقي للبيت، وأنا مع زوجتي في السيارة، انفجرت بالبكاء كالأطفال.

لكني تلقيت في اليوم التالي مكالمة هاتفية من أحد أساتذة الجامعة. قال: "لقد استمعت إلى محاضرات كثيرة من الدرجة الأولى في حياتي، ودائماً ما كنتُ أتركها وأنا أتجادل ذهنياً مع المتكلم. ولم أستمع قط إلى محاضرة سيئة كمحاضرتك بالأمس؛ لكني لم أستطع النوم بعدها. لقد أثارت تساؤلاً في ذهني - تساؤلاً لا يمكن حله بالجدال الذهني. هل يمكنني أن آتي للقائك؟" وبعد أسابيع عديدة مرّ هذا الأستاذ الجامعي الكبير بتجديد ديني جعلنا أصدقاء مقربين.

كثيراً جداً ما نشغل أنفسنا بالنجاح الظاهر لاجتماع ما. ونختار له أفضل المتكلمين وأعلاهم سلطة - أي "الأقوياء". وتكون النتيجة أن هؤلاء الأقوياء يكونون منهكي القوى ومؤمنين أصحاب مواهب أقل - كما أن "الضعفاء" يشكون أيضاً في قدرتهم على المشاركة في خدمة يسوع المسيح. وهذا ما يفاقم شعورهم بالدونية. في الواقع الفعلي غالباً ما يكون عندما نستمع إلى إنسان خجول يتحدث في ارتباكٍ عن إيمانه أن يتجرأ إنسانٌ آخر لتصديق أنه هو أيضاً

يمكنه أن يعلن شهادته. أتذكر بقوة يوماً ما رأيتُ فيه أحد أقوى الأشخاص الذين أعرفهم، ذكي، مثقف، واثق النفس، وصاحب سلطة يكرس حياته للمسيح بعدما تكلم الله إليه من خلال شهادة امرأة متضعة لم تكن الكلمات تسعفها بسهولة.

كما أتذكر العاطفة الجياشة التي استمعت بها في إحدى المرات لشابٍّ أجنبيٍّ كانت كلماته - التي كانت بلغة فرنسية ركيكة جداً - تفتقد تماماً مهارات الخطابة. ففي ذلك اليوم أدركتُ على الفور أنه حينما تكون خدماتي مطلوبة في الكنيسة، فهذا راجع إلى مواهبي الطبيعية أكثر جداً من مواهبي الفائقة للطبيعة. وفي تلك الأمسية كنت مع بعض الأصدقاء وأخبرتهم ما أظهره الله لي، وركعت معهم كي نصلي أن يبني خدمتي له منذ ذلك الحين بالأكثر على ما يأتي منه وبالأقل على ما يأتي مني أنا.

لنحرص إذاً على ألّا نخلط القوة الطبيعية بقوة الروح. ولنحرص بنفس الصورة ألا نظن الصحة هي الإيمان، والمرض هو نقص الإيمان. فهذا أيضاً خطأ شائع كثيراً ما نقع فيه! فهناك شخص عصابي - ضحية عوامل وراثية وأحداث طفولته - يخجل من مرضه لأن شخصاً صحيحاً دائماً ما تسير حياته بسهولة قال له: "إن كان لك إيمان مثلي، لما أصابك المرض." حقيقي أن الإيمان يمكنه أن يساعد العصابي، لكن مرضه يمكنه أيضاً أن يمنعه عن خطو خطوة الإيمان. ويكون الأمر بمثابة أن تصرخ لأحد الغرقى ألقى إليه أحد الأشخاص طوق نجاة، أما هو فبسبب التقلصات التي تشلّ ذراعيه فلا يمكنه استيعاب الأمر، بينما أنت تصرخ: "هيا، يا رجل، إمسك الطوق جيداً!"

من الصعب على الأصحاء أن يفهموا المرضى، ومن الصعب على الأقوياء أن يفهموا الضعفاء.

تخيل الآن أن الشعور بالرعب لدى ذلك الغريق إنما يفاقم تقلصات ذراعيه. وهذا ما يحدث تماماً مع العصابي.

فحين يشعر أنه مُعرَّض لإساءة الفهم والنقد الظالم، يجد من الأصعب اتخاذ خطوة الإيمان، تلك الخطوة التي تتطلب جواً من الثقة الأخوية. وبالتالي نرى عصابيين كثيرين يصدقون أن مشكلاتهم النفسية علامة على عدم رضا الله عنهم، ويظنون أنهم ملعونون لأنهم يعانون من القلق، وتنتابهم الهواجس، ويفتقدون قوة مقاومة التجربة. مثال ذلك، امرأة تشعر بالاكتئاب لأنها لا تمرّ بتجربة عاطفية تعترف لي بأنها ترى أزمتها النفسية كعقاب من الله. قد يشعر المرء أن هذا التفسير الخاطئ يصعب جداً أن يستردّ لها ثقتها بنفسها.

ومع ذلك، لا يحتاج المرء أن يتعمق في الأناجيل كي يرى العناية الخاصة التي أولاها يسوع المسيح للضعفاء والمرضى.

من الواضح أننا نأتي دائماً إلى نفس التفرقة، التي لا تخضع للمنطق، بل يستوعبها القلب فقط: فالإيمان يمكنه أن يحصن الضعيف ويحرره من صعوبة نفسية؛ ومع ذلك فإن هذا لا يعني أن الضعفاء والمرضى أكثر بعداً عن الله من الأقوياء والأصحاء، أو أن لديهم إيماناً أقل.

من الواجب إحقاقاً للحق أن أشير أيضاً إلى أن الاختبار الديني قد يفاقم أحياناً حالة المرء النفسية والجسمية. شاركني صديقٌ بمحنته: فقد اكتشف أن صحته قد انهارت منذ تجديده - فهل هذا معناه أنه لم يكن تجديداً حقيقياً؟ فوجدتُ نفسي مدفوعاً لتذكيره بأنه لم يتجدد كي تتحسن صحته، بل كي يعمل ما كان الله يدعوه من أجله، وأنه من الأفضل له أن يكون مريضاً ومؤمناً عن أن يكون سليم الصحة وغير مؤمن. وقد ساعده هذا الفكر حقاً على استعادة راحة باله، ونتيجة ذلك تحسنت صحته في الحال.

هنا نقابل ظاهرة خفية تراجيدية، وهي أن المؤمن غالباً ما يخجل من ردود أفعاله الضعيفة أكثر من غير المؤمن، وذلك لأنه يخاف أن يتلف هذا قيمة شهادته عن إيمانه؛ وبالتالي

فإن الاضطراب العاطفي الناشئ عن هذا إنما يُصعِّد ميله لردود الأفعال الضعيفة.

***

ومع الشعور الخاطئ بالخجل تجاه الضعف والمرض، فإننا نواجه واحدة من أخطر المشكلات في علم النفس الديني: وهي مشكلة الشعور المَرضي بالذنب.

رجلٌ توفيت أمه وهي تأتي به إلى العالم يكشف لنا نفسه بأنه مثقل دائماً بشعور بالذنب لا يقدر على تعريفه، لكنه يُسقطه على كل ما يعمله، ودائماً ما يتهم نفسه بخطايا وهمية. إنه من النمط "المفرط في التشكك". كما يبدو أنه يعاني من شعورٍ لا أساس له وغير واعٍ بالمسئولية عن موت أمه، ويبدو أن هذا الندم لا بدّ من التعبير عنه في صورة اتهامات لا تنتهي للنفس، تلك التي لن تنجح أبداً في محوها.

نفس الأمر نجده في حالة من كانوا ضحايا التربية السلبية الذين وصفناهم في الفصل الثاني. كما نجده في حالة من عانوا من سيادة أم مسيطرة لم ينجحوا قط في إرضائها، حتى عندما ضحوا بأنفسهم تماماً لها. وأخيراً نجده حيثما يوجد النظام الأخلاقي الخاطئ الذي يطلق عليه المحللون النفسيون الأنا العليا *super-ego*، والتي درسناها في الفصل الثالث.

كل هذه الحالات تتخذ مظهر حالات الضمير، حيث أن الشخص يتهم نفسه بارتكاب الخطية. ومع ذلك فإنها لا تكون عرضة لشفاء النفس من الناحية الدينية بل للشفاء النفسي. فحلّ قلقهم حلٌ نفسي وليس حلاً دينياً؛ ومن ثم لا بدّ من أن يكون هو التبرئة بدلاً من الغفران. فالقلق في الواقع لا يرجع إلى خطأ أو خطية لا بدّ من لوم المرء عليها، بل إلى جُرح كان هو ضحيته. إن الغفران يكون مطلوباً فقط حيثما يمكن الإشارة إلى الذنب. ولهذا السبب لا ينجحون في اختيار

الشعور بالغفران؛ فهم يعتبرون هذا برهاناً أكثر على عدم رضا الله عنهم. وبالتالي لا بدّ أن يتحرروا من هذا الحنين الجارف للغفران غير الفعَّال، وذلك بمساعدتهم على اكتشاف السبب الحقيقي لقلقهم. لقد وصفت صور العذاب التي يمكن أن يعانوا منها عندما تكلمت عن ضحايا الاكتئاب والمزاج السوداوي الذين لا يكفون عن اتهام أنفسهم. كما أشرت في نفس الوقت إلى أن سمة اتهامهم لأنفسهم بصورة غامضة، نظامية، مستمرة هي العلامة الأكيدة لطبيعتها المَرضية.

ولكن هناك حالات أخرى تكون أبعد عن الوضوح من هذه الحالات المتطرفة. أعتقد أنه من الأهم أن تشمل دراسات كليات اللاهوت توجيها لتعليم التشخيص الفارق للشعور الحقيقي والشعور الخاطئ بالذنب.

فالشعور الحقيقي والشعور الخاطئ بالذنب يتشابهان بشكلٍ خطير في مظهرهما، والتعامل مع الشعور المَرضي بالذنب كما لو كان اقتناعاً حقيقياً بالخطية إنما يؤدي فحسب إلى أن يجعل الأمور أسوأ. فتعليم اللاهوت الرعوي قاصر في هذا المجال، والكتابات المتاحة قليلة. أما علم نفس بواطن الإنسان فقد ألقى ضوءاً جديداً على الموضوع لدرجة أنه يكون من اللائق بالنسبة لأساتذة علم اللاهوت الرعوي أن يعيدوا صياغة مناهجهم الدراسية تماماً. لكن الأطباء عموماً نادراً ما يكونون على دراية أفضل. وبالتالي يكون من المهم علاج هذه الحالة العامة حتى يستطيع الأطباء أن يقرروا إما توجيه مرضاهم إلى معالج نفسي أو إلى خادم روحي.

لا أحد أعرف عنه كتب بتمييز أكثر من د. تشارلز أودييه[4] عن موضوع هذا التشخيص الفارق بين الشعور الحقيقي والشعور الخاطئ بالذنب. وهو يشير عن صواب إلى بيرغسون[5]، وذلك لأن هذين النوعين من الشعور بالذنب يرتبطان معاً بـ "إثنان منْ مصادر المبادىء الأخلاقية

4 *Op. cit*

5 *The Two Sources of Morality and Religion*

والدين"، أي القيد النفسي المُمارس على الشخص السلبي من جانب بيئته، ومن الناحية الأخرى النداء الداخلي للروح، الذي يوقظ فيه حركة نشطة للضمير الأخلاقي الحقيقي.

في الحالة الأولى، كما يكشف د. أوديبه بوضوح، يقع المريض تحت رحمة الآلية النفسية لردود أفعاله الضعيفة؛ أما في الحالة الثانية، فعلى العكس، يحصل الذهن على الحرية الفائقة التي تأتي من طاعة الله. في الحالة الأولى يُثار العذاب مبدنياً بصراعٍ لاشعوري، لكن آلية العقلنة تعمل هنا، فينسبها المريض - ويظنها - شعوراً بالذنب يحاول دون جدوى أن يهدئه من خلال دفعات من تأديب النفس. أما في الحالة الثانية، فعلى العكس يكون ما يثير العذاب الأخلاقي هو الندم بسبب خطأ حقيقي، اقتناع المرء بأنه قد خان مبادئه وعصى الله.

ومع ذلك، فإن الشعور بالعذاب هو نفس الشعور في كل حالة، وهذا يمنع الشخص من عمل التشخيص الفارق لنفسه. أقرأ الكتاب المقدس أو كتاباً دينياً أو أخلاقياً؛ أستمع إلى واعظ أو إلى شخص آخر يستنكر الظلم؛ أو، ما هو أكثر من ذلك، أسمع شخصاً يعترف بخطيته؛ أو أسمع في الصلاة صوت الله. وفجأة تنتابني الذكرى المهينة لفكرة تستحق اللوم، أو شعور، أو فعل يصل إلى شعوري. فأعرف أنني كنت على خطأ، فيغلبني شعورٌ بالعذاب. وهذا الشعور مماثل تماماً لشعور الشخص الذي يعاني من الاكتئاب. ولكن إن اعترفتُ بخطئي، وصححته، وتبتُ عنه، ونلتُ غفران الله، أكون قد تحررتُ، بينما لا يكون المكتئب كذلك - وهذه حقيقة يعبر عنها هكذا: "لم أنجح قط في أن أشعر أن الله قد غفر لي."

وبالتالي، بالنسبة لنوعي الشعور بالذنب المختلفين هناك علاجان مختلفان: بالنسبة للشعور الحقيقي بالذنب هناك النعمة؛ وبالنسبة للشعور الخاطئ بالذنب هناك مجرد التحليل النفسي أو العلاج النفسي. والإنسان العلماني لديه شعور

حدسي معين بأن الأمر هكذا. خذ مثلاً حالة امرأة تعاني من الاكتئاب لكنها تصرّ بعناد على اتهام النفس. يقول زوجها لها: "أنتَ تقلقين كثيراً جداً؛ وتأخذين المسيحية بجدية مفرطة." هناك بعض الحق في هذه الملاحظات رغم سوء التعبير عنها. علاوة على ذلك، فإن مثل هذه النصائح لا تقدم شيئاً لطمأنة إنسان يعاني من الاكتئاب. هل يمكن للمرء حقاً أن يجعل شخصاً حساساً يعترف أنه كي يكون سعيداً عليه ألا يأخذ المسيحية بجدية؟ ألا يبدأ تحررنا الروحي العظيم بمجرد أن نبدأ في أن نأخذ مطالب الإنجيل بجدية؟ من هنا فإن مثل هذه الملاحظات تنمّ عن سوء فهم كامل للضمير الأخلاقي، الذي لا يمكن لأحد أن يخمد صوته.

ومع ذلك، فقد قلتُ إن هناك قدراً معيناً من الحق في انتقاد هذا الزوج. فهو يدرك بقدرٍ كافٍ أنه رغم وجود لحظات يغمرنا فيها الإنجيل بفيضٍ مؤلم من الندم والتوبة، تكون هذه مجرد أزمة حادة عابرة، وهي تختلف تماماً عن العذاب المزمن الذي تعاني منه زوجته. ولذلك، إن استمدت من الإنجيل العذاب اللانهائي فقط بدلاً من أن تجد فيه مصدر السلام، فلا بدّ أن يكون هناك ما يشوهه بالنسبة لها.

لغرض الإيضاح قارنتُ الشعور الحقيقي بالذنب والشعور الخاطئ بالذنب كما لو كنا نجدهما في أشخاص مختلفين. لكنهما في الحقيقة يختلطان معاً، وهذا ما يعقد المشكلة أكثر. ففيما ينساق الشخص الذي يعاني من الاكتئاب بدافع اتهام نفسه، فغالباً ما يوبخ نفسه على أمور خاطئة حقاً - كذبة مثلاً. فيكون من غير المجدي بالمرة في مثل هذه الحالة أن تحاول طمأنته بتقليل شأن خطأه، وذلك بإخباره بألا يأخذ المسيحية مأخذ الجدية، ومحاولة إقناعه بأن شعوره بالندم هو نتيجة عقدة نفسية لاشعورية. وفيما يمكن أن يحرره فقط استكشاف آلياته النفسية من الدافع القهري الذي يجعله يتهم نفسه، هكذا أيضاً يمكن أن يحرره فقط غفران الله من الندم الذي تركته وراءها خطية حقيقية.

غالباً ما كنت أضطر أن أصنف بمثل هذا التفصيل كل اتهامات النفس المتنوعة التي يقوم بها المريض كي أشير إلى أخطاء مشاعره الخاطئة بالذنب، وأحلّ المشاعر الحقيقية بالذنب من خلال غفران الله.

غالباً ما أظن أن هؤلاء المرضى مثل غابة زرع فيها أحد الأقزام الأسطوريين أشجاراً زائفة وسط الأشجار الحقيقية كي يحبط قاطع الأخشاب ويجعله ييأس من قطع الأشجار الحقيقة. ومثال ذلك أتذكر زميلاً كان في طفولته ضحية لأب عصابي، وكان يتهم نفسه بصورة خاطئة بسوء تصرفه تجاهه. وكان اتهام النفس هذا مجرد التعبير المنحرف عن الدفاع الشرعي الذي كان قد كبته في الماضي. وقد تكلّف الأمر جهداً هائلاً كي يعيش من جديد عواطف طفولته التي لا يمكن وصفها والإساءات القاسية التي سببها له أبوه. في علاقة الأب-الابن هذه، كان الأب هو المخطئ، وليس الابن الذي يؤرقه ضميره. ولكن بمجرد أن تحرر هذا المريض، بدأ يعترف لي بأخطائه الحقيقية، وقد كانت تتطلب حلاً دينياً. فذكراها كان يبدو أنها متوارية وراء الشعور الخاطئ بالذنب الذي يغطي شعوره.

علاوة على ذلك، فغالباً ما أكد علماء اللاهوت تماماً على حقيقة أن الشخص المتشكك بصورة مفرطة يتهم نفسه بعدد من الخطايا الخفية والخيالية بينما يبقى غافلاً عن الأخطاء الحقيقية في حياته، وذلك لأنه يكون مستغرقاً في الفحص التفصيلي للأخطاء الخيالية. وقد يتهمه المرء بأنه يلوذ من الاقتناع الحقيقي بالخطية في غابة شكوكه. لكن المرء يمكنه أيضاً أن يعترف بأن مجموعة المشاعر الخاطئة بالذنب هذه إنما تمنعه عن فحص نفسه بأمانة.

هناك فصل مميز في كتاب د. مايدر[٦] يحلل مشاعر الذنب المرتبطة بالعادة الشبابية. وهذا مثال مذهل عن النقطة التي نتناولها. فكما أوضح المحللون النفسيون، فإن هذه المشاعر

[٦] *Op. cit*

أساساً هي تعبير عن الخزي الخاطئ الذي ينسبه المجتمع للجنس، وسمتها القهرية مشتقة من هذه الحقيقة بصورة محددة. لكني أقول "أساساً" لأنه ليست هناك نظرية يمكنها أن تستأصل من الضمير الإنساني الاقتناع بأن الاستسلام للعادة الشبابية معناه عصيان الله - أو الطبيعة، أو قانون المحبة الحقيقية، إن كان المرء لا يؤمن بالله.

في مجال الجنس دائماً ما نصادف هذا العامل المزدوج في مشاعر الذنب، الخاطئ والحقيقي. فبالنسبة لامرأة متورطة في علاقة غرامية مع رجل متزوج ربما يكون هناك ٩٠ ٪ من الخزي الخاطئ بسبب التحيز الاجتماعي، ولكن تبقى نسبة ١٠ ٪ من الندم الحقيقي للضمير. وفيما تواجه إدانة قاسية من جانب أحد خدام الدين، فإنها تُعبِّر عن اعتراضها؛ فهي تعتبر نفسها تُدان ظلماً، وذلك لأنها تشعر أنه يسئ فهم الميكانيزمات النفسية التي قادتها إلى مشكلتها الحالية - مثال ذلك أن تكون هذه العلاقة ردّ فعل صحياً ضد تقليدية بيئتها، أو شفقة صادقة كبيرة تجاه رجل أخبرها عن [illegible] حياته الزوجية. ومع ذلك، عندما تذهب إلى المحلل النفسي، الذي لا يرى سوى هذه الميكانيزمات، فسوف تبقى دون أن تتحرر من ندمها الحقيقي.

ثم هناك حالة فتاة اعتادت وهي في سن الثانية أو الثالثة أن تخرج مكشوفة إلى الشارع. وهي تتذكر جيداً جداً الشعور بالذنب الذي كان ينتابها، إلا أنها كانت تتمتع به إلى حدٍ ما. وبالطبع في هذا الشعور أيضاً كان الإيحاء الاجتماعي يلعب دوراً كبيراً. وبسبب كل ما يعرفه البالغون عن الحياة، التي لا تزال مجهولة بالنسبة لطفلة صغيرة، فإنهم يوبخون الطفل الذي يتورط في استعراضٍ ساذج مثلِ هذا. ومع ذلك، رغم أن هذه الفتاة كانت صغيرةً في ذلك الوقت، إلا أنه لم يكن لديها أدنى تردد في تمييز وجود شئ حقيقي في شعورها بالذنب. فقد كان هناك وعيٌ حقيقي بأنها اخترقت ناموساً إلهياً، قانون العفة، لن يستطيع أي محلل نفسي أن يقلل من

شأنه حصرياً إلى مجرد تقليد اجتماعي.

وبالتالي، بالنسبة لهذين النوعين المميزين من الشعور بالذنب، هناك علاجان مميزان، ولكن حيث أنهما مندمجان، يكون من الضروري أن ندمج نوعي العلاج معاً. كما أن محللاً نفسياً مسيحياً مثل د. مايدر مؤهل تماماً لتقديم الحل الديني الضروري حين يكشف التحليل عن ندم الضمير الحقيقي.

وأخيراً، ما زالت المشكلة أكثر تعقيداً لحقيقة أنه مهما كان نوعا الشعورين بالذنب مميزين، إلا أن هناك صلةً بينهما. فهما يتفاعلان. وهذه الصلة هي نفس الصلة الموصوفة في الفصل الثالث بين مجموعة المخاوف غير الصحيّة والبذرة الداخلية للخوف الغامض الذي لا يمكن استئصاله، الذي ينتاب قلب كل إنسان مهما كان شجاعاً أو قوياً. وكما رأينا، فإن رواسب القلق هذه المتعذر إنقاصها هي الخوف الذي ينتاب المرء، لا من الآخرين بل من نفسه، من دوافع الشعور بالذنب التي يشعرها في أعماقه.

شابة تهاجمها اضطرابات نفسية عند اقتراب زواجها. فنحلل معاً الميكانيزمات العاملة هنا. فيكون قلقها خاطئاً - أو "وظيفياً" باستخدام مصطلح د. أوديبه. وهذا هو التعبير عن الصراعات الداخلية التي تكون طبيعتها نفسية بدرجة صارمة وليست أخلاقية. فهناك أحداث معينة في ماضيها تركت آثاراً ضارة على ذهنها، وقد تجدد نشاطها من جانب منظور اقتراب زواجها. فهذا الزواج يمثل تحقيق أعظم أمنياتها، ومع ذلك هناك تثبيط داخلي غامض يعترض طريقها. المريضة ذكية. فهي تفهم جيداً كل ما يدور في أعماقها، وتتعاون بشجاعة في التحليل. ولكن ما زال هناك شيء ما غير حقيقي في عملنا معاً؛ هناك خوفٌ معين.

بعد ذلك في أحد الأيام تتصل بي اتصالاً طارئاً. قلقٌ رهيب يتملكها. لكنها في هذه المرة تذكرت فعلاً خاطئاً كانت قد

ارتكبته بنفسها، وتعترف به أمامي. هذه المرة يكون الحل دينياً وليس نفسياً، لأننا في هذه المرة لا نتعامل مع فعلٍ تكون فيه هي الضحية، بل مع فعل تكون مخطئة فيه. وهنا يكمن مكمن كل الاختلاف بين نوعي الشعور بالذنب. ومع ذلك، فإن الاستجابة الدينية لاعترافها - غفران الله - لا تُسكِّن فحسب القلق الحقيقي لشعورها بالندم. لكنه ينعكس على القلق الخاطئ، الميكانيزم الذي كشفنا عنه في لقاءاتنا السابقة، رغم أنها لم تنجح في طرده تماماً.

يمكن للمرء أن يرى هنا الصلة بين نوعي القلق، بين مشاعر الذنب الحقيقية والخاطئة. وهذا نوعٌ من الصدى التعاطفي *sympathetic resonance*، كما يحدث عندما تهتز زهرية كريستال على إيقاع معين للبيانو. كلنا نحمل في أعماقنا قلقاً غامضاً راجع إلى أخطائنا الحقيقية يجعل أذهاننا حساسة ومُعرَّضة للحوادث الناشئة عن الصراعات النفسية، وتسمح بالشعور الخاطئ بالذنب. كما أن صور القلق النفسية الخاطئة هذه يمكنها بدورها أن تجد في الشعور القلق الحقيقي الذي يتخذ فيما بعد سمة الاقتناع الملموس الحقيقي بالخطية.

هذه الصلة يمكن وصفها بصورة أخرى. المريض الذي يعاني من القلق يعترضه جدار. وحتى ارتفاع معين تكون وحدات بناء الجدار مكونة من شعوره الحقيقي بالذنب، وعلاوة على ذلك يكون جزءٌ منه مدفوناً تحت الأرض وغير منظور. أما الشعور الخاطئ بالذنب - بسبب الأحداث التي كان هو ضحيتها - فقد أسهم في زيادة ارتفاع جدار القلق وجعل من المستحيل بالنسبة له أن يتخطاه. وفي رغبته لتخطي الجدار يركز عيناه فقط على القمة - الشعور الخاطئ القهري بالذنب. ولكن إن هاجم الأساسات، فانهارت بفعل نعمة الله فيه، فعندئذٍ فسوف ينهار الجدار بأكمله.

يسجل د. مايدر حالة فتاة كانت تعاني من صدمة جنسية في طفولتها غرست فيها خوفاً مَرضياً من الرجال. إلى هنا

تكون المشكلة نفسية خالصة, ولكن في لقائه الثاني معها، والذي ساعده فيه تخفيف حدة التوتر من جانب ما تمكنت من الاعتراف له به، سرعان ما رأت الفتاة أن الإساءة التي كانت واقعة عليها - رغم دفاعها المستميت ضدها- لاقت تواطؤاً من رغبتها الشخصية. يضيف د. مايدر: "في الأساس، لو لم تكن قد أدركتْ ذلك حتى الآن، لظلّتْ خائفة من غريزتها الجنسية؛ فليس الرجال فقط هم من لا تثق بهم، بل نفسها أيضاً."

عندما يتعلق الأمر بالخوف، والقلق، والشعور بالذنب، يكون هناك بالتالي مستويان لذلك: المستوى الروحي والأخلاقي العميق، والمستوى النفسي السطحي. لقد سعيتُ لإظهار مدى اختلافهما، ومع ذلك فإن أحدهما يؤثر على الآخر. وعلى مستوى ردود الفعل النفسية، يكون المرء خجولاً من مخاوفه، معتبراً إياها ضعفاً يخلو منه من هم أقوى منه. وهذا الخجل ضار لأن المرء غير مسئول عن الضعف الذي يلوم نفسه عليه، ولأن هذا الشعور بضعفه إنما يفصله عن الآخرين. أما على المستوى الأخلاقي والروحي، فالشخص يشعر بقدرٍ أكبر من الخجل من نفسه لأنه يشعر ويعرف أنه بنفسه مسئول تماماً. لكن هذا الخجل صحي، لأنه شائع لكل البشر، حيث أن الكل خطاة. وهذا الضعف الذي يكتشفه المرء في أعماقه هو الضعف الكوني للطبيعة البشرية، كما أن اختباره له يمنحه شعوراً قوياً بتوحده مع بقية الجنس البشري.

وبالتالي يكون المستويان مميزين، لكنهما مرتبطان معاً للغاية لدرجة عدم إمكانية أن نعالج مرضانا كليةً دون التزود بحل مزدوجٍ لعذابهم المزدوج. زميل آخر من زملائي كان ضحية ظروفٍ تراجيدية في طفولته وشبابه: فقد توفي أبوه؛ وفيما تركته أمه ربته عمته المريضة المتملكة؛ فنتج عن ذلك فقدان هويته - كانت هذه هي أقل مشكلاته خطورة. ومعاً تعمقنا في تفاصيل كل هذه الأمور الشخصية، لكننا

كنا حتى هذه النقطة ما نزال على المستوى النفسي، حيث يكون الشخص هو الضحية، ولا يكون هناك جدال حول مسئوليته الأخلاقية. وقد وجد زميلي حقاً بعض الارتياح في فحص كل هذه الأمور معي. فقد تمكنّا من إقامة رابطة متبادلة من الثقة؛ ولكن رغم ذلك، كان الجو ما زال ثقيلاً. وفجأة، بدلاً من التحسن الذي كنتُ أتوقعه، رأيت مريضي يدخل أزمة اشتداد مفاجئ من الألم. وفي نفس الليلة تلّقيت خطاباً كتب فيه: "لا بدّ أن أصل بهذا إلى النهاية. هناك أيضاً بعض الأمور في ماضيَّ أستحق اللوم عليها؛ وأنوي أن أقدم لك اعترافاً كاملاً عنها غداً."

ثم حدث التحرير الحقيقي، تحريراً إعجازياً فتح الباب على حياة جديدة ومثمرة تماماً.

وبهذه الطريقة فإن الكشف الكامل للأرض على المستوى النفسي غالباً ما يفتح القنوات الروحية التي قد تتدفق نعمة الله من خلالها. مريضة أخرى من مريضاتي كانت شابة تعاني من عقدة نقص خطيرة. وقد حللّنا أسبابها: فقد كانت تسيطر عليها أخت ما زالت تعاملها كطفلة. وكانت ضعيفة للغاية، وكانت تسمح لنفسها بالتعرض للسيطرة، ولم تكن قادرة على إرساء مرحلة بلوغها. كل هذا كانت تفهمه، لكنه كان لا يزال غير كافٍ لإظهار مرحلة البلوغ فيها. وقد حدث أنها عاشت مع صديقة مسيحية، وفي أمسية لقائنا تحدثت إليها هذه الصديقة عن اختباراتها الشخصية وعن الخطايا التي تحررت منها من خلال إيمانها المسيحي. وفي اليوم التالي انتقلت جلستنا فجأة من المستوى النفسي إلى المستوى الأخلاقي الروحي. وقد كانت مريضتي تستطيع بالكاد أن تنام. فما سمعته أيقظ فيها ذكريات مختلفة تماماً عن ذكريات اضطهاد أختها؛ وكانت النتيجة اعترافاً حقيقياً. وعلى الفور بدأت في النمو! والآن صارت بالغة أخيراً لأنها اختبرت قوة المسيح الكاملة. كما أن قوتها الروحية الجديدة انعكست فيما بعد على المستوى النفسي، وقادتها للنصرة على ردود أفعالها الضعيفة.

٩

القوة الحقيقية

وصلنا لنهاية مواجهتنا مع المستويين الذين نُقيم عليهما حياتنا البشرية في آنٍ معاً. ومع ذلك، فإن "المواجهة" ليست هي الكلمة الصحيحة، لأن هذين انمستويين ينتهك أحدهما الآخر باستمرار، ولأنهما ليسا بنفس الدرجة. وهذا ما يجعل أية مشكلة سهلة جداً نظرياً تكون في غاية التعقيد.

فنظرياً، قد تكون كلٌّ من أفكارنا، ومشاعرنا، وأفعالنا هي التعبير عن الحتمية الآلية لردود أفعالنا الفسيولوجية، والنفسية الحيوانية، كما يمكن أن تكون تأثير الإلهام الروحي، الحرّ والخلاّق. لكننا غالباً ما نظن أننا نتصرف بالإلهام حين نكون دُمي تحركنا آلياتنا الأتوماتيكية. وغالباً أيضاً، فإن النمط الخاصّ الذي يضفيه مزاجنا الطبيعي على سلوكنا يخفي مصدره الروحي. ما زال من الأسهل أن نخطئ بخصوص الآخرين! ولذلك لا بدّ أن نمتنع عن الحكم على الآخرين، أي لا بدّ أن نستنكر ادعاء أننا قادرون، من الخارج، على عمل تشخيص لمقدار تصرفاتهم النابعة من الروح ومقدار تصرفاتهم النابعة من الطبيعة. فحتى

عندما يتعلق الأمر بنا نحن، فإننا لا نعرف أنفسنا تماماً على الإطلاق. يمكننا أن نستمر دون تحديد في إجراء فحص الضمير هذا، ونقوم باستمرار بعمل اكتشافات غير متوقعة. وفي لحظة واحدة نجد أن هناك شيئاً ممنوحاً من الله يبدو فيه أكثر ردود أفعالنا طبيعية، وفي اللحظة التالية نكتشف شيئاً لا يزال بشرياً فيما كنا نظن أنه أكثر اختباراتنا الروحية أصالة. وهذه الاكتشافات أحياناً ما تتم من خلال وسائل نفسية، من خلال التحليل الكاشف لأحد الأحلام أو من خلال زلة لسان، وأحياناً من خلال الاستنارة التي تنهمر علينا عندما نكون في روح الصلاة.

دعونا نفحص حالة شخصين، كلاهما يصارع من أجل مثّل أعلى - على سبيل المثال، حرية الضمير والتسامح. قد يضعان محاورات متطابقة بنفس الحماس، ومع ذلك لا يتحفزان بنفس القوة الدافعة عينها. وبنفس الكيفية، قد تستمد المحطة الإذاعية قوتها من الشبكة الكهربائية العامة أو من مولداتها الكهربائية الخاصة، ومع ذلك [illegible] نفس البرنامج. فدون دراية، فإن أحد هذين الشخصين في نضاله من أجل التسامح إنما يسعى حقاً للانتقام من أبيه الذي كان قد فرض عليه في الماضي قيداً أخلاقياً غير سليم. أما الآخر فلديه دعوة حقيقية. إن قوة كلّ منهما تنبع من مصدر مختلف: الأول نفسي، والآخر روحي.

من بعض الأوجه، فإن السمة الآلية، الحتمية، والمحددة للقوة النفسية تمنحه ديناميكية أعظم، وأكثر تصميماً، ولا تُقهر، على الأقل سريعاً.

مثال ذلك، في السياسة الدولية، خُذ حالة الدولة التي تبثّ الخوف في جاراتها. وبالطبع فإن خوفها هو ما يجعلها مرعبة. وهذا أمرٌ خطير لأن الميكانيزم النفسي على درجة من الصرامة، والاندفاع، والقوة حتى أن العقل والعاطفة لا يمكنهما إيقافه تماماً. فكلما تكون الدولة أقوى كلما تكون أكثر خوفاً؛ وكلما يتزايد خوفها كلما تحاول إثبات نفسها

لدرجة التضحية بكل شئ في سباق القوة الجنوني، إلى أن تُطلق العنان لأفظع الكوارث التي سوف تتورط هي فيها؛ كما أن العذاب الذي تشعره مع اقتراب الكارثة إنما يقودها أكثر بالتأكيد نحو دمارها المحتوم.

هل هذا معناه أن عملية ردود الفعل الضعيفة تُمثّل منظوراً أكثر تفضيلاً؟ علي الإطلاق. ففي السياسة، فإن الاستراتيجيات النابعة من الضعف، وكل المساومات والاتفاقيات المستوحاة من الخوف تُنتَج نفس الكارثة التي تُصمّم علي تجنبها. ومن هنا فإن كلا النوعين من ردود الفعل الطبيعية، القوية والضعيفة، يؤدي إلى الحرب والدمار. فعلى مستوى ردود الفعل هذه، ليس لدينا خيارٌ سوى أن نُعبِّر عن غضبنا لترويع الآخرين، أو أن نقدم تنازلات غير عادلة لإرضائهم إلى أن يأتي اليوم الذي نسترد فيه حقنا؛ وإلا فلا بدّ أن نمرّ بالتبادل من سياسة إلى الأخرى. ولن تؤدي أيهما إلى السلام الحقيقي.

في أوقات الأزمات الدولية، مثل مؤتمر ميونيخ مثلاً، ينقسم الناس حسب طباعهم إلى معسكرين. وكل معسكر يدافع عن سياسة واحدة من كلتا السياستين - سياسة القوة والتخويف، أو سياسة التنازلات بأي ثمن. وكلٌ منهما يمكنه أن يشير عن حق لمخاطر طرق الآخر، حيث أن كلتيهما تزيدان مخاطرة الحرب المرعبة.

أما القوة الروحية فهي مختلفة تماماً. فهي لا تتميز بسياسات القوة ولا بسياسات الضعف. فسواء كان الصراع بين زوج وزوجة، أو بين متنافسين، أو بين أمم، فإن القوة الروحية تتيح سبيلاً للهروب من الورطة التراجيدية التي وصفتها للتو. فهي تقدم عنصراً جديداً، بعداً جديداً، للعلاقات البشرية. كما تعمل علي مستوى مختلف: ليس بعد على علاقات القوة الخاصة بالبشر، بل علي طبيعتهم. وبتغيير طبيعتهم فإنها تُغيِّر مقدمات المشكلة.

لستُ أقصد أنه في السياسة - حتى السياسة الزوجية- تكون كل الطرق لها نفس القيمة. ففي كل مجموعة من الظروف لا بدّ أن نبحث عن طريقة تصرّف، إما قويةً أو ضعيفة، تكون ملائمة وعملية. ولكن لا بدّ من تمييز أن هذه سياسة تلاؤم، وليست حلاً حقيقياً يجلب سلاماً حقيقياً. فطالما أن الطبيعة البشرية تبقى دون تَغيُّر، فإن حلولنا، مهما كانت مناسبة، ستكون غير مُستقرة. وسواء بحثنا عنها باستعراض القوة أو بالمساومة، فإن أكثر ما نرجوه هو وقف إطلاق النار. كتب د. فرانك بوكمان[7]: "الله وحده من يمكنه تغيير الطبيعة البشرية." وهذا أيضاً هو الحلّ الحقيقي الوحيد لمشكلة السلام ومشكلة العدالة الاجتماعية. فالسبب الذي يجعل عالمنا الحديث يجد أنه من الصعب جداً أن يحلّ هذه المشكلات هو بالتحديد يحاول أن يعمل هذا بدون الله.

لستُ أعظ بالمدينة الفاضلة. فأنا أعلم تماماً أن رجوع أمم العالم إلى الله لن يحلّ على الفور شبكتها المعقدة من مشكلاتها السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية. لكن مقدمات تلك المشكلات سوف تبدأ رغم ذلك في التغير تدريجياً. وهذا هو الطريق الوحيد الذي يمكننا به أن نتوقع تجديداً للعلاقات الإنسانية. ففي جميع الأحداث لا بدّ من الاتفاق على وجود تفاوت تراجيدي بين الجهود التقنية لحلّ مشكلاتنا السياسية والاقتصادية من خلال لجان الخبراء والمؤتمرات الدبلوماسية، وبين تلك الجهود المبذولة لتغيير الجو الروحي للدول.

عندما يقتنع العالم حقاً أن الجذور العميقة لأمراضه إنما تكمن في الطبيعة البشرية، وفي ردود الفعل الطبيعية للخوف والعدوانية، وبعدما يكون قد ابتعد عن الله يطلب من جديد الوحي السماوي - ليس فقط في اللاهوت بل أيضاً في السياسة - فسوف يكون هناك رجاء حقيقي بالسلام.

---

7 F.N.D. Buchman, *Remaking the World*, Blandford Press, London, 1953, p. 77

إن القوة الروحية تُغيِّر مقدمات مشكلاتنا تدريجيا. وهذا ما لا يدركه الخبراء أبداً، إذ يظنون دائماً أن المقدمات ثابتة.

كما قلت للتو، فإن القوة الروحية تبدو في البداية أنها أقل دفعاً، أقل قوة، وأقل قسوة من الغرائز الطبيعية. أما في الواقع فهي أقوى بمراحل، هذا إن قمنا بقياسها بالثمرة التي تحملها. هذه هي القوة، في الواقع، التي تكسر الدوائر المفرغة لردود أفعالنا الطبيعية؛ كما أنها القوة التي تمنح النُصرة على النفس وعلى الخوف؛ ومن ثم فإنها القوة التي تسحق أقوى شئ في العالم.

قد تُقدِّم نفسها في شكل الضعف. يكتب د. مايدر: "لستُ أنا بأي شكلٍ من الأشكال النمط البطولي ... فبدون يقين ودعم الإيمان لا يمكنني الاستمرار."[8]

كما قمنا بمقارنة اثنين من المقاتلين الشجعان، يمكننا أيضاً أن نقارن بين شخصين يتراجعان - أحدهما يتراجع بردّ الفعل الطبيعي للخجل والجُبن؛ بينما الآخر، الذي يكون قادراً تماماً على المقاومة وردّ الضربة، يتحكم في نفسه ويضع نهاية للصراع من خلال سيطرته على نفسه ومن خلال إحسانه. الشخص الثاني في الواقع قوي، لكنه قوي بالمعنى الروحي.

يمكننا أن نقول المزيد. رجلٌ يتورط في صراع زوجي. فزوجته عنيدة ومتسلطة؛ وهي تسيطر عليه من وجهة النظر النفسية. وهو يستسلم لها ولكن ضد إرادته؛ وزوجته تشعر أن هذا رغماً عن إرادته، وهذا ما يثيرها لاضطهاده أكثر فأكثر. وفجأة ينفجر الزوج: فكل ردود أفعاله المكبوتة منذ زمن تنفجر في "مشهد" عنيف. ومع ذلك، فإن ردّ الفعل القوي هذا ليس أنجح من تنازلاته السابقة. فهو يثير زوجته بدرجة أعلى وسرعان ما تسيطر عليه من جديد. وهكذا يتنقل هذا الرجل من ردود الفعل الضعيفة إلى ردود الفعل القوية، لكن كلاهما يكونان التعبير عن ضعف متّرسخ في

8 *Op. cit.*, p. 183

أعماقه.

في الواقع، لا بدّ من البحث عن الحلّ على مستوى أكثر عُمقاً. ظللتُ أستمع لفترة طويلة إلى وصف هذا الرجل لمأساة حياته الزوجية بأكملها. كان يتوقع النصيحة؛ ولكن لم تكن لديَّ نصيحة له لأن النصيحة دائماً ما تكون علي المستوي النفسي. تكلمتُ إليه عن العديد من اختباراتي الروحية، وعن المخاوف التي اكتشفتها داخل نفسي. وقضينا وقتاً طويلاً في التأمل والصلاة معاً.

وبعد ذلك، في محضر الله، بدأ يُخبرني عن أخطاء كان قد ارتكبها، وقد كان يظن أنه يطلب غفران زوجته، ثم تحدث عن الخوف الذي كانت تبثّه فيه، الذي رأي أن يضعه أمام الله في الصلاة. وقد كانت هناك أساساً صلة بين هاتين النقطتين، صلة لم يرها أيّ منا في البداية: الخوف يمنعنا من الاعتراف بخطايانا، والضمير المُثقل يحفز خوفنا.

وقد كانت النتيجة مدهشة. فلأول مرة استطاع أن يقترب إلى زوجته دون خوف، مهيئاً وهادئاً داخلياً، وذلك لأنه كان يفعل ذلك وهو عالم أنه يطيع الله ويسلك في شركة معه. كان من الظاهر أنه يتصرف تصرف الضعف، التقدم إلى زوجته وهو مضطر للاعتذار هكذا. لقد كان قوياً في الواقع؛ فللمرة الأولى كان أقوى حقاً منها هي — أقوى بمراحل عما قبل، عندما أهانها في نوبات العصبية.

فعادت السعادة الزوجية الحقيقية إلى بيتهما. وكان من الطبيعي أنه كان لا يزال يُقدّم تنازلات لزوجته، لكنها لم تعدَ تنازلات من نفس اللون إن جاز لي استخدام هذا المصطلح. لكنها كانت تنازلات قوية، ولم تعدّ تنازلات ضعيفة، كانت تنازلات روحية، ولم تعدّ تنازلات نفسية.

من الواضح أن القوة الروحية يمكنها أن تتخذ في لحظة معينة مظهر القوة، وفي اللحظة التالية مظهر الضعف. وهي حقاً أقوى من القوة الطبيعية، حتى إن كانت تبدو منهزمة.

كما أنها خالية من كل التوتر الداخلي الذي هو سمة القوة الطبيعية. وهي تمنحنا بالفعل قدرة الاعتراف بضعفاتنا، في حين أن القوة الطبيعية تُجبرنا على إخفائها، دون أن تحررنا من خوف اكتشافها.

إن فعل اعتراف المرء بضعفاته لهو أقوى من إخفائه باستعراضات القوة الصاخبة. قدّم إبراهام لنكولن مثالاً لذلك عندما قال - وقد كان هو نفسه يتمتع بالقوة - لأحد جنرالاته: "لقد كنتَ على صواب. وكنتُ أنا المخطئ. أنا آسف." إن اتجاهاً مثل هذا لا يأتي طبيعياً لأي إنسان. ولا يمكن لأحد أن يخلط بينه وبين ردّ فعل ضعيف. فهو تدخل الروح، قالباً نظام الطبيعة رأساً على عقب.

مثل تلك الإشارات نادرٌ، لكنها دائماً ما تأتي بثمر. كما أنها صعبة بالنسبة للأقوياء كما هي للضعفاء، وصعبة بالنسبة للمتدين كما هي بالنسبة للملحد. في العام ١٩٣٩ كان اثنان من أبرز قادة الكنيسة النرويجية، الأسقف بيرغراف والبروفيسور هاليسبي في نزاع، وانقسما بسبب عضويتهما الكنسية المختلفة وبالعداوة الشخصية. في مفكرة صلواته الشخصية كتب الأسقف: "هناك حرب دائرة في أوروبا. وهناك أيضاً حرب بينك وبين هاليسبي. إذهب وقابله وإصنع سلاماً من أجل النرويج." يضيف بيتر هاوارد الذي يروي القصة[9]: "كان الأسقف يتمتع بمكانة تمنعه من التنازل والخضوع. ومن ذلك الفعل البسيط ... اقتلع النزاع واستعاد الوحدة المتينة للكنائس النرويجية ... ضد الغزو النازى." يكتب إدواد هاويل: "الحرية الحقيقية قرار أكثر منها حالة عامة. إنها قرار خدمة الله. وعندما يتخذ شخصٌ ما هذا القرار ويسلك بناءً عليه، تحدث المعجزات ويهرب هو للحياة ... فلا مشكلة مهما كانت رهيبة ولا عقبة مهما كانت هائلة تستعصي على المعجزة. عندما يتخذ البشر هذا

9 *Op. cit., pp. 170-1*

القرار يكونون أحرار."[10]

كان أحد أصدقائي يحكي لي للتوّ عن عمليتين جراحيتين كان حاضراً لهما، وكلاهما في ذات الصباح. كانت المريضة الأولى ضعيفة - متوترة للغاية، وغير مستقرة نفسياً. لكنها كانت تملك الإيمان، والإيمان يساعدنا على أن نكون أمناء مع أنفسنا. فقد تمكنت أمام الله أن تعترف بخوفها من العملية وأن تصلّي أن تتحرر منه. أما المريض الثاني فكان قوياً. وقد دخل غرفة التخدير مازحاً في مرح: "حسناً، آن دور تقطيعي اليوم!"

وتحت تأثير المخدر كانت الأوضاع مختلفة تماماً. فالمريضة الأولى كانت هادئة وصامتة؛ أما المريض الثاني فكان قَلَقاً غير مستقر كمن يترنح من الشراب! هذا الشخص الذي لعب دور القوي بطرائفه إنما كان في الواقع يكبت تحت ذلك القناع عقدة كاملة ترجع إلى فترة طفولته. فقد ظهر أن أباه ترك زوجته وأولاده وذهب مع إمرأة أخرى. وبالتالي فإن اتجاه المزاح الذي تبناه المريض منذ ذلك الحين، والذي كان يضفي عليه مظهر القوة، إنما شوّه حياته بأكملها. كما جعله يعتاد على إخفاء مخاوفه عن نفسه وعن الآخرين. ومع ذلك، تحت تأثير التخدير في الجراحة، انهار كل ذلك الصرح المصطنع.

إن أردنا أن نفهم البشر - وهذه دراسة ممتعة جداً - ولا سيما إن أردنا أن نساعدهم (وهذا أكثر إثارة)، فلا بدّ أن نتعلم كيف نُميِّز بين المظهر والواقع. فنحن دائماً ما نجد أن ضعفهم الحقيقي هو الضعف الذي يعمل على المستوي الديني وليس على المستوى النفسي؛ وأن القوة التي يستمدوها من العلاقة مع الله هي القوة الوحيدة التي هي خلاّقة حقاً.

هناك قوتان دافعتان تعملان في الذهن: الغريزة والروح القدس. علم النفس يسعى لتحرير القوة الطبيعية، الليبيدو،

[10] *Op. cit., p. 227*

الغريزة؛ وهذا أمرٌ مشروع وصحي. أما نحن المؤمنون فنسعى بالإضافة إلى ذلك لاختيار مصدر جديد من القوة للإنسان، القوة الفائقة للطبيعة النابعة من الروح القدس؛ وهذه قوة مختلفة لا تتعارض مع قوة الغريزة بل تتخطاها، متحكمةً فيها وموجِّهة إياها، حتى يمكن للإنسان أن يعبر من مجرد الحياة الحيوانية إلى حياة النفس.

ومع ذلك، يحدث أن يتجرأ بعض المحللين النفسيين على تحصين الضعفاء وتحرير قُواهم الغريزية المُحتجزة بأن يقدموا لهم نصائح تتعارض مع مطالب الروح. وبالتالي، كي يمدّوهم بنوعٍ واحد من القوة، فإنهم يحرمونهم من نوع أكثر إثماراً بصورةٍ لانهائية. فمن خلال طاعة الروحِ فقطَ يمكننا أن ننال قوته. وبخصوص افتراض أن ما يعيق قُوي الغريزة في مرضاهم هو خوف من ارتكاب الخطية أوحى به المجتمع بشكل مصطنع، فإن هؤلاء المحللين النفسيين يحاولون تحريرهم بإنكار الأخلاقية. ربما يجعلوهم أقوياء بالمعنى النفسي، لكن سيكون ذلك على حساب كبت الضمير. فقوة السطح هي التي تُخفي المشكلة الإنسانية الرهيبة غير المحلولة.

إن المشكلة الإنسانية الرهيبة ليست هي مشكلة الضعف بل مشكلة القوة. وفي الواقع أن الإنسان يشعر في نفسه بالقوة الغامضة التي منحها إياه الله حين أعطاه السيادة على الطبيعة. وهي أنه يشعر في نفسه بحرية استخدامها أو إساءة استخدامها. ومن تلك القوة، ومن تلك الحرية يكون الإنسان خائفاً. ولهذا فإن خوفه ينمو مع قوته. وهذا ما نراه بوضوح في حالة القنبلة الذرية. وبالتالي، من الواضح أن الخلاص النفسي الذي يتضمن أن تكون قوياً وحراً بقدر الإمكان إنما يتضمن في ذاته ضعفاً خطيراً. وهنا يكمن الفارق الشاسع بين تعليم فرويد للعدوانية وبين التعليم المسيحي.

إن شرط نوال الإنسان لقوة الروح القدس الفائقة للطبيعة هو خضوعه لمشيئة الله. ومن الواضح تماماً أنه طالما

سمح الإنسان لنفسه أن يقوده الله في استخدامه هو لقوته، يمكنه أيضاً أن يستخدمها دون أن يخاف منها. ومن هنا فإن المسيحية لا تُعلِّم عقيدة الضعف. لكن القوة التي تمنحها للإنسان تختلف تماماً عن قوته الطبيعية. فهي قوة مُوجهة من جانب الله، وتعمل ما يشاءه الله. إنها تُحقق انتصارات عظيمة، لكنها تكون فقط على الشر وعلى الذات، وليست الانتصارات المدمرة على الآخرين.

قارن بين شخص تتملكه قوة نفسية طبيعية رهيبة وآخر يملك قوة روحية. قوة الأول مبنية على نجاحاته الاجتماعية- أي أنها كثيراً جداً ما تقوم علي هزيمة وإذلال الآخرين. فكلما كان أقوى وأمهر كلما سحقَ الآخرين وقوّض الشركة الإنسانية وأضعفَ من يدوس عليهم. أما قوة الثاني فتنمو من القوة التي يُسلِّمها للآخرين، وهكذا يبني علاقة إنسانية. ففيما تتكون قيمة الصحفي على سبيل المثال؟ هل في نجاحه الذي يمكنه أن يستمده من القيام بحملات عنيفة واستغلال الضعفات البشرية؟ أم في تكريس نفسه لإعلاء المستوى الأخلاقي للرأي العام؟ أيّ الرجلين أكثر رجولة: من يظن أنه يستعرض رجولته باضطهاد زوجته، أم من يساعدها على تطوير مواهبها تحت الحماية القوية التي يوفرها؟

الإيمان الديني وحده يمكنه أن يتيح القوة الهادئة الخلاّقة التي تنتقل من شخص لآخر بغضّ النظر عن تشديد شخص على حساب آخر. يكتب أحد زملائي الأطباء: "مرت سنوات منذ استوعبتُ "تكتيك" مهنتنا ... لكني منذ زمن طويل تعلمت أنها لا تعمل بدون إيمان ... فعلم النفس بأكمله لا ينفع شيئاً ما لم يتأصل البشر في مفهوم أصيل للحياة."

***

كان أغلب الأشخاص الذين نراهم في الأناجيل يأتون إلى يسوع المسيح ضعفاء، ومرضى، ومعذبين، ومنبوذين من المجتمع. وقد قدم لهم - وبسخاء - الشفاء، والضمان،

وإعادة التأهيل. لكنه انسحب من وسطهم حين أرادوا أن يجعلونه رجلاً قوياً لهذا العالم، ملكاً. وكي يرتقي بهم لفهم أسرار الإيمان، فإنما أخلى نفسه وغسل أرجلهم.

لكنه قدم لهم المزيد. فالقوة النابعة من الله يمكنها أن تشفي، ويمكنها أن تمنح القوة للضعفاء، لكن هذا مجرد أحد ملامح قدرتها. فهي تعمل المزيد؛ إذ تُخلِّص وتُنهض. الخلاص والشفاء لا يتصادفان. فالشفاء قد يكون علامة على الخلاص، أما الخلاص فيتجاوز الشفاء، وذلك لأنه مطلوب من جانب الأصحاء والأقوياء كما من جانب الضعفاء والمرضى.

طالما أن الضعف ينبع من صراع داخلي، فإن الإيمان يواجهه باستعادة تناغم النفس. لكن هذا ليس هو الضعف الوحيد. فيسوع نفسه، الذي شفى العديد من المرضى، وأقام من الموت، سمح لنفسه أن يوضع للموت على الصليب دون دفاع عن نفسه. ونحن على حق أن نرى في قبوله الفائق للمعاناة، وفي ضعفه، وفي هزيمته البشرية تعبيراً عن قوته الروحية أسمى من أروع معجزاته.

نتذكر اختبار القديس بولس، الذي تضرع لله ثلاث مرات أن يفارقه مرضٌ ما لكنه تلقى الإجابة: "تكفيك نعمتي" (٢ كو ١٢: ٩). نعم، أحياناً ما تكون القوة النابعة من الله - نعمته - تشفي؛ وأحياناً ما ترفعنا فوق ضعفنا؛ لكنها أحياناً أيضاً ما تترك ضعفنا معنا وتمنحنا قوة مختلفة تماماً - قوة قبول الضعف. علم النفس لا يمكنه هذا. غالباً ما أتأمل في المرضى الذين يُجرّبون بأشدّ عذاب ومع ذلك يكونون ممتلئين بسكينة الإيمان قوة الله وأعتبرها أروع حالاً عما إذا كان ذلك الجسد المُعذَّب أو ذلك الذهن المكروب قد تمَ شفاؤه.

المؤمن الحقيقي يستمد من إيمانه قوة المثابرة رغم كل عقبة. أتذكر شابة اُضطرت بسبب متاعب وظيفية خطيرة

بالجهاز الهضمي أن تكف عن أي نشاط وتترك عملها. فقد كان أقل مجهود يُسبِّب لها عودة مؤلمة للمتاعب لدرجة أنها اضطرت فوراً للتوقف عن أي جهد. وقد تابعت تطور حالتها لعدة سنوات. وقد فشل كل نوع جرَّبته من العلاج الطبي أو النفسي أن يمنحها الارتياح: فالآلام كانت مستمرة. وكنت غالباً مُوشكاً على اليأس. ولكن في مثل تلك اللحظات، حين كنتُ أشعر بالخجل لشعوري بعدم نفعي بالنسبة لها، كانت هي التي تستردّ لي شجاعتي. كانت تردّ دائماً: "أؤمن أن الله له هدف من أجلي، وأؤمن أنه يمكنك أن تساعدني على اكتشافه."

ذات يوم أخبرتني عن دعوة تلقّتها أثناء الصلاة - دعوة قاسية وصعبة تحديداً من وجهة النظر البشرية. أولاً أقنعت مديرة مؤسسة تعليمية، امرأة متفهمة جداً، أن تقبلها للدراسة نصف الوقت: فمريضتي كان يمكنها العمل لساعات قليلة يومياً، وحتى هذا سبَّب لها ألماً رهيباً. ولكن، فيما تشددت بدعوتها، أكملت بنجاح هذه المرحلة في تطورها. والآن لا بدّ أن تفكر في كورس دراسي كطالبة في القسم الداخلي. فكيف استطاعت أن تحتمل النظام الغذائي المفروض على كل الطلبة؟ وكيف استطاعت أن تعمل بانتظام لدرجة أن تجتاز امتحاناتها؟

بالطبع كان الأمر يستلزم معونة الله، والمثابرة التي تأتي مع الإيمان. فقد كانت الآلام لا تزال مستمرة، لكن المريضة لم تسمح لأي شئ أن يعطلها. وقد مرّت الآن سنتان منذ بدء العمل الذي كانت تطمح إليه. وهي تكتب لي اليوم: "عامان من السعادة في مهمة من الله أقوم بها دون إعاقة جسدية ... فمنذ جئتُ هنا تحررت تماماً من متاعبي النفسية ... عندما ينجز المريض مهمة ما يقبلها بحريته، فإنه يُعيد اكتشاف تناغم الجسد، ومن ثم التناغم الروحي."

إن الإيمان لا يخلِّصنا من جميع أمراضنا. ولا يحرِّرنا في هذا العالم من طباعنا الطبيعية. لكنه يسمح لنا بالتغلب عليها

موقتاً، وهذا أمرٌ مختلف تماماً. وبالتالي فإن من يتجهون للمسيحية كوصفة شاملة للنجاح سوف يُصابون بخيبة الأمل حتماً. وقد صادفت كثيرين منهم. رجلٌ تحرَّر من رذيلة مترسخة بعد تجديده جاء ليراني في حالة من اليأس الشديد لأنه بعد سنوات من النصرة السهلة غالباً عليها عاد فانزلق فيها من جديد. وإذا جاز التعبير، فقد كان قد خلط بين اختباره لقوة المسيح وهذا التحرر المحدد، الذي كان مجرد انعكاس له. كان عليَّ أن أقنعه بأن يقبل حقيقة أنه رغم كل النعمة التي نالها، إلا أنه كان لا يزال بشراً ضعيفاً، ومُعرَّضاً دائماً لخطر الارتداد حالما يظن أنه قوي. امرأة شفاها تجديدها من نوبات غضبها. لكنها الآن مُعرَّضة لنفاذ صبرها مع إخفاقاتها الأخرى، ولا يمكنها أن تحتمل ألا تكون كاملة، أو ألا تُستجاب صلواتها دائماً. لكن نفاذ الصبر هكذا يغلق الطريق أمام النمو الروحي الشامل.

الخطوة الأولى نحو تغلب المرء على ضعفه هي قبوله. في الفصل الرابع وصفتُ الميكانيزم التراجيدي الذي كثيراً جداً ما يفاقم حالة من يعانون من شكاوى نفسية؛ أن الحماس الشديد الذي يجاهدون به لإخفاء ضعفهم هو الذي يدفعهم إليه بالأكثر. وتلك هي الحلقة المفرغة التي تُدمِّر الإيمان. ومع ذلك، فلا شئ سوى خيبة الأمل، وأخيراً التمرد والشك، هو الذي ينتظر محاولة أن نجد في الإيمان ما لا يمكن أن يقدمه، أي الخلاص من طبيعتنا البشرية، من الضعف المتأصل الذي يبقي قرعتنا في هذه الحياة، أو من الضعف الذي يكون خاصاً بالفرد لأنه قد وُلِدَ به.

الإيمان لا يُخلِّص تماماً شخصاً مفرط المشاعر من ميله الأساسي للعاطفة. لكنه يحرره من الخوف من عاطفته التي ظلّت تجعله أكثر عاطفية. الإيمان لا يُخلِّص شخصاً حساساً من حساسيته الأساسية؛ لكنه يحرره من خوفه من المعاناة، التي تجعله أكثر حساسية.

الإيمان يساعدنا أن نقبل طبيعتنا، أن نحمل أثقالها

كصليب، أن نقدمها لله لاستخدامها في خدمته، وأن نخرج منها ببعض الخير وليس مجرد المعاناة.

بهذه الكيفية فإن الشخص العاطفي، بدلاً من أن يتمرد ضد عاطفيته، فإنه - وفقاً لتعبير بيرجسون[11] - قد يُحوِّلها من صورتها الضارة من "الاهتياج السطحي" إلى صورتها الخلاّقة من "الحساسية العميقة."

الإيمان يقودنا لقبول أنفسنا، وقبول الآخرين، تماماً كما يقبلنا الله جميعاً كما نحن.

علاوة على ذلك، هناك أمراض بدنية ونفسية لا يمكن أن يحررنا منها أي علاج طبي أو نفسي. فبدلاً من أن نسمح لها بأن تصير هواجس لنا، يمكننا في منظور الإيمان أن نستمد منها المنافع. أحد زملائي يُعاني من قصور جنسي يمنعه عن الزواج. ربما يتولى محلل نفسي محاولة علاجه، رغم أني أشك في ذلك، حيث أن معظم الأطباء النفسيين المميزين لديهم حكمة كافية لإدراك حدود إمكاناتهم العلاجية في حالات معينة. وبعدها لا يكون لديهم ما يمكنهم عمله لأنه ليست لديهم إجابة أخرى يمكنهم تقديمها. أما حلّ هذه الحالة المحددة فليس نفسياً بل روحياً، وقد وجده زميلي بالفعل. وهو أن هدف الحياة ليس هو الصحة بل حمل الثمر. فرغم حرمانه من الاتزان الطبيعي الذي يقدمه إشباع الغريزة الجنسية في الزواج، نال بالإيمان اتزاناً مختلفاً - إعلاء غريزته بزواجه بالعلم، وهو يعتبر عزوبته تلائم قصد الله من أجله لدرجة أنه قد يكرس نفسه للأبحاث العلمية بصورة لم تكن لتتاح له إن كان قد تزوج.

وهذا أيضاً هو الحلّ المناسب للفتيات غير المتزوجات. فأن يقترح أحدهم أن يتورطن في "علاقات متحررة" فهو يُغرقهن - بغضّ النظر عن أية اعتبارات أخلاقية - في مشكلات نفسية تكون فيها الفتاة هي المتألمة الأساسية. وأن

11 *The Two Sources of Religion and Morality*, pp. 32 and 33

يقترح آخر أن يقبلن قرعتهن دون شكوى هو أن يحكم عليهن بالتوتر الأخلاقي والنفسي الملازم لاتجاه عدم الشكوى - وهذا ردّ فعل قوي شامل. أما أن تنصحهن بالتسليم للقضاء والقدر من الناحية الأخرى فهو أن تفتح الباب أمام ردود الفعل الضعيفة. ولكن منذ اللحظة التي يتمكنّ فيها من اعتبار عزوبتهن لا كمصير محزن كئيب بل كدعوة من الله، يدعوهن فيها لحياة الخدمة، خدمة كتلك التي يصفها القديس بولس في حالته الشخصية، فسوف يتغير شكل حياتهن. ولا شك أن قليلات جداً ينجحن في هذا. ولا شك أيضاً، بالمعنى الذي تكلمت به في هذا الكتاب عن حالتنا البشرية، لن يمكنهن أبداً من التأكد من حلّ المشكلة بصورة مستمرة. ومع ذلك، فهذا هو الحلّ الوحيد الذي يأتي بالنصرة الحقيقية.

إلا أن هناك صلباناً أثقل حتى من حملها: صلبان الحب غير المتبادل، صلبان دعوة إلهية مفقودة، صلبان سرّ عائلي تراجيدي، أو صلبان خطأ يتعذر إصلاحه. كثيراً ما قال لي أكثر من شخص عقب اعتراف مؤلم: "أنتِ تفهم الآن لماذا أنطوي على نفسي. فأنا لا يمكنني أبداً أن أقيم صداقة حميمة مع أي شخص: فماذا لو عرف ما فعلت!" ومع ذلك، قد يصادف المرء بعض القادرين على التغلب على هذا الشعور، ويحقق إحساساً عميقاً بدرجة كافية بغفران الله يُمكّنه من جديد على التواصل الحرّ مع أصدقائه.

في هذه الصراعات الأخلاقية الرهيبة، لا تكون القوة النفسية هي الضعيفة فقط، بل أيضاً "قوة التدين" كما يُطلق عليها أحياناً. فالمطلوب هو القوة الحية النابعة من العلاقة الشخصية مع يسوع المسيح. وسوف يستوعب القارئ دون شك المقارنة التي أعملها هنا. "فالتدين" ما زال به شئ عقلاني، أو عاطفي، أو مجرد عنه؛ حتى إن كان أحياناً شيئاً معيقاً بسبب كل ما قيل أو كُتب عنه. فلإشباع العطش الشديد لدى النفوس المُعذبة ليس أمامك إلا أن تأخذهم إلى بئر المياه الحية، إلى الشركة الحقيقية مع المسيح.

وهذا ما تقصده امرأة تنتابها صور قلق خطيرة عندما تكتب لي في رسالة: "ليس المسيحية عموماً هي التي أشتاق أن أملكها، بل الله نفسه، بطريقة شخصية تماماً." والله الشخصي - الله معنا - هو يسوع المسيح. وهذا تحديداً هو معنى الإنجيل: تجسد الله نفسه في صورة إنسان، بكل صور القلق، والأتعاب، والدموع التي يكون الجسد البشري وارثاً لها. كما أن الله القوي هو الذي نجرؤ أن نقترب إليه حتى ونحن في غاية الضعف.

افتح الكتاب المقدس، وهذا ما تراه: فقد كان قاسياً عنيداً مع أقوياء، ومقتدري، وأفاضل، وأغنياء، وعظماء هذا العالم. وهذا بالطبع لم يكن بأي روح عداء، بل كي يسحق تلك الثقة بأنفسهم التي كانت تغلق أمامهم طريق الاتضاع. أمّا مع الضعفاء، الذين كان المجتمع يدينهم ويسحقهم، ومع الفقراء، الذين كان يطرحهم مرضهم أو خطيتهم إلى اليأس، فقد كان يحمل لهم فقط كلمات الرقة، وإشارات التشجيع، وكان ينظر إليهم بطريقة تطرد كل ضيقهم.

من المستحيل أن أكتب عن الأقوياء والضعفاء دون أن أؤكد بكل توضيح على الطريقة التي يقلب بها يسوع المسيح مقياس القيم البشرية رأساً على عقب. فمهما كانت شركتنا معه قوية، فلن ننجح أبداً في أن نكون أحراراً كما كان هو من التحيزات الاجتماعية التي تجعلنا نوقر الأقوياء ونحتقر الضعفاء. كثيراً في تأملي اليومي ما يكشف لي الله أن أحد اتجاهات شعوري بالتفوق قد تسلّل إلى كلماتي المشجعة لأحد منبوذي الحياة، رغم صدقها وأمانتها.

***

ربما يكون بعض قرائي قد شعروا الآن بخيبة الأمل حين ذكرت أن الإيمان لا يخلصنا من طبائعنا الطبيعية. ولا شك أن بعضاً آخر قد احتجّوا في قلوبهم. فكيف يتماشى هذا التأكيد مع شهادة عدد هائل من المسيحيين الذين أعلنوا أن

حياتهم قد تغيرت تماماً منذ كرسوها ليسوع المسيح؟

الواقع أن قوة الله لا تلمس فحسب حالتنا الذهنية؛ لكنها متجسدة فينا، مُغيرةً الكثير من سلوكنا الفعلي. والمرة الأولى الذي انكشف لي ذلك كانت حين قابلت أحد زملاء دراستي القُدامى. وقد كان لا يلعب أي دور مهم في أنشطة الطلاب لأنه كان خجولاً انسحابياً وغير محدد الهدف. وكان قد سافر للخارج ولم أسمع أي شئ عنه سوى إشاعة تتحدث عن تجديده. ولكن عندما رأيته من جديد تحيرت للغاية. فقد كان يتألق بسلطة جريئة لدرجة أنني تعرفت عليه بالكاد. وقد همس أحد أصدقائي في أذني: "الآن أؤمن بالروح القدس!"

منذ ذلك الحين رأيتُ حياة كثيرين تتغير جذرياً، وأحياناً بسرعة شديدة. ومع ذلك لا بدّ أن أضيف هنا ما أؤمن بحقيقته أيضاً: مهما كان التغير الذي يعمله ذلك الإيمان في حياتنا تغيراً حاسماً، فإن كلاً منا يعيش حياته الجديدة بأسلوبه الطبيعي. وشيئاً فشيئاً فإن ملامح طبائعنا السائدة تؤكد على نفسها من جديد بشكلٍ أو آخر. وباستثناء حالة الارتداد الروحي، فإن حياتنا تبقي حقاً مختلفة عما كانت عليه قبل أن يحدث التغير، لكنها تحتفظ بطابع شخصي معين. وفي أية لحظة قد يقترب إلهامٌ ما من ردود أفعالنا الطبيعية، ولكن ليس بغرض أن يكبتها تماماً. فالشخص الخجول يكون قد تغلّب على خجله، ويكون قد وقف وتحدث بسلطان أمام جماهير غفيرة. وفي غمرة فرحه بتحرره ربما يكون قد اشترك بحماس في الحياة العامة. لكننا سنجده يوماً ما مشتركاً من جديد في أحد أشكال الخدمة المسيحية المتضعة. وهذا ليس خجلاً بعد: فقد كان يمكنه بسهولة أن يعود لدائرة الضوء مرة أخرى. لكن طبعه لم يتغير، وما زالٍ يضفي على عمله طابعه المميز. ومع ذلك، لم يعد هذا يُشكل إعاقة، بل موهبة طبيعية تُرشحه لخدمة الله بطريقته الخاصة.

بنفس الكيفية، يمرّ رجل قويٍ باختبار روحي عميق، ونتيجة ذلك يُقلَع عن النشاط المفرط المتباهي الذي كان مشتركاً فيه. فهو يدرك إلى أي مدى كان ينخرط في دوامة هذا النشاط المحموم حتى لا يضطر لمواجهة مشكلاته؛ والآن يشعر أن ما يحتاجه هو أن ينسحب ويهدأ كي يبحث عن حلّها. لكن تركيبة ذهنه لن تسمح له بالبقاء في حالة التأمل لفترة طويلة. فمن الاقتناعات الجديدة التي تتكون خلال تأملاته تنبثق خطط جديدة، وسرعان ما يُلقي بنفسه مرةً أخري كي يحققها.

لن يكون نشاطه مثلما كان من قبل. فسوف يكون أكثر استرخاءً، وأكثر هدوءاً، وأكثر إثماراً. ومع ذلك يكون قد عاد إلى السيادة الطبيعية لطبعه. يوجد هنا شئٌ ما أكثر من التفاعل بين حياته الطبيعية والحياة المُلهمة الجديدة. فما حدث هو أن مواهبه الطبيعية قد وُضعت في خدمة حياته الجديدة، وقد "توجهت" لهذا الغرض. وهكذا يكون طبعه قد تقدس إلى حدٍ ما.

ومع ذلك، لن يكون من الحق بالنسبة لي أن أقدم هذه العملية فقط بهذه الصورة الإيجابية. فما قاله باسكال ما زال حقيقياً: "إن طردتَ ما هو طبيعي، سيلحق بك." هناك ثبات معين في ميولنا الفطرية رغم كل التقلبات التي يأتي بها الإيمان.

ومن هنا، إن لاحظنا بعناية حياة من اهتم بهم يسوع المسيح، نجد فيهم مزيج من حرية الروح مع تصميم الطبيعة؛ وهو مزيج من العناصر الجديدة التي أحدثها التجديد في حياتهم، والعناصر القديمة التي شكلت طبعهم الفطري.

معظم الأشخاص ينفرون من التفكير في التعقيد التام المركب للواقع. فهم يفضلون الأنظمة الثابتة. ولهذا نجدهم عموماً يُفرطون في تبسيط الأمور، مُنكرين وجود واحدة أو

أكثر من مجموعات العناصر هذه. أو يتظاهرون بتشكك تام بخصوص الروح. وأمام كل الأدلة يُنكرون أن التجديد يأتي بأي تغير حقيقي في حياة الإنسان. ولا يرونه أكثر من مجرد شعور شخصي عابر، وهمّ راجع للإيحاء. ويُضفون صفة مطلقة على ملاحظة باسكال: فهم يرون ما يعاود الظهور من الطبع الطبيعي، وليس ما يبقي من التحول الروحي.

وعلى النقيض، فهناك آخرون يؤمنون نتيجة الحماس المتولد من اختبارهم للتجديد أنهم قد تغيروا تماماً أكثر مما هم في الحقيقة. كما يشعرون بالضيق إن تشككنا في أنهم ما زالوا يتصرفون إلى حدٍ ما وهم يطيعون طبيعتهم الأصلية. وللأسف فإن رفضهم لإقرار الحقيقة إنما يعرِّضهم لخطر حرمانهم من المزيد من اختبارات التحرير.

عندما أتأمل حياتي الشخصية، وحياة المسيحيين الذين أعرفهم، فدائماً ما أجد نفس الاتزان والتفاعل بين العوامل الروحية والطبيعية التي تتحكم معاً في أفكارنا، ومشاعرنا، وأفعالنا. هل يفضل القارئ قصة خيالية يصير فيها الأقوياء ضعفاء والضعفاء أقوياء؟ أو قصة يصير فيها كل واحد قوياً في النهاية؟ وبصورة خاصة، هل سأحبط الضعفاء بأن أخبرهم أنه رغم الانتصارات المتكررة الحقيقية على ضعفهم، فسوف يكون عليهم دائماً أن يعملوا حسابه في هذه الحياة؛ وأنه سيكون لديهم دائماً الميل الفطري الذي كنا نناقشه في بداية هذا الكتاب؟ إن الأوهام يمكنها أن تكون أكثر إحباطاً من أي شئ آخر.

إن كانت حياتنا مُوجهة بالروح، فقد نعتمد على الانتصارات المحددة الحقيقية على طبيعتنا، ولكن لا يمكننا أن نتوقع أبداً انتصاراً كلياً نهائياً. فمن الخطأ أن ننكر الانتصارات الجزئية مثلما يكون من الخطأ أن نبالغ في أهميتها. فطبيعتنا يمكنها أن تتغير جزئياً؛ ولكن يبقى جزءٌ منها لا بدّ أن نقبله ببساطة كما هو. فأن نفضل القصة الخيالية هو في الواقع أن نتمرد علي حالتنا البشرية، وأن نرفض أن

نحمل صليبنا، وأن نسعى لنعرف في هذه الحياة التحرير الكامل الذي سيكون لنا فقط في الحياة الأخرى.

أوضحتُ بالمثل، في كتابي *Technique et foi*، أن الإيمان الأكثر أصالة ليس هو الإيمان الذي يدّعي أنه مستثنى من الشك، بل هو الإيمان الذي يتلمس طريقه من خلال الكثير من حالات التردد، والأخطاء، وخيبات الأمل، والبدايات الخاطئة. يخبرنا إدوارد هاويل في كتابه *Escape to Live*، عن كيف أنه عندما كان أسير حرب في اليونان طلب بصبر إرشاد الله لتدبير هروبه. وبمجرد أن فكّر في الأمر حتى انتابت الشكوك والاعتراضات ذهنه. فكان عليه أن يعود للصلاة، ويعترف بأخطائه، ويهدئ نفاذ صبره، ويتغلب علي تردده. وهذا كله يشير إلى صراع الإيمان المتضع والصعب، بينما الناس دائماً ما يفضلون الاستعراضات السهلة للوحي المعصوم. ومع ذلك، رغم كل التعقيدات، فإن قصد الله واضح، فخطوطه تتضح تدريجياً، وأخيراً فإن النجاح يُتوِّج الولاء الذي يرفض الاستسلام بإصرار.

هناك كتاب آخر حديث لـ Mlle Madeleine du Fresne[١٢] يحمل شهادة ليست أقل تأثيراً من هذه الحقيقة. ففيما ألقى الجستابو القبض عليها في فرنسا المحتلة لأنها ساعدت صديقة يهودية علي الهرب، وتعرضت لتحريات المحققين الماكرين، وتمّ حبسها في معسكر اعتقال، نراها تطلب يوماً فيوماً إرشاد الله. ونرى كلاً من قوة الخوف التي لا تفارق عقلها أبداً، والتي تهدد دائماً بكارثة، وقوة الروح التي تُمكّنها دائماً من التغلب عليه. وجنباً إلى جنب نرى عدوى الخوف والجُبن، وعدوى الإيمان بالسكينة الغامرة التي تأتي بها. كما نرى الاختبارات المُعجزية التي قد يتمتع بها المؤمن تتناوب مع الإخفاقات التي تسحق الفؤاد؛ أوقات الاستنارة التي نكون فيها منقادين بالله، والساعات المظلمة التي نحاول

١٢ Madeleine F. du Fresne, *De l'enfer des hommes a la cite de Dieu*, Spes, Paris, 1947

فيها التعلق بذكرى اختبارات الماضي؛ "المغامرة المفقودة"، ثم "المغامرة المستعادة".

تلك هي حياتنا حقاً، مزيج عجيب من انتصارات غير مرجوّة وهزائم غير مُتوقعة. فنحن لا نعرف أبداً أمان الالتزام الروحي دون الارتداد. كما أن الإلهام عابر، لكنه دائماً ما يتدفق من جديد. فنادراً ما ضللنا طريقنا دون أن يردّنا الله. كما أنه بفقد الطريق والعثور عليه من جديد بصورة مستمرة فإننا نتذكر باستمرار ضعفنا ونتذكر قوة الإيمان.

وهذا هو الموقف الغريب الذي يجد المسيحي نفسه فيه، والذي يصفه روجر ميل Roger Mehl بتعبيرات فلسفية[١٣]؛ موقف المسيحي المولود في حياة جديدة تكون واقعية بالفعل في هذه الحياة، لكنها ستكون كاملة وبلا عيب فقط بعد موته وقيامته. يعلّق ميل أنه في الكتاب المقدس "بعض الفقرات التي تتحدث عن هذه الحياة الجديدة تتعلق بالحياة الآخرة، بينما بعضها الآخر تتعلق بالزمن الحاضر. فالأسفار الكتابية تتحدث عن عظمة الإنسان الجديد من الناحيتين: كشيئ سوف يحدث وكشيئ تمّ تحقيقه بالفعل." وهنا يكمن "سر الإنسان الجديد، الحقيقي والمخفي، الحقيق ولكن ليس المستعلن بعد ... فالإنسان الجديد حقيقة موضوعية يدركها الإيمان ... وسوف تُستعلن جدته فقط في اليوم الأخير. ولكن، رغم أنه مخفي، فإنه يعمل بالفعل في البشر: فهو يأتي بثمره دون أن نكون قادرين أبداً أن نضفي على إظهاراته التجريبية قيمة معيارية أو إختبارية."

ومن هنا، فإن المعنى الحقيقي للاختبار الديني لا يكمن في التحول الذي يُحدثه في حياتنا، بل في حقيقة أننا قد عرفنا فيه الله. وهذا هو ما يدوم حتى إن بقيت حياتنا مزيجاً من الجانب الإلهي والجانب البشري. وهذا ما يساعدنا على قبول

13 Roger Mehl, *La condition du philosophe chretien*, Delachaux and Niestle, Neuchatel, 1947

دراما الحياة الإنسانية التي تنتج عن نفس حقيقة الصراع اللانهائي الدائر فينا بين ما هو إلهي وما هو بشري. وهذا حقيقي إلى الحدّ الذي يكون فيه اختبارنا قد حمل ثماراً حقيقية، إلى الحدّ الذي تكون فيه حياتنا وطبيعتنا قد اجتازت تغيراً ملموساً ظاهراً، حتى يمكننا أن نشهد عن قوة الله. لكن تلك القوة تتخطى شهادتنا الهزيلة بمراحل. فليس المهم هو اختباراتنا، بل حقيقة أننا نكون قد عرفنا فيها قوة نعمة الله. وهذا شئ لا ننساه، حتى إن جاء اليوم الذي تظهر فيه من جديد في الأفق تلك الضعفات، والتجارب، والخطايا التي كنا نظن أننا قد تخلّصنا منها نهائياً؛ وحتى إن كان لا بدّ أن نحارب بلا هوادة ضد طبيعتنا.

تلك هي مهمتنا، أن نحارب، أن نتماسك ضد ميولنا الفطرية لردود أفعالنا القوية أو الضعيفة، تلك التي مُنَحنا إياها عندما وُهَبتْ لنا الحياة نفسها، والتي ستبقى معنا طوال حياتنا. لكن المعركة لن تكون نفس المعركة كما كانت من قبل. فالإيمان المولود فينا نتيجة أحد الاختبارات الروحية الملموسة إنما يبقى حتى إن ارتددنا للوراء. أما ما يتغير جذرياً فهو مناخ حياتنا. فرغم أن ميولنا الفطرية ستبقى معنا، فسوف نجد من الناحية الأخرى أنه من الممكن أن نتخلص من الدوائر المفرغة التي وصفتها من قبل، والتي تفاقم تلك الميول باستمرار. بعد ذلك، إن كنا مرتعبين من أننا لا نزال نكتشف في أنفسنا ردود أفعال طبيعية قوية أو ضعيفة، فبغضّ النظر عن شعورنا بخيبة الأمل، سوف نراها كفرص لصور جديدة من التحرر.

أودّ أن أختم كتابي بهذه الملاحظة. الحياة المسيحية ليست اختباراً جذرياً حاسماً يتم مرة واحدة إلى الأبد. لكنه سلسلة متصلة من الاختبارات تتحول فيها بنعمة الله حتى الهزيمة والارتداد إلى انتصارات جديدة.

دعونا نتأمل من جديد الموقف الذي وصفته، الذي أكد فيه الناس في البداية على أن "كل شئ قد تغيّر"، ثم نجد

أن الإنسان الطبيعي العتيق ما زال حيًّا بينما كانوا يظنون أنه منهزماً. في الواقع، طالما أنهم صرحاء بدرجة كافية مع أنفسهم في إقرار هذه الحقيقة، فسوف نراهم يتغيرون مرة أخرى - وأكثر تغيراً. وهذا النمو من تغير إلى تغيرٍ هو الذي يُشكِّل الاختبار المسيحي.

فيما نعبر هذا الطريق، نجد أن النعمة تزداد باستمرار. في البداية كان غفران الله يغسل خطية معينة، انتصار محدود على ميل طبيعي معين. ولكن بهذا الاختبار الأول للنعمة نتعلم أن نعرف أنفسنا بشكل أفضل؛ حيث نكتشف خطايا أكثر، ونكون أكثر قدرة على قياس مدى تشبث ميولنا الطبيعية. ومن هنا تزداد النعمة المعطاة لنا.

أتذكر إحدى مريضاتي التي تربّت في تلك البيئة التي سبق ووضعتها، والتي تتمتع بالإيمان الورع والمتساهل في نفس الوقت - بيئة تكون فيها الخطية معناها الشراب، والمقامرة، والنساء، والخلاص منها يكون بالنعمة. وبعد جلسات العلاج النفسي، اكتشفت مريضتي عدداً كبيراً من الخطايا الأخرى في نفسها، وأُصيبت بالصدمة إزاء هذا الاكتشاف. قالت لي: "أشعر أن النعمة التي تربيتُ على الإيمان بها كانت صندوقاً ضيقاً، أصغر بكثير من أن يحوي كل هذه الخطايا التي أتعلم تمييزها الآن!"

النعمة أكبر مما نتخيل بما لا نهاية. فكل شئ تحقق بالفعل في يسوع المسيح. وبقدر ما نميز الشر في قلوبنا، بقدر ما نقدِّر بامتنان ما فعله من أجلنا. وبقدر إدراكنا لتعاستنا، بقدر ما نرى أنه قد استجاب لها مسبقاً بذبيحته.

وهكذا فإن الرحلة القاتمة لاكتشاف بؤسنا تتحول إلى رحلة مشرقة لاكتشاف النعمة. كما أن "صندوق النعمة الضيق" يتسع بمقدار ما ينبغي عليه أن يحويه.

يأتي كثيرٌ من الضعفاء لمقابلتي. وقد علّمتني خبرتي في مساعدتهم بالصبر والمثابرة حقيقتين متناقضتين ظاهرياً:

قوة الحياة الروحية الهائلة للتغلب على ضعف المزاج الطبيعي، والميل الجارف لهذا المزاج الطبيعي الذي يعيد تأكيد نفسه باستمرار، حتى عقب أروع الانتصارات فوراً. وعليه، يتعلّم المرء في سياق ذلك أن يميز بين الإيمان والتفاؤل. وهذا صراعٌ صعب يُفقد فيه الأساس بمجرد نواله. وغالباً ما يكون المرء على وشك اليأس. ولكن رغم كل ارتدادنا، فدائماً ما تبدأ المسيرة للأمام من جديد طالما أننا نعود كل مرة بأمانة طالبين معونة نعمة الله. وأخيراً يأتي اليوم الذي يمكننا فيه أن نرى ثمار هذا الجهاد المتواصل. فالنعمة نمت. وبيئة حياتنا تغيرت تدريجياً رغم تناوب الهزيمة والنصرة. وفي تلك البيئة الجديدة يتم إحراز الانتصارات بسهولة أكبر. كما أن ميلنا الطبيعي تجاه الفوضى، والهرب، وخيبة الأمل يكون عنيداً حقاً؛ لكننا لنفس هذا السبب نكون قد ضاعفنا خلال الشهور والأعوام اختبارات تحريرنا. وهذا هو الأهم: حاجتنا للتعلّق المستمر بالله، أي عادة الرجوع إليه، عادة العلاقة معه.

الكتاب المقدس في واقعيته لا يقدم لنا صورة مثالية عن صفوة من البشر خالية من كل الضعف الطبيعي؛ لكنه يكشف لنا أشخاصاً، مثلك ومثلي، يحملون كل أثقال طبائعهم الفطرية. فهناك الأقوياء كإيليا، وهو يتعقب أنبياء البعل بحماس. وهناك الضعفاء كإرميا الذي تحاصره تجربة أن يبقى صامتاً. وهناك الشخصيات المليئة بالتناقضات كيعقوب، أو داود، أو بطرس، الذين يتأرجحون بين الدوافع السامية والخيانة.

وإن كنا نعاني من عبوديتنا المستمرة لطبيعتنا، فإن الكتاب المقدس يكشف لنا أنه ليس علينا بالضرورة، أن نتحرر منها كي نختبر قوة الله. فالله يستخدم هؤلاء الأشخاص كما هم. فهو يعزي إيليا حين يكون يائساً من فشل معجزاته. ويشدد إرميا ويخرجه من صمته. ويكشف لبطرس إنكاره له ويدعوه ليكون قائداً للكنيسة.

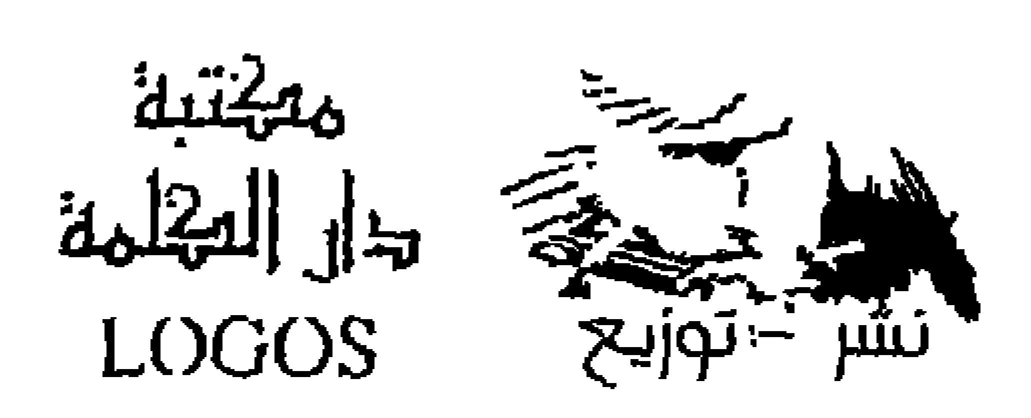
والأكثر من ذلك، في حياة كل واحد من هؤلاء، كما هو الحال من خلال الفترة التاريخية الطويلة التي تغطيها، يكشف الكتاب المقدس عن حركة من اختبارٍ إلى آخر نحو اكتشاف الله، رغم كل ما يحتفظ به كل إنسان من طبيعته البشرية.

يسوع المسيح وحده، الله الظاهر في الجسد، هو من يظهر كإنسان كامل، ومستثنى تماماً من الانعكاسات التي وصفناها تحت مُسمى ردود الفعل القوية أو الضعيفة. فهو حرّ دائماً، لأنه دائماً ما ينقاد بالروح. ومع ذلك فإنه يُشاركنا مواطن ضعفنا ومواطن قوتنا: تعبنا، وخيبات أملنا، ويأسنا؛ حماسنا، وفرحنا، وغيرتنا. لقد ظلّ صامتاً أمام بيلاطس، لكنه رفع سوطاً في ساحة الهيكل. كان يتحنن على الضعفاء، لكنه كان يهاجم الأقوياء بعنف. صرَخ في عذاب على الصليب، لكنه أعلن ألوهيته بسلطان. ومع ذلك فإن كلماته وأفعاله لم تكن لها قط السمة الآلية لردود الأفعال النفسية. فهو ليس قوياً وليس ضعيفاً، بالمعنى البشري والطبيعي لهاتين الكلمتين.

إنه حيّ. فإن فتحنا قلوبنا له سيملأها بحضوره. وما دام يحيا فينا هكذا، نكون محررين من ردود أفعالنا الضعيفة، بينما نكون في نفس الوقت أكثر إدراكاً لضعفنا عن أي وقتٍ مضى. كما نكون محررين من ردود أفعالنا القوية، بينما ننال منه في نفس الوقت قوة تتخطى المقارنة.

لأنه وحده يستجيب للعذاب المتأصل فينا الذي نخفيه وراء ردود أفعالنا الظاهرة. فمن خلاله يمكننا أن نقبل ضعفنا وأن نتغلب عليه. ومن خلال وجودنا في المجتمع يمكننا أن نُساعد على كسر الدوائر المفرغة التي تطرحه في الفوضى وتدفعه للحرب، والمعاناة، والظلم. ويمكننا أن نشير له بالعلاج الحقيقي لجميع أمراضه: الإيمان بيسوع المسيح.

نُرحب بآرائك ومقترحاتك.. رجاء لا تتردد في الكتابة
إلينا.. فهذا يُسعدنا



١٦ شارع محمود بسيوني - من ميدان
الشهيد عبد المنعم رياض- الدور السابع-
شقة ٢١- وسط البلد - القاهرة - مصر

(+٢٠٢) ٢٥٧٩٨٤١٤
٠١٨٦٥٤٨٣٨٨
٠١٦١٣٧٣٢٩٨
www.el-kalema.com
info@el-kalema.com

يستطيع لاعب الشطرنج الماهر أن يستعيد وضعه في لعبة يبدو أنه ميئوس منها بوضع قطعه القليلة المتبقية حتى يغلب خصمه قبل أن يُباغت بالهجوم في نقاطه الضعيفة، بينما لعبة الخصم تُعاق من جانب قطع الشطرنج الخاصة به الموجودة بلا جدوى مانعةً بعضها البعض.

كلنا معتاد على تصنيف الناس إلى فئتين: الأقوياء والضعفاء. فهناك من يبدو أنه محكوم عليهم بالهزيمة والانسحاق. وغالباً جداً ما تعرّضوا للضرب في معركة هذا الكون المشتركة لدرجة أنهم يتوقعون دائماً أن يتكرر ذلك، وهو ما يستنزف قواهم. كما أن من يعرفونهم يتوقعون ذلك أيضاً، ويجمعون لأنفسهم القوة والضمان من الحقيقة. وحتى الغريب لديه حدس فوري بضعفهم ويعاملهم إما بصورة متعالية أو بعدوانية - وكلا الأسلوبين يتسبب في إهانتهم. على الجانب الآخر، فإن نفس الحدس يحذره من قوة الأقوياء، حتى أنه يتبنى ناحيتهم اتجاهاً يؤكد على قوتهم بالخجل أو الخضوع لرغباتهم. الثروة تفضل الأقوياء، كما اعتاد القدم [illegible]

في الواقع، الحقائق أكثر تعقيداً: فنحن جميعاً ضع [illegible] وأقوياء تجاه البعض الآخر.



٠١٦١٣٧٣٢٩٨
www.el-kalema.com
info@el-kalema.com



